دكتور محمد عمارة

جمال الدين الأفغاني المفترى عليه



دار الشروق

جمال الدين الأفغاني

المفترى عليه

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

© دار الشروق

[illegible]

[illegible]

SHOROUK INTERNATIONAL. 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK. TEL: 637 2743/4. TELEX: SHOROK 257793

اختصاص الدكتور لويس ، فلقد نشأ بيننا ما أسميه « التعايش السلمى » ، المرتكز إلى « حسن الجوار » .. نلتقى قليلا ، ولكن فى ود واحترام .. أقرأ له ما يعرض علينا من نقد وتقويم للآداب الأوربية ، قراءة متذوق غير متخصص .. وأبدى إعجابى فى كثير من الأحيان .. ويقرأ الرجل بعض أعمالى ، ويثنى عليها ثناء أشكره عليه ..

لكن « الظاهرة » التى أقلقتنى ـ وربما أقلقت غيرى ـ هى خروج الدكتور لويس عن إطار تخصصه واختصاصه ، لا إلى دائرة فنية أو فكرية أوسع ـ فهذا حقه المشروع شريطة أن يتأهل له ـ وإنما إلى دائرة فكرية ليست بينه وبينها أية علاقة على الإطلاق ! .. ثم إصداره العديد من الأحكام الخطيرة والخطرة فى قضايا فكرية لها حساسيات شديدة ، بحكم صلتها العضوية بالمعتقدات المقدسة لجمهور الأمة .. ومجىء نشاطه الجديد هذا وأحكامه تلك فى إطار الجهود التى تنظمها وتوجهها دوائر استشراقية غربية ـ أوربية وأمريكية ـ تصديا لتيارات فكرية محلية ، بعضها قومى وأغلبها إسلامى .. ثم .. ـ وهذا هو المصدر الأساسى للقلق من هذه « الظاهرة » ـ أن تصدى الدكتور لويس لهذه القضايا قد جاء دون « مؤهلات » ، ليس بالمعنى الأكاديمى ، ولا لأنه مسيحى يقتحم ميدان الكتابة فى التأريخ لحركات الاصلاح الإسلامية ، وإنما بالمعنى « الفنى » ، الذى يتطلب من أى إنسان أن يتأهل ولو بالحد الأدنى من أسلحة الميدان الذى يريد أن يحارب فيه ! ..

لقد أقلقتنى هذه « الظاهرة » ، لأحكامها الخطيرة ، واستنتاجاتها الغربية ، ولما مثلته وتمثله من استفزاز للضمير القومى والإسلامى .. وفوق ذلك تجيئها فى إطار مخطط لا نحسب أن معالمه ومراميه قد غابت عن فطنة الدكتور لويس ؟ ! ..

وعلى سبيل المثال ...

● ففيما بين حرب السويس سنة ١٩٥٦ م وعدوان سنة ١٩٦٧ م استقطب المشروع القومى العربى ، الذى قاده جمال عبد الناصر ، جمهور الأمة العربية . وبرزت لهذه الأمة ذاتيتها الخاصة تجاه الغرب الاستعمارى وحضارته الغازية . وأخذ عقل الأمة يبحث عن ذاتها وقسماتها التى تميزها عن أعدائها وغزاتها التاريخيين . فإذا الإسلام السياسى والحضارى يبرز كالمصدر الأعظم والصبغة الأفعل فى تكوين الملامح القومية لهذه الأمة . الأمر الذى دفع إلى المقدمة ظاهرة « الإحياء الإسلامى » و « الصحوة الإسلامية » الحالية .. حتى لنستطيع أن نقول : إن التيار الإسلامى المعاصر ، قد انطلق ، مواصلا ومطورا ، المشروع القومى العربى الناصرى ، رغم ما حدث بين القوميين والإسلاميين من صراع سلمى أو عنيف ؟ ! ..

وفى خلال تلك الحقبة ـ حقبة بزوغ شمس المشروع الحضارى الخاص للأمة العربية ـ تعلقت آمال شعوب الشرق الإسلامية ، بل وغير الإسلامية ، بالأمة العربية ، آملة أن تقود نضالها فى سبيل الاستقلال السياسى والاقتصادى والحضارى ، كما صنعت ذلك ، من قبل ، بالفتوحات التى أعقبت ظهور الإسلام ! ..

وهكذا تلاحمت الدائرة العربية بالدائرة الإسلامية . وبرز للعقل الواعى : إفضاء « المشروع القومى العربى » إلى « الدائرة الإسلامية » . وارتباط « الدائرة الإسلامية » بالمشروع « القومى العربى » . والعلاقة الوثيقة بين « العروبة » و « الإسلام » ! ...

● ولقد كان طبيعيا أن يتصدى الغرب الاستعمارى . وحضارته العدوانية

الاستعلائية للمشروع الحضارى « العربى ـ الإسلامى » ، الذى يريد أن يفسد مقولة الغرب الاستفزازية التى تزعم أن حضارته هى الحضارة « الإنسانية » . وأن على كل الأمم ان تتخلى عن مواريثها الحضارية وخصائصها القومية ، وتتحول إلى كيانات حضارية تابعة للغرب ، وإلى « هوامش » للحضارة الغربية ... لقد نهضت دوائر الفكر الاستعمارى فى الغرب ، لتشن حملتها الضارية ضد بوادر مشروعنا الحضارى الخاص . مدافعة عن ما يمكن أن تسميه « الاستعمار الاستيطانى الحضارى » . كما تدافع جيوش الغرب وشركاته عن « الاستعمار الاستيطانى » المتمثل فى الكيانات العنصرية ، والقواعد العسكرية ، والنهب الاقتصادى لثروات البلاد التابعة للمركز الغربى ! ..

وفى خضم هذا الصراع الحضارى .. بدأت وبرزت « الظاهرة المقلقة » للدكتور لويس عوض ! .. فى تلك الحقبة ، على وجه التحديد ، بدأ الرجل يتخطى نطاق اختصاصه وتخصصه ـ النقد الأدبى ـ ويتقدم إلى قرائه « مفكرا » يوجه سهامه إلى لب المشروع الحضارى الخاص للأمة .. إلى « العروبة » و « الإسلام » ؟ ! ..

● فبينما الأمة تسعى إلى بلورة ملامح مشروعها الحضارى « **المتميز** » ـ ولا نقول المعادى ولا المنغلق ـ عن الحضارة الغربية ـ وخاصة فى جوانبها الاستعلائية وروحها المادية ـ بينما الأمة تسعى على هذا الدرب ، برزت أهمية تجديد الصلات بين « الحاضر » وبين « التراث » ، وضرورة تأسيس المشروع الحضارى الجديد على « الثوابت » و « القيم » و « القسمات الحضارية » التى هى بمثابة « البصمة » المميزة لأمتنا عبر تاريخها الطويل ، والتى لا تزال صالحة للعطاء الذى يمثل طاقة خلاقة فى التقدم والنهوض ...

وهنا .. تقدم الدكتور لويس . فى صورة « مؤرخ الفكر » ليقول فى كتابه [تاريخ الفكر المصرى الحديث] : **إنه لا علاقة بين مصر الحديثة وبين التراث العربى الإسلامى . فكل ما فى مصر الحديثة من إيجابيات . وجميع ماعرفته من مظاهر الحرية والديمقراطية . إن فى « الفكر » أو فى « التنظيم » . إنما هو أثر من آثار الحملة الفرنسية عليها سنة ١٧٩٨ م .. حتى يمكن تلخيص كتابه هذا فى كلمات تقول : « إن مصر الحديثة هى هبة بونابرت »** ؟ ! ..

وبالطبع . فليس المقام الآن خاصا بتفنيد دعوى الدكتور لويس . التى ترمى إلى عزل حاضر الأمة عن تراثها « العربى ـ الإسلامى » .. فقط نريد أن نسأله ـ وهو الذى قرأ « الجبرتى » ـ : ألم تقرأ ذلك الحوار الذى دار بين عمر مكرم [١١٦٨ ـ ١٢٣٧ هـ ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢ م] وبين الضابط الأرنئودى « عمر بك » . أثناء حصار الشعب المصرى . بزعامة عمر مكرم . للوالى العثمانى خورشيد باشا . فى القلعة . فى سنة ١٩٠٥ م ؟ ..

لقد دار هذا الحوار . الذى بدأه الضابط الارنئودى . على النحو التالى :

عمر بك : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم . وقد قال الله تعالى : [أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم] [1] .

السيد عمر مكرم : أولو الأمر : العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . وهذا ـ [خورشيد باشا] ـ رجل ظالم . **وجرت العادة ، من قديم الزمان ، أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شىء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان ، إذا سار فيها بالجور ، فإنهم يعزلونه ويخلعونه !** .

---

(١) النساء : ٥٩ .

عمر بك : وكيف تحصروننا . وتمنعون عنا الماء والأكل ، وتقاتلوننا ؟ ! .. نحن كفرة ، حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ ! ..

السيد عمر مكرم : نعم ! .. لقد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم ، لأنكم عصاة[2] » ! ..

نسأل الدكتور لويس عن دلالة هذا الحوار ، الذى هو جزء من فكرية أولى الثورات الدستورية فى حياة مصر الحديثة .. أكانت حملة بونابرت هى مصدره ؟ .. أم أن تراث الأمة وشريعتها الإسلامية كانت الخلفية الفكرية التى تعلم منها عمر مكرم حق الأمة ـ « أهل البلد » ـ فى عزل الولاة ، بل والخليفة والسلطان ، لأن الأمة هى مصدر السلطات ، والظالمون الجائرون من هؤلاء هم « عصاة » للأمة ، عليها أن تقاتلهم ، لأنهم كفروا بشريعة العدل والإنصاف ! ...

هل كانت مصر الحديثة هنا منبتة الصلة بتراثها الإسلامى ؟ .. تبدأ من حيث انتهت الثورة الفرنسية ، ورسولها نابليون ؟ ! ..

● وفى ذات كتاب الدكتور لويس ـ [تاريخ الفكر المصرى الحديث] ـ **يريد أن يعلم قراءه أن « استقلال مصر » ليس هو « استقلالها عن الغرب الاستعمارى » ، بل هو « استقلالها عن ماضيها وتراثها ، وفك الارتباط بينها وبين المحيط الإسلامى الأوسع » حتى ولو كان فى ذلك « تبعيتها للغرب الاستعمارى » ، فى السياسة والحضارة والاقتصاد ! ! ..**

فعنده أن أول مشروع لاستقلال مصر هو ذلك الذى وضعه « المعلم

---

(٢) الجبرتى [عجائب الآثار] جـ٦ ص ٢٢٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

يعقوب » [١٧٤٥ ـ ١٨٠١ م] .. والمعلم يعقوب هذا أفاق ، خرج على إجماع الأمة ، إبان الحملة الفرنسية على مصر ، وخان الشعب ، أقباطا ومسلمين ، وكون فرقة من أراذل الأقباط . الذين نبذتهم حتى طائفتهم . وأصبحوا سوط القمع الفرنسي والنهب البونابرتى لمصر الثائرة على الاحتلال .. حتى لقد منح الفرنسيون ليعقوب هذا لقب « جنرال » . وعينوه « قائمقام سارى عسكر الفرنسيس » ! .. وهو الذى يسميه « الجبرتى » . فى كتابه [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] - « يعقوب اللعين » ! .

« يعقوب اللعين » هذا ، هو ـ عند الدكتور لويس ـ صاحب المشروع الاستقلالى الأول لمصر .. فإذا بحثنا عن ملامح هذا المشروع . كما أوردها الدكتور لويس ، من خلال « هذيان » يعقوب اللعين ، أثناء احتضاره على ظهر السفينة الانجليزية ـ « الفرقاطة بالاس » ـ التى أقلته مع الخونة الذين جلوا عن مصر فى ركاب جنود الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ م .. وهو « الهذيان » الذى ترجمه رجل « مصاب ـ [باعتراف الدكتور لويس] ـ بنوع من الهوس » يدعى « لاسكاريس » ... ودونه قبطان السفينة « جوزيف أدموندز » ... إذا بحثنا عن ملامح « مشروع الاستقلال الأول » هذا ، من خلال هذا « الهذيان » ـ الذى وصفه الدكتور لويس بـ « الوثائق » ؟ ! ـ فسنجد هذا « الاستقلال » :

١ ـ استقلال مصر عن الدائرة الإسلامية .. التى كانت تتمثل ، يومئذ ، فى الدولة العثمانية ..

٢ ـ وخضوع مصر « المستقلة » هذه « لتأثير انجلترا ، التى تملك ناصية البحار

المحيطة بمصر » .. إذ « من المستحيل على انجلترا أن تمتلك مصر امتلاكها لمستعمرة » ..

٣ ـ حماية استقلال مصر عن الدائرة الإسلامية . وتأمين إخضاعها « لتأثير انجلترا » « بوجود قوة أجنبية مرتزقة فى مصر قوامها بين ١٢ ألفا و ١٥ ألف جندى .. » تتحمل مصر نفقاتها ! .. فمصر فى حاجة إلى « قوة قاهرة تحكم حياة قوم وادعين جهلاء » ؟ ! ..

ثم يمضى « يعقوب اللعين » . فى مشروعه . ممعنا فى إغراء انجلترا بالسيطرة على مصر . فيقول : « إن الامبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى من كل جانب . ولذا فمن المهم للانجليز أن يلتمسوا الوسائل المضمونة للاستفادة من عهد تمزقها التاريخى بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية المستقبلة .. إن بريطانيا العظمى ليست بحاجة إلى امتلاك مصر كمستعمرة . لأنها ستستأثر دائما بالتجارة معها . نتيجة طبيعية لتفوقها البحرى . فهى ستؤثر إذن فى مصر باختيارها » ؟ ! ..

إنه « استقلال » عن الدائرة الإسلامية .. وخضوع « اختيارى » ـ [ومع ذلك فهو بقوة أجنبية . مرتزقة . قاهرة] ـ للغرب الاستعمارى . المتمثل . يومئذ . فى بريطانيا العظمى ؟ ! ..

ذلك هو مشروع « الاستقلال الأول » لمصر . الذى وضعه « المعلم يعقوب » . والذى لأجله وضع الدكتور لويس « معلمه » يعقوب هذا فى مصاف الأبطال ، أبطال الاستقلال الوطنى . فكتب يقول[3] : « إن

---

(٣) د . لويس عوض [تاريخ الفكر المصرى الحديث] جـ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٩ . طبعة دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

الحكم التاريخى الموضوعى يقول : إن الجنرال يعقوب ، ومحمد على ، وكل قائد أو زعيم شارك بجهد فى الكفاح من أجل استقلال البلاد ــ من على بك الكبير إلى جمال عبد الناصر ــ كانوا مجرد أدوات فى يد هذا الشعب العظيم ، وتعبيرا عن إرادته لتحقيق استقلال مصر ، ولتثبيت هذا الاستقلال » ؟ ! ! ..

هنا يريد الدكتور لويس خلط الأمور والأوراق على القراء .. فعلى بك الكبير ومحمد على كانوا قادة ــ كل فى وقته وملابساته ــ لمشروع استقلال المنطقة بأسرها ــ وليس « استقلال » مصر ، الذى يعنى عزلتها عن المحيط الأوسع من إقليمها ــ والعدو الرئيسى كان الغرب الاستعمارى .. وما التناقض بينهم وبين السلطان العثمانى إلا لما رأوه من ضعفه الذى أفضى ويفضى إلى ازدياد خطر الاستعمار الغربى .. فصراعهم مع العثمانيين يأتى فى إطار محاولات إصلاح وتجديد الرباط الذى ينظم أقاليم العروبة والإسلام فى الشكل الذى يحقق فاعليتها تجاه التحدى الاستعمارى .. إنه « صراع » فى إطار « الوحدة » ، لمواجهة الخطر الرئيسى ، وهو الغرب الاستعمارى ..

كذلك لم يكن عبد الناصر داعية للاستقلال الذى يعزل مصر عن محيطها العربى وعالمها الإسلامى .. فمشروعه القومى غنى عن تفصيل الحديث ! .. فكيف ، إذن ، يتسنى للدكتور لويس عوض أن يصنف الدعوة لعزل مصر عن محيطها الإسلامى ، وإخضاعها لانجلترا ، بين مشاريع « الاستقلال » .. بل ويقول عنه : إنه « مشروع الاستقلال الأول » ؟ ! .. وكيف يتسنى للرجل أن يضع الخائن « يعقوب اللعين » فى زمرة القادة والزعماء الذين كانوا « أداة هذا الشعب العظيم ، المعبرين عن إرادته » ، من مثل على بك الكبير ، ومحمد على ، وجمال عبد الناصر ؟ ! ! .

كيف يتسنى للدكتور لويس « تبييض » الصفحة « السوداء » للمعلم يعقوب ؟ ! .. اللهم إلا إذا كان يريد أن يوهم قراءه أنه ، مع دعوته لعزل مصر عن محيطها العربى ـ من الناحية القومية ، وماتطرحه من خيارات وحدوية ـ .. ومع دعوته لفك الارتباط بين مستقبل مصر وبين تراثها الإسلامى ، وشعوب أمتها الإسلامية ، واستبدال الحضارة الغربية بالتمدن الإسلامى .. أى عزل مصر عن محيطها وعن تراثها ، مع إخضاعها للغرب ـ خضوعا حضاريا اختياريا ـ ... يريد الدكتور لويس أن يوهم قراءه أنه ـ كمعلمه يعقوب ـ رغم هذه الدعوة ـ بل وبسببها ـ واحد من دعاة « الاستقلال » ؟ ! .. وليس كما يقول خصومه واحدا من رموز « التبعية الحضارية » ، كما كان المعلم يعقوب رائدا «للتبعية السياسية والاقتصادية » للغرب ، المتمثل فى انجلترا فى ذلك التاريخ ؟ ! .. إنها محاولة « لتأصيل » دعوة الدكتور لويس ، فيها الكثير من الإسقاط على الذات !

● وفى إطار السعى لعزل الأمة عن تراثها الحضارى ، تأتى الجهود التى بذلتها وتبذلها حركة الاستشراق ـ وخاصة قطاعاتها التى تشكك فى « إبداع » العرب الحضارى ـ .. **لأن الهدف هنا هو تجريد « الفريسة » من « المجد التاريخى » ، كى تستسلم « للتغريب » ، إذ يصبح التغريب ، بالنسبة للحاضر والمستقبل ، هو « الخيار الوحيد » ، طالما أن تراثنا لا يشير علينا بخيار بديل » ! ..**

وعلى هذا الدرب كانت دراسة الدكتور لويس عوض [على هامش الغفران] .. تلك التى كتبها سنة ١٩٦٤ م ، لتكون حلقة فى سلسلة التشكيك بأصالة التراث العربى ، من خلال التشكيك بأصالة فكر أبى العلاء المعرى [٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م] وفلسفته .. وذلك عن

طريق إيهام القراء أن المعرى ـ وهو الصفحة البارزة فى تراثنا الأدبى والفكرى ـ لم يكن إلا صدى لرهبان بيزنطة ، وتلميذا لأديرتهم ـ وطبعة لتراث الغرب الحضارى ، الذى أبدعه اليونان ؟ ! . .

فهى ، إذن ، جهد موظف « لنزع سلاح الأمة » ، إبان سعيها ـ فى ستينات هذا القرن ـ خلف قيادة عبد الناصر ، لبلورة مشروعها الحضارى الخاص والمستقل عن التبعية الحضارية للغرب الاستعمارى ؟ !

● ولقد كان الدكتور لويس عوض فى مطلع حياته الفكرية أكثر « جرأة » وأقل « دبلوماسية » مما هو عليه الآن ! . .

فى الغرب تعلم ، مع الأدب الانجليزى ، الكراهية والعداء للغة العربية ، تلك التى تربط مصر بمحيطها العربى وتراثها الإسلامى ، والتى تمثل رابطة قومية أضفى عليها القرآن طابع القداسة والخلود . . . فقرر الدكتور لويس أن يسير على الدرب الذى ارتاده ، فى القرن التاسع عشر ، المستشرق الإنجليزى الاستعمارى السير « وليم ويلكوكس » ، ذلك الذى تزعم الدعوة للتخلى عن العربية . . وكتب : « إن دراسة العربية الفصحى مضيعة للوقت ، وموتها محقق كما ماتت اللاتينية » ! . .

لكن الدكتور لويس تعلم ، أيضا ، أن استبدال الحرف اللاتينى بالحرف العربى ـ على النحو الذى دعا إليه عبد العزيز فهمى باشا [١٢٨٧ ـ ١٣٧٠ هـ ١٨٧٠ ـ ١٩٤٨ م] لم يكن أكثر من صيحة تبدد صداها فى المحيط العربى والانتماء الإسلامى لمصر . . بل ربما كانت هذه الصيحة عاملا من العوامل التى استفزت الحس العربى واستنفرت الضمير الإسلامى ، فى مصر ، كى يعى هول ما يدبره له الأعداء ؟ ! . . . فلم يدع الدكتور لويس

إلى كتابة العربية بالحرف اللاتيني ، وإنما دعا إلى تحطيمها كلية ، ولكن عن طريق مألوف للناس أكثر من اللاتينية .. عن طريق استخدام « العامية » بدلا من « الفصحى » .. ولما كان لكل إقليم عربي « عاميته » .. فإن « العامية » ستصبح الطريق لعزل مصر عن محيطها العربي ، وعزلها كذلك عن تراثها وانتمائها الإسلامي ! .. فكتب الدكتور لويس في مقدمة كتابه [بلوتولاند] ـ الذى ضمنه ما أسماه شعرا نظمه بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٠ م ـ كتب يقول : « إنه قد شاهد الثلوج الغزيرة ، في خلوة مشهودة ، بين أشجار الدردار ، عند الشلال ، بكامبريدج ، ألا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية » (العامية) ؟ ! ..

ورغم أن الدكتور لويس قد عجز عن الوفاء بعهده هذا ، ولم يستطع النهوض بتبعات « المهمة » التى عاد بها من الغرب ، فاضطر ـ في المحيط العربي الإسلامي ، الذى حكم عليه القدر بالنشأة والحياة فيه ـ إلى الكتابة بالعربية الفصحى ، إلا أنه لم يتخل عن عدائه للعربية ، فكتب في كتابه [مذكرات طالب بعثة] سنة ١٩٤٢ م ، يصف العربية بأنها « أغلال » يجب تحطيمها ؟ ! .. كتب يقول : « إنه ما من بلد حى إلا وشبت فيه ثورة أدبية هدفها تحطيم لغة السادة المقدسة ، وإقرار لغة الشعب العامية ، أو الدارجة ، أو المنحطة .. أما في مصر ، فقد ثار كثيرون على اللغة المقدسة ، بعضهم داخل النطاق النظرى كلطفى السيد ، وبعضهم بصورة عملية ، كبيرم التونسى ، شاعر مصر الأول ؟ ! .. ولكن ثورتهم لم تكن بالثورة الفعالة ، لأن العبيد لم ينضجوا بعد لتحطيم أغلالهم .. ورغم ذلك فنحن ننحنى لهم ، ولسوف ينجبون العمالقة في مستقبل الأيام » ؟ ! ..

فلما جاءت الستينات ، حقبة المد القومى العربي ، الذى فتح الطريق

أمام الخيار الإسلامى . أدرك الدكتور لويس ـ ومن يتفق معهم فى التوجه الفكرى ـ أن جدية المخاطر على « الخيار التغريبى » . تحتاج إلى « الثورة الفعالة » التى يقوم بها « العالقة » . لتحطيم اللغة العربية .. فإذا بالرجل - رغم قلة بضاعته فى العربية وعلومها - يكتب فى حقبة السبعينات كتابه [مقدمة فى فقه اللغة العربية] . الذى لم ير النور إلا فى سنة ١٩٨٠ م !

وكما أراد بدراسته [على هامش الغفران] أن ينزع من الأمة « سلاح الثقة بالتراث » فلقد أراد بكتابه [مقدمة فى فقه اللغة العربية] أن ينزع من الأمة « سلاح الثقة فى اللغة التى كتب بها هذا التراث » ! .. فتراثها غير أصيل .. وكذلك لغتها .. ففيم - إذن - الحديث عن المشروع الحضارى الخاص - إذا كان مالديكم - إن فى الشكل أو المضمون - هو أثر من آثار الغرب ؟ ! .. ولماذا - إذن - مقاومة « الخيار التغريبى » - وهو ـ كما ترون ـ « الخيار الوحيد » - فليس لديكم - فى الحقيقة - بديل ؟ ! ..

● فلما انتقل عبد الناصر ـ قائد المشروع القومى العربى ، ورمزه - ـ إلى رحاب ربه سنة ١٩٧٠ م ، ظن أعداء هذا المشروع أن الفرصة قد سنحت ـ خصوصا فى ظلال آثار هزيمة سنة ١٩٦٧ م ـ للاجهاز على « بقايا » هذا المشروع ... وهنا - كان للدكتور لويس عوض دور يؤديه ؟ ! ..

فالرجل قد أسهم فى إهالة التراب على « الناصرية » بكتابه [أقنعة الناصرية] ، الذى استهل به نشاطه الموصول - على هذا الدرب - فى حقبة السبعينات ...

فلما كانت زيارة الرئيس السادات للقدس سنة ١٩٧٧ م ، وخرجت من جحورها تلك الأصوات التى دعت إلى عزلة مصر عن محيطها العربى وعالمها

الإسلامى ، وإلى استبدال « التطبيع » مع الكيان الصهيونى ـ « المتحضر » ، لأنه غربى ؟ ! ـ استبدال « التطبيع » معه بالرباط الذى يشد مصر إلى العروبة والإسلام ، لأنه ـ كما كتب أحدهم يومئذ ـ : « عدو عاقل خير من صديق جاهل » ؟ ! .. لما كان ذلك « المنعطف » ، الذى دفع المنطقة بأسرها إلى « منحدر » ، تشهد اليوم مخاطره وآثاره .. تقدم الدكتور لويس عوض لينهض بنصيبه فى الإجهاز على « بقايا » المشروع القومى العربى .. فكان إسهامه فى الهجوم على « عروبة مصر » ، بمقالاته فى [الأهرام] ـ ٤/٧ ، ٤/٢٠ ، ٥/١١ سنة ١٩٧٨ م وفى [السياسة الدولية] ـ أكتوبر سنة ١٩٧٨ م ـ تلك المقالات التى رمى فيها العروبة والقومية العربية بكل نقيصة .. من مثل أنها « عرقية » و « عنصرية » و « فاشية » ولا تعدو أن تكون « أسطورة من الأساطير » ؟ ! ..

● لكن بال الدكتور لويس عوض لم يهنأ بما لاح يومئذ من هزيمة للمشروع القومى العربى .. ذلك أن مظاهر هذه الهزيمة ، والاستفزاز الذى جسدته دعوات الدكتور لويس ومن يتفق معهم فى التوجه ، قد استنفرت الحس الإسلامى إلى درجة « الغضب » ! .. فانتشرت مظاهر « الصحوة الإسلامية » ـ رغم شوائب تشوب بعض فصائلها ـ وغدت الدعوة إلى الإحياء الإسلامى ، وتأسيس المشروع الحضارى الخاص على أسس « التمدن الإسلامى » ، غدت هذه الدعوة أبرز ظواهر العصر وأخطرها . فهى ـ موضوعيا ـ وعند الذين يعون حقيقتها ـ تحتضن كل إيجابيات المشروع القومى العربى ، ثم تمد نطاقه إلى كل بلاد الإسلام وشعوبه ، فتشمل الشرق المستضعف بأسره ، وتسعى جاهدة للتمايز الحضارى عن حضارة الغرب المادية العدوانية ..

لم يهدأ بال أعداء هذه الأمة ، بما حسبوه تراجعا « للخطر الناصرى » ، لأن عدوهم الأول ، والأساسى ـ وهو « الخطر الإسلامى » ـ قد استقطب الشارع الإسلامى .. ثم بدت نذره الأولى فى ثورة إيران سنة ١٩٧٩ م :

وبينما كانت دوائر الاستشراق ومراكز البحث ، التى « تشير » على صانع القرار فى بلاد الحضارة الغربية ، تسعى ، محمومة ، لجمع المعلومات عن المد الإسلامى ، وفصائله ، وعن موقفه من الغرب ومصالحه ، وعن الآفاق المستقبلية التى يمد إليها البصر والبصيرة .. انطلقت من هذه الدوائر حملة منظمة ، ومدروسة ، ومتواصلة الجهود ، ومتعددة الصور ، لتشويه هذا المد الإسلامى ، من الخارج ومن الداخل ، بواسطة السهام التى توجه إليه ، وعن طريق الشراك التى تصيد بعض رموزه !! ..

لقد عقدت لهذه « المهمة التاريخية » ندوات ومؤتمرات وحلقات بحث .. وكتبت الكثير من التقارير ، ونشرت كتب عديدة .. ولازال العمل قائما على قدم وساق فى هذا المضمار .. ولقد كان للدكتور لويس عوض نصيبه الذى أعد له فى هذا النشاط ! .. **فقصة « الإحياء الإسلامى » ، و « الجامعة الإسلامية » ، و « المشروع الحضارى الخاص ، المؤسس على التمدن الإسلامى » .. هذه القصة ، التى تقض أحداثها الراهنة مضاجع الغرب الاستعمارى هذه الأيام ، قد بدأها منذ قرابة القرن والنصف رجل اسمه جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] .. فليكن نصيب الدكتور لويس عوض فى الحرب ضد هذه « الظاهرة » تشويه سيرة الرجل الذى بدأ هذه المسيرة ، التى تهدد حلم الغرب بالسيادة الأبدية ـ عن طريق الفكر ـ على وطن العروبة وعالم الإسلام ؟ ! ..**

أما كيف تم ذلك ؟ .. فلقد جمعت جامعة « لوس أنجليس » الأمريكية

للدكتور لويس عوض أوراقا ـ سماها « وثائق » ـ أغلبها « تقارير » جواسيس ومخبرين رسميين كانوا يعملون لحساب الاستعمارين الانجليزى والفرنسى ! وبعضها « ملفات » أنشأتها أجهزة المباحث فى انجلترا وفرنسا ـ لتجمع فيها المعلومات عن عدو الاستعمار جمال الدين الأفغانى ! .. وبعضها كتب استندت إلى هذه « التقارير » و « الملفات » ـ كتبها صهاينة ـ ومستشرقون من أشباه الصهاينة ـ ممن تجمعهم مشاعر ومصالح العداء للمد الإسلامى و « الخيار الإسلامى » ـ ثم نشروها مابين لندن وباريس وتل أبيب .. لقد لملمت جامعة « لوس انجليس » هذه « التقارير » و « الملفات » المباحثية وكذلك الكتب التى استندت إليها ـ لكتاب من أمثال : « جاكوب ـ [يعقوب] ـ لاندو » ـ و « إيلى كدورى » ـ و « هوما باكدامان » و « نيكى كيدى » ـ و « البرت قدسى زاده » .. الخ .. ثم دعت هذه الجامعة الدكتور لويس عوض ـ ووضعت بين يديه هذه الأوراق .. فلما فتح الرجل هذه « الملفات » خيل إليه أنه « فاتح » حقا ؟ ! فكتب لنا عن جمال الدين الأفغانى « دراسة » بلغت صفحاتها ـ على الآلة الكاتبة ـ مائتين وثلاثين صفحة ـ فرغ منها ـ كما أخبرنا فى ختامها ـ « بلوس انجليس » فى « ٦ يناير سنة ١٩٧٥ م » .. ؟ !

وعندما تعذر نشر هذه « الدراسة » بمصر ـ نشرها الدكتور لويس فى لندن ؟ ! .. وجعل عنوانها : « الإيرانى الغامض فى مصر » ؟ ! .. ـ نشرتها مجلة [التضامن] فى سبعة عشر عددا .

لقد قال الدكتور لويس عوض فى « دراسته » هذه ـ إنه ـ ومعه الجواسيس وكتاب الاستشراق ـ الصهاينة وأشباه الصهاينة ـ الذين استند إلى أوراقهم ـ إنما يفتحون « ملف » جمال الدين الأفغانى ـ من جديد ! ...

ولم يدر الرجل أن « فتحه » و « فتوحات » الذين عمل معهم ولهم . لم يكن إلا « فتحا » لملفات « المباحث » و « دوائر الأمن والاستخبارات » فى أجهزة الحكومات الاستعمارية ! ! . .

أما كيف كان ذلك ؟ . . ولماذا كان ؟ . . فهو موضوع الحديث بعد هذا « التمهيد » ؟ ! . . نعم إنه مجرد « تمهيد » عن [قصة المخطط . . . وأبعاده . . ومراميه] !

الدوافـع . . والمنطلقات

لكن . . لماذا اختار الدكتور لويس عوض معسكر المناوئين للعروبة القومية والسياسية ، وللإحياء الإسلامي ، وصبغ المشروع الحضاري المأمول بالصبغة الإسلامية ، وتأسيسه على قواعد التمدن الاسلامي ؟.

إن البعض يقطع بأن مرجع ذلك هو « تعصبه للمسيحية » ضد « الاسلام » ! . . لكنى لست مع هذا البعض فى هذا التفسير ؟ ! .

إنه تفسير سهل ميسور ، وقد نكون عليه بعض الشواهد والقرائن ، بل والحيثيات . ثم إنه نهائى وقاطع ، يريح الذين يختارونه من عناء الحوار مع الأفكار التى يطرحها الدكتور لويس . . . وليس هذا فى رأيى هو المطلوب ! . .

إن المطلوب ليس هو « إدانة » من نختلف معهم فى الرأى ، ولا تصنيفهم بوضعهم فى « الخانات » الجاهزة التقليدية . . وإنما المطلوب هو إقامة أوسع دائرة من الحوار مع الأفكار التى يطرحونها ، حتى ولو كان إقناعهم أمرا بعيد الحدوث ، أو مستحيلة ، كما يرى البعض فى « حالة » الدكتور لويس ! . . فالحوار مطلوب ، أساسا ، من أجل القراء الذين يقتنع فريق منهم بما يطرح الدكتور لويس من آراء ! . .

ثم إن الدكتور لويس ليس أول من شهر حربا ظالمة ضد جمال الدين الأفغانى .. فلقد تعرض الأفغانى لسهام الخصوم منذ بدأ الدعوة إلى إيقاظ الشرق وتجديد « دنياه » بواسطة تجديد « الدين » .. ولقد ضم موكب الخصوم هذا أغلبية من المسلمين وقليلا من غير المسلمين ؟! .. بل لقد يدهش البعض إذا علم أن التيار « السلفى ـ النصوصى » ـ وجميع أسرى الشعوذة والخرافة ـ وخصوم « العقلانية » ، فى صفوف الاسلاميين ـ يناصبون جمال الدين ودعوته عداء لا يقل عن عداء الدكتور لويس ، رغم اختلاف المنطلقات ، وتباين الغايات ! .. وفى حدود علمى فإن هناك رسالة جامعية أجيزت فى الستينات من هذا القرن تدين الأفغانى بالعمالة للاستعمار .. ليس « الاستعمار العثمانى » ، كما هو اتهام الدكتور لويس للأفغانى .. وإنما الاستعمار الغربى ، الذى يتهم صاحب الرسالة الأفغانى بالعمالة له ، لأنه ـ فى رأيه ـ هو الذى قوض دعائم الدولة العثمانية بدعوته إلى التجديد ؟!

ثم إن كل « العلمانيين » ـ ومنهم مسلمون يؤدون شعائر الاسلام بإخلاص وفى خشوع ـ يقفون من دعوة الأفغانى إلى تأسيس التمدن الحديث على أسس إسلامية موقف الرفض أو العداء ! .. وكذلك يفعل « الاقليميون » ، الذين يريدون لمصر أن تقف بهمومها واهتماماتها عند حدودها الجغرافية الوطنية ـ كما تعلم !

فليس الدكتور لويس عوض بدعا فى عدائه لما دعا إليه الأفغانى من آراء .. ومن ثم فالحوار ضرورى ومطلوب حتى ولو كان إقناع الدكتور لويس هو ضرب من ضروب المستحيل !

وحتى نتبين وتحدد القضايا التى يجب أن يدور حولها الحوار ، لابد من الوعى بحقيقة الدوافع والمنطلقات التى حركت الآخرين إلى تبنى الآراء

والأفكار التي نرفضها - ونتناولها بالتوضيح والنقد والتفنيد .. ومن هنا تأتى أهمية استكشاف دوافع الدكتور لويس للهجوم على استقلالية الأمة العربية بمشروع حضارى متميز عن الحضارة الغربية ، وعدائه لصبغ هذا المشروع الحضارى المستقل بصبغة الإسلام .

وكما سبقت الإشارة ، فأنا لست مع الذين يجعلون تدين الدكتور لويس بالمسيحية السبب الأول في خياره الفكرى هذا .. فالرجل - كما يعرفه القريبون منه - والمتابعون لأحاديثه وكتاباته - ليس - من الناحية الروحية - الابن البار للمسيحية ولا للكنيسة القبطية .. بل إن آراءه في المسيح والمسيحية تجعله موضع غضب المسيحيين المتدينين !.. وفي صحيفة (الأخبار) - بتاريخ ١٩٨٣/٩/٢١م - كتب كاتب فاضل من الأصدقاء المسيحيين - بل وممن يتعاطفون مع كثير من آراء الدكتور لويس - كتب عن رأى الدكتور لويس في المسيح ، عليه السلام ، فإذا هو رأى أدخل في نطاق الهرطقة والسياسة ، وأبعد ما يكون عن التدين بالمسيحية كما يعرفها المسيحيون المتدينون !.

ثم .. من من المسيحيين يطمئن قلبه لما كتبه الدكتور لويس - في « دراسته » عن جمال الدين الأفغاني ، عن المسيحية ، وقوله : « إن الشيوعية هي أقرب التخريجات إلى روح المسيحية »[1] !؟

بل كيف يكون « التدين » بالمسيحية هو دافع الدكتور لويس ومنطلقه - ونحن نراه يفضل « الاسلام » على « المسيحية » ، فيقول - عند حديثه عن أن « أديان التوحيد الثلاثة ، اليهودية والمسيحية والاسلام ، تنتمى - في كل

---

(١) ص ١٨٣ من أصل « الدراسة » ، ولقد رجعنا إلى أصل الدراسة .. كما رجعنا إلى حلقاتها المنشورة في مجلة [التضامن] .

تحليل نهائى ، إلى مجموع ميتافيزيقى واحد ينبثق من مبدأ ازدواج الفكر والمادة وأسبقية الفكر على المادة فى الزمان والمكان ، وكلية الفكر وجزئية المادة فى سائر الصفات والأسماء والأفعال ... » .. يقول الدكتور لويس ، مفضلا « الاسلام » على « المسيحية » : « ... ولا شك أن روح الاسلام أقرب إلى الهيومانزم ـ [الانسانية] ـ والعقلانية من روح المسيحية ذات الازدواج التام والأسرار الكثيرة . لأن الله فى الاسلام لا يجور تماما على مكان الانسان . ولأن الروح فى الاسلام لا تسحق المادة سحقا ذريعا . ولأن الآخرة فى الاسلام ـ رغم أنها خير من الأولى ـ لا تلغيها تماما من الوجود . كما هو الحال فى المسيحية ..[2] » !..

والأمر الذى لا شك فيه هو أن هذا النص الهام يرضى المتدينين بالاسلام بالقدر الذى يغضب المتدينين بالمسيحية ؟! .. الأمر الذى يؤكد أن الدكتور لويس ، من الناحية الروحية ، ليس الابن البار للمسيحية وكنيستها ؟! ..

كذلك ، ليس التعصب « للقبطية » المسيحية ، بالمعنى الروحى ، هو دافع الدكتور لويس إلى العداء لأسلمة المشروع الحضارى للأمة .. فالقبطية ، عند الرجل ، « عنصر » أكثر منها « دين » .. وهى عنده تساوى « المصرية » إذا جردت من العروبة القومية والسياسية ـ بل والثقافية إذا أمكن ذلك ؟! ـ وإذا هى جردت كذلك من الاسلام السياسى والحضارى .. إن الدكتور لويس ليس ضد أن تدين أغلبية الشعب فى مصر بديانة الإسلام ، ولكنه ضد صبغ الحضارة فى مصر بصبغة الاسلام . ومن هنا فإن عداءه ليس موجها إلى « الدين التقليدى » ، القابع فى المساجد والزوايا والتكايا ، ولكنه موجه ضد « التجديد الدينى » ، الذى يجعل

---

(٢) ص ١٨٣ من أصل « الدراسة » .

الاسلام دينا وحضارة ـ عقيدة وقانونا .. ومن هنا كانت سهامه موجهة إلى رائد التجديد الديني فى عصرنا الحديث ـ جمال الدين الأفغاني ـ وليست موجهة إلى رموز الجمود فى الدولة العثمانية ـ بل لقد اتفق الرجل مع مشيخة الاسلام العثمانية ـ وهي القمة فى الجمود والتخلف ـ وتبنى دعاواها واتهاماتها لجمال الدين الأفغاني ؟! ..

وإلى الذين يتطلعون إلى مزيد من « الوقائع » الشاهدة على صدق هذه الحقيقة أقول :

● لقد تحدث إلىّ الدكتور لويس ـ منذ سنوات ـ بمكتبه بـ [الأهرام] ـ فى معرض التقويم لما قدمته للمكتبة العربية والاسلامية من أعمال فكرية فى إطار : « تجديد دنيا المسلمين بتجديد فكرهم الديني » ـ تحدث إلىّ حديثا فيه الكثير من الثناء والتقدير .. لكن عبارات من حديثه أثارت فىّ من الانتباه ما لم تثره عبارات الثناء والتقدير .. لقد قال لى :

« إن جهودك عظيمة .. لكنها خطرة ـ وضارة » ! ! ..

فلما أبديت تعجبي ودهشتي ـ وطلبت المزيد من الإيضاح .. قال الرجل : « إن تجديد الدين يحييه ـ ويطيل عمره .. أما تركه فى صورته التقليدية التى هو عليها عند المؤسسات المحافظة ، فهو الذى سيعجل بموته ـ وهذا هو المطلوب .. » ؟ ! ! ..

فعداء الرجل هو « للتجديد الديني » ـ [وليت أهل الجمود يفقهون ويعون !] ـ ومن هنا كان تعاطفه ـ فى « دراسته » عن الأفغاني ـ مع رموز الرجعية العثمانية ضد جمال الدين ، رائد التجديد ! ..

● وإذا كان « الأزهر » قد غلبت على بعض من قياداته « الفكرية المحافظة » .. وإذا كانت « السلطة العثمانية » قد استأنست بعضا من قياداته ، بالترغيب أو الترهيب ، فنهض بمهمة الحفاظ على الشريعة والعربية

وعلومها ، دون أن يقود الحركة التجديدية التى تمتد بالاسلام إلى صبغ الدولة والتمدن بالصبغة الاسلامية ... إذا كان الأزهر فى مجمله « محافظا » ، فإنه ـ لذلك ـ ليس موضع سخط الدكتور لويس ... أما موضع سخطه فهو « دار العلوم » ... تلك التى علق عليها محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] آمالا فى لحظات يأسه من تجديد الأزهر فهى ـ بما استهدف منشئوها من ورائها ـ الجامعة بين « الأصالة الاسلامية » وبين « المعاصرة » ، و« المؤسسة » للمعاصرة « على قواعد الاسلام .. أو هكذا كان الهدف من وراء إنشائها ، وفى ذهن كوكبة من الأعلام الذين خرجوا منها يقودون حركة تجديد دنيا المسلمين بتجديد دينهم !..

وعن « دار العلوم » هذه يعد الدكتور لويس دراسة يوجه فيها إليها السهام .. كما صنع مع جمال الدين الأفغانى !

● ورغم ما كتبه الدكتور لويس عن الإمام محمد عبده من إشارات تحمل له التقدير ـ من مثل قوله فى إحدى دراساته بـ [الأهرام] منذ سنوات : « إنه أعظم من تكونت من حوله مدرسة فى الفكر **المصرى** الحديث » ـ [لاحظ كلمة **المصرى** .. وليس العربى .. ولا الاسلامى ؟!] ـ .. رغم هذا التقدير المعلن من الدكتور لويس لمحمد عبده ـ وهو من أبرز رموز التجديد الدينى الحديث ، إلا أن عداء الدكتور لويس لتجديد محمد عبده هو أمر كامن ومكنون !.. فى لحظة من اللحظات التى تفك فيها « عقد الألسنة » ، دفعت « النشوة » الدكتور لويس ليصف محمد عبده بأنه « راسبوتين » !.. سمعت ذلك منه ، وسمعه معى إخوة وأصدقاء ـ كان منهم الأستاذ سيد يس ـ فى فلورنسا ، بإيطاليا ، وكنا نشارك فى ندوة فكرية فى السنوات الأولى من عقد السبعينات ! وفى ذات

الجلسة وصف الدكتور لويس الأفغانى بأنه « جاسوس » .. وتساءل : ما الذى جاء به إلى « بلادنا » ؟! ..

فعداء الرجل ليس للإسلام . كدين . وسهامه ليست موجهة إلى الدوائر أو المؤسسات الإسلامية المحافظة .. لأن وجود الاسلام الشعائرى والمؤسسات الاسلامية التى تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . لا يقض مضاجع الدكتور لويس . أما تيار التجديد الدينى . الذى يحيى فعاليات الاسلام . والذى يمتد بصبغته إلى شؤون الدنيا وقضايا العمران والحضارة .. فهو العدو اللدود للدكتور لويس ! ..

ذلك أن الدكتور لويس عوض . وإن لم يكن الابن البار . روحيا . للمسيحية وكنيستها القبطية . إلا أنه الابن البار للحضارة الغربية وعلمانيتها . والاسلام السياسى والحضارى هو النقيض الذى يسعى . بالتجديد . ليكون البديل ـ فى بلاد الاسلام ـ للحضارة الغربية التى جاءت إلى هذه البلاد فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة ... والرجل الذى بدأ التصدى لحركة التغريب . ودافع عن الهوية الحضارية المتميزة للأمة . ودعا إلى تأسيس التمدن الحديث على أسس إسلامية . وقاد تيار اليقظة الاسلامية فى مواجهة الغزوة الاستعمارية وفكريتها .. هذا الرجل هو جمال الدين الافغانى .. ومن هنا كانت سهام التغريب موجهة إليه وإلى ما بشر به من آراء وأفكار .

فالتناقض ليس بين « لويس ـ المسيحى » وبين « الاسلام ـ التقليدى » .. وإنما هو بين « لويس ـ الاقليمى ـ العلمانى » وبين « المشروع الحضارى الخاص » لهذه الأمة . ذلك المشروع الذى ينهض فيه الاسلام السياسى والحضارى بدور المحور .. والذى تمتد آفاقه ـ عبر العروبة ـ إلى كل عالم الاسلام . والدكتور لويس لم يكتب « دراسته » الظالمة لجمال الدين

الأفغانى ليواجه بها ويجرح الثورة الايرانية ـ كما حسب بعض الفضلاء الذين انتقدوا « دراسته » ـ لأن هذه « الدراسة » قد كتبت لمواجهة « الصحوة الاسلامية » ، بتشويه رائدها وأبرز رموزها فى عصرنا الحديث .. وهى قد كتبت قبل قيام الثورة الايرانية بخمس سنوات .. أما توقيت النشر لها ، وتوظيفه فى الاساءة إلى الثورة الايرانية ، فذلك أمر آخر !

* * *

عندما زحف الاستعمار الغربى على وطن العروبة وعالم الإسلام ، فى القرن التاسع عشر ، كانت غزوته الحديثة هذه أكثر من جيوش تحتل الأرض ، وشركات تنهب الثروة .. ذلك أن « فكرية التغريب » قد جاءت إلى بلادنا فى ركاب هذه الغزوة الاستعمارية ..

وكان التخلف المملوكى ـ العثمانى ، الذى ساد بلادنا لعدة قرون ، قد حجب فعالية الاسلام الحضارى وتألق الحضارة الاسلامية عن الأنظار ، فكان الطافى على السطح من موارثنا مثقلا بالشعوذة والخرافة والجمود .. وهذا هو الذى أفقد هذا « الموروث المتخلف » جدارة المقارنة والمقارعة والمنافسة لفكرية « التغريب » ، التى مثلت زهوة الانتصار للحضارة الأوربية الحديثة .. فكان ذلك هو المناخ والسبب فى انحياز « الصفوة والنخبة » إلى فكرية « التغريب » ، واختيارها « الخيار الغربى الحضارى » سبيلا لنهضة الأمة ، بل وسلاحا تتصدى به للاستعمار الغربى ..

أما مؤسسات التعليم التقليدية فلقد جمد جمهورها عند هذا « الموروث المتخلف » ، وزاد من جمودهم الاحساس بالمخاطر التى يمثلها « الوافد الغربى » على ذاتية الأمة وهويتها الحضارية ..

هكذا حدث الاستقطاب بين الذين سلكوا للتقدم سبيل الغرب ، وبين الذين جمدوا عند فكرية موروث عصر المماليك والعثمانيين ..

ولقد تمثلت عبقرية جمال الدين الأفغانى - أول ما تمثلت فى رفضه لكلا الخيارين اللذين استقطبا مثقفى الأمة وجمهورها .. وفى ارتياده واختياره الطريق الثالث والموقف الثالث - الممثل لوسطية الاسلام - والساعى لبلورة البديل الحضارى الاسلامى - القادر على منافسة فكرية « التغريب » - والمتجاوز - فى ذات الوقت - للتخلف الموروث ..

لقد كان الجمود عقبة فى طريق « التغريب » .. وكانت تلك إيجابيته العظمى ؟! .. لكن عجز الجمود وأهله عن تقديم البديل الحضارى - الذى يستجيب لروح العصر - وينهض بمواجهة تحدياته - كان بمثابة الثغرة التى تفتح السبيل - بل والسبل - فى جدار الأمة - لينفذ منها « التغريب » - فى بطء - ولكن باستمرار ؟! .. فلما جاء تيار التجديد الدينى - الذى تبلور من حول جمال الدين الأفغانى - شعرت الدوائر الاستشراقية و « المتغربون » بخطره الأكبر - لأنه ينزع عن « التغريب » الجدوى والمشروعية - ويقدم البديل الاسلامى الضامن لتقدم الأمة دون أن تنفصل عن مواريثها الحضارية - ودون أن تفقد ذاتيتها وهويتها .. جاء الأفغانى - وتياره - ليرفض الجمود .. والعلمانية .. وأن نكون أوربيين فى الحضارة .. وأن نقف فى فهمنا للقومية عند الفهم العلمانى الغربى لها .. ودعا إلى « الجامعة الاسلامية » .. وإلى تأسيس النهضة الحديثة على قواعد « التمدن الإسلامى » .. وإلى تجديد الدين كسبيل لتجديد الدنيا ..

وكان هذا المشروع هو التحدى الحقيقى لفكرية « التغريب » - التى رامت عزل أمتنا عن تراثها الحضارى - لتبدأ من حيث انتهى الأوربيون كما رامت - بالعلمانية - نزع الصبغة الإسلامية عن مؤسسات الدولة وشؤون الإنسان فى حياته الدنيا ..

وهذا هو جذر الخلاف وسبب العداء بين دعوة جمال الدين الأفغانى

وبين دعاة الاقليمية والعزلة والتشرذم . وأنصار الطائية الذين يريدون لبلادنا أن تصبح . في الحضارة . قطعة من أوربا ــ أو . إن شئت الدقة . هامشا حضاريا لأوربا . والدكتور لويس عوض واحد من هؤلاء ؟! .

إنه ــ باختصار شديد . وبدقة ــ الخلاف الجذرى بين الدعوة إلى « الاستقلال الحضارى » . والدعوة إلى « التبعية الحضارية » ؟!

ونحن إذا شئنا الأدلة على أن هذا هو جوهر الخلاف . وجدنا الكثير منها في كلام الدكتور لويس .. وفي فكر جمال الدين ..

● ففى رأى الدكتور لويس أن « نقطة الضعف » عند الأفغانى متمثلة في رفضه « فكر » الحضارة الأوربية و« قيمها » . على حين يقبل « علمها » وتطبيقات هذا العلم « التكنولوجيا » .. على حين يدعو الدكتور لويس إلى تبنى الحضارة الأوربية ككل .. إنه رافض للاختيار وللتمييز بين ما يلائم أمتنا ومالا يلائمها . لأن الشرق . عنده . ليس مقولة حضارية متميزة . وإنما هو فراغ حضارى يجب أن يملئ بحضارة الأوربيين .. يقول : « إن نقطة الضعف في دعوة الأفغانى قيامها على تفتيت وحدة الحضارة . والفصل بين العلم والفكر . وبين التكنولوجيا والقيم . واعتبار الشرق مقولة حضارية مكتفية بذاتها »[3] .. وفي مكان آخر يقول : إن الأفغانى قد ناصر « العلم » والعقل . وبين في كل مكان أن الدين الإسلامى لا يتعارض مع العلم . بل على العكس من ذلك يحض عليه حضا .. ولكن الأفغانى يفتت الحضارة الحديثة إلى شطرين . هما . وجهها المادى . أى العلم والتكنولوجيا . ووجهها الروحى . أى الفكر والقيم . وهما عنده غير مترابطين . وبالتالى فالفكر والقيم من عندنا . والعلم والتكنولوجيا من عندهم »[4] .

---

(٣) مجلة [الطليعة] العدد ١٦ ص ٦٧
(٤) أصل « الدراسة » ص ١٨٢

ونحن نقول : إذا كانت هذه « تهمة » فإن الأفغانى يتشرف بها . وهى ليست « نقطة الضعف » فى دعوته . بل هى « الجوهر العبقرى » فى هذه الدعوة الاسلامية ! .. فقط نسأل :

١ ـ هل هناك . حقا . وحدة فى الحضارة على نطاق العالم ؟.. ومن الذى ينكر التمايز الحضارى لدى أمم عريقة كالهند . والصين . واليابان ومثل ذلك الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ؟.. إن « التمايز » الحضارى هو نوع من « المغايرة » . وهو مختلف عن « العداء » وعن « الانغلاق » الحضارى . فالتمايز الحضارى . على النطاق العالمى . وفى عصرنا الراهن حقيقة موضوعية . لا ينكرها إلا غلاة المتعصبين للحضارة الأوربية . من أهلها . الذين أرادوا لها أن تمارس مع الحضارات الأخرى . فى عصر المد الاستعمارى الأوربى . ما مارسه المستوطنون والمهاجرون الأوربيون مع الهنود الحمر ؟! ... المسخ والتشويه والاقتلاع والنسخ والإجلاء !.. وما الزاعمون . فى صفوفنا . أن الحضارة الأوربية هى حضارة العصر الوحيدة . والحضارة العالمية المفردة إلا « أتباع » هؤلاء الغلاة !..

٢ ـ وأليست دعوة الأفغانى إلى الاستفادة من « علوم » الغرب و« تطبيقاتها » . مع الحفاظ على ما تتميز به حضارتنا وشخصيتنا القومية من « فكر » و« قيم » .. أليست هذه الدعوة هى « القانون » الذى حكم « التفاعل . والتلاقح » بين الحضارات الكبرى عبر التاريخ الحضارى للإنسان ؟!..

ماذا صنعت اليابان إبان نهضتها ؟.. لقد أخذت « علوم » الغرب و« تطبيقاتها » واحتفظت « بفكرها » و« قيمها » .. ولازالت تصنع ذلك حتى الآن !.

وماذا صنع العرب والمسلمون عندما انفتحوا على حضارات اليونان والفرس والهنود؟.. لقد ميزوا بين ما يمكن « تمثله » - دون أن يطمس « الثوابت » الحضارية التى تتميز بها الأمة - وبين ما تختص به تلك الأمم من « قيم » و« مثل » غير مقبولة فى المناخ العربى الاسلامى.. لقد أخذوا « العلوم » و« تطبيقاتها » - ورفضوا « الميثولوجيا » و« القيم » و« العقائد » وحتى الفلسفة التى ترجموها - نراهم قد « قرأوها قراءة اسلامية » - وأضافوا إليها نقدا وخلقا وإبداعا - جعلها « فلسفة إسلامية » إلى حد كبير.. على حين ظل « علم الكلام » هو الفلسفة الحقة لحضارة الإسلام!.

بل ماذا صنعت أوربا - وهى تسعى للنهضة - حين تعاملت مع حضارتنا العربية الإسلامية؟.. لقد أخذت من حضارتنا « العلوم » و« تطبيقاتها » - وأخذت « المنهج التجريبى ».. ثم رفضت « الفكر » و« القيم » - فلم تجد « للتوحيد » ولا « للوسطية » ولا « للروح المؤمنة » أثرا فى حضارتها الحديثة - التى ظلت ذات طابع مادى كما كانت منذ جاهلية اليونان!

إن الأوربيين عندما تعاملوا مع ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م] أخذوا منه بضاعتهم ـ أرسطو ـ فقط.. أما ابن رشد « المتكلم » و« الفقيه » - وصاحب « التوحيد الاسلامى » و« القيم الاسلامية » - فهو الذى صدرت ضده قرارات التجريم والتحريم.. لقد أخذوا منه « عقلانية أرسطو اليونانية » - التى لا تقيم وزنا للوحى والنقل والمأثورات - على حين رفضوا « عقلانيته الاسلامية » التى آخت ما بين « الحكمة » و« الشريعة » - ووفقت ما بين « العقل » و« النقل » - حتى تدينت بها فلسفتنا وتفلسف بها الدين فى حضارتنا العربية الاسلامية!

فالتمييز بين ما يؤخذ وما يترك.. بين ما هو ملائم وما هو غير ملائم بين ما « تتمثله » الشخصية الحضارية فتقوى به وتتدعم ذاتيتها وبين ما هو

خطر على هذه الذاتية ، لأنه قوة طامسة لمعالمها مشوهة لإيجابياتها .. إن هذا التمييز هو « القانون » الذى حكم « تفاعل » الحضارات العظمى و « تلاقحها » عبر التاريخ ... والأفغانى عندما دعا إلى إعمال هذا « القانون » إنما كان يتخذ الموقف الواعى والناضج بين موقفين كلاهما خاطئ .. موقف أهل الجمود ، الذين عكفوا على « التخلف الموروث » ، رافضين التفاعل مع الحضارة الغربية بإطلاق ... وموقف دعاة « التغريب » ، الذين أسلموا عقلهم كله للحضارة الأوربية ، وكأنما هم « لقطاء » ، بلا ميراث حضارى ، ولا سمات حضارية تستوجب أن يكون التفاعل والأخذ والعطاء من موقف الراشد وموقع الاستقلال !.

٣ ــ وأخيراً .. فهل قال الأفغانى ــ كما زعم الدكتور لويس ــ أن « الشرق مقولة حضارية مكتفية بذاتها » ؟!

إن الرجل لم يقل بذلك .. وعبارات الدكتور لويس تشهد على ما نقول ... فالذين يقولون إن حضارتنا « مكتفية بذاتها » هم أهل الجمود ، الذين يرفضون التفاعل والاستفادة من الحضارات الأخرى بإطلاق .. والدكتور لويس يقول عن الأفغانى إنه دعا إلى أخذ « علوم » الغرب و « تطبيقاتها » .. فكيف إذن يكون من القائلين إن « حضارة الشرق مكتفية بذاتها » ؟!.

لقد أجاد الدكتور لويس تلخيص موقف الأفغانى فى هذه القضية عندما قال : « إن الحل عند الأفغانى هو الحل الوسط : أن يرتبط الانسان بتراثه القومى وبثقافته القومية ، وأن ينفتح فى الوقت نفسه ، لما هو نافع فى تراث الغير وثقافته .. »[5]

---

(٥) [التضامن] العدد ١٦ ص ٦٩ .

لكن هذا الموقف الوسط لا يعجب الدكتور لويس .. فهو لا يدرى كيف نميز - فى تراثنا القومى وثقافتنا القومية - النافع من الضار ؟ ومن الذى يحدد لنا - فى مواريث الآخرين - ما نأخذ ؟ وما ندع ؟!

ونحن نقول له : **إن الأمم الساعية إلى النهضة - بعد ضعف وركود - تحتفظ من مواريثها « بالثوابت » - التى هى بمثابة « البصمة » المميزة لها - حضاريا - بين الأمم ذات الحضارات .. وتحتفظ بالمناهج والقيم والعقائد التى جربت فى تاريخها الحضارى - فكانت عوامل نهضة وقوة وازدهار ..**

ثم .. هل هناك صعوبة حقا فى التمييز . وفى الاختيار - مثلا - بين : « العقلانية الإسلامية » و « الشعوذة والخرافة » أو « الجمود عند ظواهر النصوص » ؟! .. أو أن نميز ونختار بين « الوسطية » و « التطرف » - يمينا كان أو يسارا ؟! .. أو أن نميز ونختار بين « موازنة الدين والدنيا » و « الشره واللذة والنفعية » أو « الزهد المفرط » الذى يجعلنا ندير الظهر للدنيا فنهمل عمرانها ؟!

وكذلك الحال فى التمييز بين ما هو نافع وملائم وما هو ضار وغير ملائم فى حضارات الآخرين .. فأية صعوبة من أن نميز بين مصادر القوة ومصادر الضعف فى الحضارات الأخرى ؟! .. لا أعتقد أن الصعوبة قائمة - على النحو الذى يصورها الدكتور لويس - طالما كان هناك « ولاء » حقيقى للتراث القومى والثقافة القومية .. أما إذا انعدم هذا « الولاء » أو ضعف فإن إغراء « التبعية الحضارية » - بالبدء من حيث انتهى الآخرون - سيكون له سلطان شديد .. إذ ما الذى يغرى « اللقيط » بمعاناة البحث والتنقيب فى « غابة الأنساب » ؟!!

ثم .. لنسأل الدكتور لويس : إنك تعترف بأن الغرب قد طوع المسيحية لطابع حضارته المتميز - ولواقعه الاجتماعى الخاص - حتى لقد « ابتعد عن

عبادة الله وتوغل فى عبادة الانسان ، ولم يبق له من المسيحية إلا دمن وأطلال »[٦] !.. فإذا كانت الحضارة الغربية ، ذات الطابع المادى والروح الالحادى ـ منذ اليونان ـ قد أخذت ما يلائم طابعها وقيمها ، وطوعت ما أخذت ، حتى ولو كان دينا ـ وحتى لو بلغ هذا « التطويع » حد التشويه للدين وإفقاده المضمون الجوهرى والمحتوى الحقيق... فكيف تنكر على حضارتنا العربية الاسلامية الحق فى الاختيار والانتقاء والتمييز بين ماهو نافع وملائم وماهو غير ذلك من حضارات الآخرين ؟! ... إن ما رأيته « نقطة ضعف » فى موقف الأفغانى من الحضارة الغربية ، هو بذاته « نقطة القوة » فى موقفه ودعوته ... فهى الفيصل بين الدعوة « للاستقلال الحضارى » والدعوة إلى « التبعية الحضارية ».

وليتك قد قرأت أعمال الأفغانى قراءة باحث عن الحقيقة ، إذن لوقفت طويلا عند كلماته التى تقول ، عن ضرورة « تميزنا واستقلالنا » الحضارى :

« إن الظهور فى مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، ولاضرورة ، فى إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الغربى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك : وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا ـ [أى أذلها وصدعها] ـ وأعجزها وأعوزها ... إن التمدن الغربى ، هو ، فى الحقيقة ، تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى ... وتقليده جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ! . لقد علمتنا التجارب أن المقلدين ،

---

(٦) الأعمال الكاملة، ص ١٨٣

من كل أمة . المنتحلين أطوار غيرها . يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء اليها . وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات . يمهدون لهم السبيل . ويفتحون الأبواب . ثم يثبتون أقدامهم ؟!..

وإنا . معشر المسلمين . إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه . ولايمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق . وإن مانراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والانحطاط . لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية . وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب . والاستكانة لهم . والرضا بسلطانهم علينا . وبذلك تتحول صبغة الاسلام . التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب . إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي .. » ؟!..[7]

لو قرأ الدكتور لويس كلمات الأفغاني هذه . بروح الباحث عن الحقيقة . وتأملها في ضوء ماجرءه علينا « التحديث على النمط الغربي » من « تبعية » في كل شيء « للمركز الغربي » . لاختلف تقويمه لجمال الدين

لكن الغرض وسوء القصد والنية قد صرفت الدكتور لويس عن رؤية الحقيقة . وعندما كان يرى طرفا منها كان يجتهد للتشكيك فيه ! فجاء « عمله » على هذا النحو الغريب .. وصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ مانوى ... » !.

---

(7) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٥٣٣ ، ١٩٥ـ١٩٧ ، ٣٢٧ - ٣٢٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م

طريق الجواسيس .. لا طريق العلماء ؟ ! ..

لقد ترددت ، لبعض الوقت ، فى أن أكتب هذا « النقد » لـ « دراسة » الدكتور لويس عوض عن جمال الدين الأفغانى ، وذلك على الرغم من طلب العديد من الصحف والمجلات إلى ، بل وإلحاحها على ، إلى درجة « الاستنفار » ، أن أكتب هذا « النقد » .. وعلى الرغم من إلحاح العديد من الأصدقاء ، بل واستغراب بعضهم ، وشك البعض فى أن يكون مابينى وبين الدكتور لويس من ود متبادل مبعث حرج لى فى أن أرد عن الأفغانى ما وجه إليه من افتراءات ! ..

أما أسباب التردد فعديدة ، أهمها :

١ ـ أننى ، بالطبع والعادة ، عزوف عن الجدل ، ولست سباقا إلى الخصومة واللجاج .

٢ ـ وفيما يتعلق بجمال الدين الأفغانى ، فلقد قدمت إلى المكتبة العربية والإسلامية عنه عدة أعمال فكرية ، غدت ـ والحمد لله ـ مراجع للباحثين والقراء ، منها تحقيق أعماله ، ودراسات عن حياته وفكره .. الأمر الذى يجعل « الضمير » مستريحا حتى ولو لم أسهم فى هذه « المعركة » التى أقامتها « دراسة » الدكتور لويس

٣ ـ ثم ـ وهذا هو السبب الأهم فى التردد ـ إن « دراسة » الدكتور لويس قد بلغت فى « الافتراء » إلى حد « الشذوذ » .. الأمر الذى يجعلها « ساقطة » بذاتها ـ فتها ولا معقولية ما جاء بها من افتراء على جمال الدين الأفغانى يفقدها « التأثير السيئ » الذى قصد إليه الدكتور لويس ؟ ! ..

لكننى .. رغم وجاهة أسباب التردد هذه ـ راجعت نفسى ـ فبدت لى حقيقتان رجحتا كفة الكتابة على كفة التردد ..

● فالدكتور لويس له جمهور من القراء ـ نحترمه ـ ونحرص كل الحرص على ألا ندعه والأفكار المغلوطة التى تلقى إليه .. ومن الأهمية بمكان إدارة الحوار الموضوعى والمنطقى حول القضايا الفكرية التى عرض لها الدكتور لويس ـ لأن جمهورا ذا وزن وتأثير فى حركتنا الفكرية قد يتبنى ـ لثقته فى الدكتور لويس ـ النتائج والمقولات التى انتهى إليها فى « دراسته » .. فالحرص على وصول الحقيقة إلى هذا الجمهور الذى أحترمه يجعل كتابة هذا « النقد » من أوجب الواجبات ..

● ثم إن الدكتور لويس قد سلك فى « دراسته » هذه طريقا ملتويا ـ ولا أريد أن أقول : « خبيثا » ! ـ فى التعامل مع حقائق الموضوع .. لقد أهمل الحقائق التى لا تشهد « للغرض » الذى سعى إليه .. وعندما كانت تضطره طبيعة الأمور للإشارة إلى بعض الحقائق ـ سرعان ما كان يعود لذكر نقيضها ؟ ! .. حتى لقد أكثر ـ إلى حد مثير ـ من وضع الحقيقة بين العوامل التى تشكك فيها ـ حتى يبلبل فكر القارئ ! ـ وليس كل قارئ متخصص أو ناقد .. ومما ساعد « دراسته » هذه على أن تفعل هذا الفعل السيئ ـ نشرها على « حلقات » .. فهو ينقض فى « حلقة » ما أثبته فى « حلقة » أخرى .. الأمر الذى يعطى الانطباع ـ لا بتناقض الدكتور لويس ـ وإنما

بتناقض أفكار الأفغانى ومواقفه إلى حد الغموض والريبة واللا معقول !

وعندما « تنجح » « دراسة » ـ بهذا الأسلوب ـ فى أن تترك هذا الكم من « التشكيك » الذى بلغ ذروة « الافتراء » على « الفكر » و « النضال » الذى جسده جمال الدين الأفغانى بالنسبة للإحياء الإسلامى والاستقلال الحضارى ـ الذى هو طوق نجاة هذه الأمة مما يريد لها أعداؤها الكثيرون ـ فإن التصدى لهذه « الدراسة » ، بالنقد وبالحوار الموضوعى ، يصبح واجبا .. بل من أوجب الواجبات !

* * *

إن جمال الدين الأفغانى ليس مجرد « مفكر » ، ولا هو بـ « المناضل » العادى .. لقد أصبح جزءا كبيرا وعزيزا من ضمير هذه الأمة الإسلامية فى عصرها الحديث .. تعيشه ـ ولا أقول « تذكره » ـ عندما تبحث عن ذاتيتها الحضارية المتميزة ، وعندما تتصدى لأعدائها ، مستعمرين كانوا أو مستبدين ، وتستلهمه عندما تبرز للعيان الضرورة والمصداقية للمقولة التى بشر بها : [إن تجديد دنيا المسلمين رهن بتجديد دينهم ، ولن يكون لهم تمدن حقيقى إلا إذا تأسس على روح الشريعة وقواعد الإسلام] .

ولذلك ، فلم يكن غريبا أن « يجمع » الأئمة والمناضلون والعلماء والأعلام ـ فى الشرق ـ بل وفى الغرب ـ على أن جمال الدين هو « حكيم الشرق .. وموقظه .. وفيلسوف الإسلام » ! .. ومن ثم ، فلابد من النظر إلى السهام التى توجهها « دراسة » الدكتور لويس على أنها موجهة إلى « ضمير أمة » ، لتطعن « خيارها القومى ـ الإسلامى » ، هادفة إلى عزل مصر عن محيطها العربى وانتمائها الإسلامى ، وحصرها فى قفص الاقليمية الذى جاهد الأعداء لفرضه عليها بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م .. وبفصم عرى الوحدة مع سوريا سنة ١٩٦١ م .. وبعدوان يونيو سنة ١٩٦٧ م .. وبفكرية

« التغريب ـ العلمانية » ، التى اجتهدت ، بالفكر ، حتى تجعل مصر قطعة من أوربا ، كى لا تكون : العقل والقلب والقاعدة والقيادة لوطن العروبة وعالم الإسلام ! ..

إنهم يريدون نزع سلاح العرب والمسلمين ، المتمثل فى مصر ! .. ونزع سلاح مصر ، المتمثل فى محيطها العربى وانتمائها الإسلامى ... وما الهجوم على جمال الدين الأفغانى إلا سهم موجه إلى هذا الانتماء ؟ ! ..

تلك هى الحقيقة التى غدا الأفغانى رمزا وتجسيدا لها .. والتى كاد أن « يجمع » عليها الأئمة والعلماء والأعلام ، إن فى الشرق أو فى الغرب ..

● فالأفغانى ، فى نظر قادة الصحوة الإسلامية المعاصرة ، هو الرائد الذى ارتاد هذا الطريق فى عصرنا الحديث ... وواحد من أبرز رموز هذه « الصحوة » ـ وهو المناضل أحمد بن بلا ـ يقول : « إن جمال الدين الأفغانى هو « فكر » تجسد « فعلا » ، لقد مثل ـ [بالنسبة للإسلام وعالمه] ـ بزوغ حركة الإصلاح الدينى والثقافة والنهضة الحديثة .. لقد كان حقنة من الكظرين ـ الادرينالين ـ أنعشت جسد الإسلام .. »[1] !

● وفى ندوة « بالقيروان » ـ تونس ـ عقدتها « جامعة الأمم المتحدة » ـ مارس سنة ١٩٨٣ م ـ لدراسة ظاهرة [الصحوة الإسلامية] .. « تبين أن هذه الصحوة .. ترتبط بمدرسة جمال الدين الأفغانى ... وأنها برزت فى عصرنا كرد فعل على العلمانية ... والتحديات الحضارية المعاصرة ، وهى منجاة فى وجه الاستلاب المسلط على المجتمع العربى[2] ! »

---

(١) من خطابه فى المؤتمر الإسلامى ، بباريس ـ سبتمبر سنة ١٩٨٢ م . انظر مجلة [المتقى] العدد الأول ـ باريس سنة ١٩٨٣ م ـ ص ١٢

(٢) [ملف المستقبلات العربية البديلة] العدد ١٠ ـ أكتوبر سنة ١٩٨٣ م ـ ص ١٧

● وهو بنظر المفكر المسلم ـ الدرزى ـ الأمير شكيب أرسلان [١٢٨٦ ـ ١٣٦٦ هـ ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦ م] : « فيلسوف الإسلام ، وعلم الأعلام ، وكوكب الإصلاح الذى أطلعه الله فى أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام ، حجة الشرق الناهضة ، وآية الحق الباهرة .. [٣] » ! .

● وهو فى رأى الإمام المسلم ـ الشيعى ـ السيد محسن الأمين [١٢٨٤ ـ ١٣٧١ هـ ١٨٦٧ ـ ١٩٥٢ م] : « .. متوقد الذكاء ، فصيح الكلام بطبعه ، عالى الهمة ، حسن الأخلاق .. جرىء ، ميال بطبعه إلى معارضة الحكام ، والدعوة إلى الإصلاح .. [٤] » !

● وهو ـ كما يقول عنه عالم تونس الشيخ محمد الفاضل بن عاشور [١٣٢٧ ـ ١٣٩٠ هـ ١٩٠٩ ـ ١٩٧٠ م] ـ : « حكيم ، صوفى ، زاهد ، متواضع .. كانت سنوات إقامته بمصر هو طور بروز حكمته ومعرفته ، والإصداع بدعوته فى الإصلاح الدينى .. حتى لقد بعث ما كان مهجورا من مواد الثقافة الإسلامية وطرائقها ، بتدريس « الكلام » و « الحكمة » و « الرياضيات » ، وتحريك مثارات المباحث ، وفتح مسالك النظر ، وتهيئة فرصة التقرير والتحرير وصقل ملكاتهما بالنقد والمران .. [٥] » ! ..

● فإذا ما جئنا إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ ـ

---

(٣) [حاضر العالم الإسلامى] مجلد ١ جـ ٢ ص ٢٨٩ . طبعة بيروت سنة ١٩٧١م

(٤) محسن الأمين [جمال الدين الأفغانى] ص ٩ . طبعة بدون تاريخ ، وبدون تحديد مكان الطبع

(٥) محمد الفاضل بن عاشور [التفسير ورجاله] ص ١٥٦ ، ١٥٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م

١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] ـ الذى شارك الأفغانى الفكر والنضال اثنى عشر عاما ، فتفرد وانفرد بما جعله ـ عندما يكتب عن الأفغانى ـ يصدر ـ كما قال ـ عن « كمال الخبرة ، وطول العشرة » ، والذى قال عنه الامام محمد رشيد رضا : « إنه أعلم الناس بمقاصد الأفغانى وأعماله .. » ، والذى وصفه سليم العنحورى ـ وهو من عارفى الأفغانى ومعاصريه ـ بأنه « أعز أخلاء الحكيم جمال الدين » ..

إذا جئنا إلى محمد عبده لنرى وصفه لمكانة جمال الدين ، وتقويمه لدوره فى النهضة الإسلامية ـ مع التنبه والتنبيه إلى أن محمد عبده عندما يكتب فإنه يتحرى ألفاظه بدقة من يؤدى شهادة سيحاسب عليها أمام الله ، أعانته على ذلك قدرات لغوية وحكمة فلسفية جعلته إماما فى البيان كما هو إمام فى الحكمة وتجديد الدين ؟ ! ـ ... إذا جئنا إلى تقويمه للأفغانى ، وجدناه يقول ـ ضمن ماقال ـ : « ... فكأنه حقيقة كلية ، تجلت فى كل ذهن بما يلائمه ، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله ..

فهو فى السياسة : يسعى لتلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، ليعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده ..

وهو فى الدين : حنبلى حنفى .. لم يكن مقلدا فى عقيدته ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب الصوفية .. وهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه .. له حمية دينية لا يساويه فيها أحد يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله .

وهو فى الفلسفة : له سلطان على دقائق المعانى ، وقوة فى حل مايعضل منها ، كأنه سلطان شديد البطش ! .. وله لَسَنٌ فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد ـ إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ! ـ

وهو فى الآداب : له فى الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ....

وهو فى المعارف : إذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها .

وهو فى الأخلاق : ولوع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها .. سلامة القلب سائدة فى صفاته ، كريم يبذل ما فى يده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر .. له حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد يمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب ! .. شجاع مقدام ، لا يهاب الموت كأنه لايعرفه ! .. » .

ثم يختم محمد عبده وصفه لجمال الدين بهذه العبارة التى يقول فيها :

« وبالجملة ، فإنى لو قلت : إن ماآتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ماقدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو فضل عظيم .. »[6] !

ذلك هو جمال الدين الأفغانى ، كما وصفه وحدد مكانه ودوره ، الأئمة والعلماء المسلمون ، الذين أشرنا إلى رأيهم فيه ... وعلى دربهم سار كل الذين كتبوا عنه الكتب أو الدراسات ، أو عرضوا للحديث عن مكانته فى انهاض الأمة وإصلاح دينها ودنياها .. من مثل رشيد رضا .. وحسن البنا .. وعبد الحميد بن باديس .. وعبد القادر المغربى .. ومحمد المخزومى ومصطفى عبد الرازق .. وعبد الله النديم .. وسعد زغلول .. ومحمد إقبال وعباس العقاد .. وأحمد أمين .. وعبد الرحمن الرافعى .. ومالك بن نبى والدكتور محمود قاسم .. وأديب اسحق .. وسليم نقاش .. وسليم

---

(٦) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣٤٩ ــ ٣٥٢ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

المتحورى .. والفيكونت فيليب دى طرازى .. الخ .. الخ .. الخ

وإذا كنا قد أشرنا إلى « كلمات » لأئمة المسلمين وأعلام علمائهم فى جمال الدين .. فإن كلمات العلماء والمؤرخين ، من غير المسلمين ، شاهدة ، هى الأخرى ، على عظمة الأفغانى وريادته وتألقه فى سماء « الفكر » و « النضال » .

● فالمؤرخ المسيحى العربى جرجى زيدان [١٢٧٨ ــ ١٣٣٢ هـ ١٨٦١ ــ ١٩١٤ م] يقول عنه : « لقد نشأ الأفغانى قطبا من أقطاب الفلسفة ، وعاش ركنا من أركان السياسة .. وتوافرت فيه قوى الفلاسفة ومواهب رجال الأعمال .. »[٧] !

● والفيلسوف الفرنسى إرنست رينان Ernest Renan [١٨٢٣ ــ ١٨٩٢ م] يقول عن جمال الدين : « كنت أتمثل أمامى .. عندما كنت أخاطبه : ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحدا من أساطين الحكمة الشرقيين .. »[٨] !

● والسياسى والمستشرق الانجليزى ــ [الأيرلندى] ــ ولفرد سكاون بلنت S. Blunt [١٨٤٠ ــ ١٩٢٢ م] ــ وهو الذى عاشره ، وتعامل معه ، وخبره ــ يقول عنه : « إن جمال الدين كان رجلا عبقريا ، أثرت تعاليمه تأثيرا لا يمكن الغض من حسامته على حركة الإصلاح الإسلامى وأنا أشعر بالشرف العظيم لأنه عاش ثلاثة شهور تحت سقفى فى انجلترا ، ولكنه كان رجلا بريا ، كل ما فيه آسيوى ، وليس من السهل تأنيسه للعادات الأوربية ؟ ! .. »[٩] .

---

(٧) جرجى زيدان [تراجم مشاهير الشرق] طبعة القاهرة .

(٨) [حاضر العالم الإسلامى] مجلد ١ جـ ٢ ص ٢٨٩ .

(٩) أصل « دراسة » الدكتور لويس عوض . ص ٢٣٠ .

● والمسيحي الأمريكي لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard ـ مؤلف كتاب [حاضر العالم الإسلامي] ـ يقول عنه : « كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته أسرار المغنطيسية .. وكان داعيا مسلما كبيرا .. كأنما خلقه الله في المبلغين لنشر الدعوة فحسب .. ضحى بنفسه في سبيل إيقاظ العالم الإسلامي .. وليس هنالك قطر من الأقطار الإسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها [١٠] .. » !

● أما المستشرق اليهودي المجري جولد سيهر Goldziher [١٨٥٠ ـ ١٩٢١ م] فإنه يقول : « كان جمال الدين من أبرز أعلام الإسلام في القرن التاسع عشر .. أثر تأثيرا كبيرا في الحركات الحرة والدستورية .. وسعى إلى إيقاظ الشعور الوطني وتحرير الدول الإسلامية من النفوذ والاستغلال الأوربي [١١] .. » .

وعلى منوال المستشرق جولد سيهر ـ في تقدير عظمة الأفغاني ـ سار المستشرقون الكبار الذين كتبوا عنه ، من أمثال براون E.G. Browne [١٨٦٢ ـ ١٩٢٦ م] .. وتشارلز أدامز Gh. Adams .. الخ .. الخ .. الخ

ذلك هو رأي الأئمة والعلماء والأعلام ـ مسلمين ومسيحيين ويهود ـ شرقيين وغربيين ـ في جمال الدين الأفغاني

---

(١٠) [حاضر العالم الإسلامي] مجلد ١ جـ ١ ص ٣٠٥ .

(١١) [دائرة المعارف الإسلامية] الترجمة العربية . الطبعة الثانية . القاهرة . دار الشعب .

لكن الدكتور لويس عوض له رأى مخالف .. بل ومضاد ـ ومعذرة لكلمة « رأى » إذا نحن أطلقناها على ماخطه قلمه فى وصف جمال الدين الأفغانى ؟ ! ... أتعرفون بماذا وصفه ؟؟

لقد قال عن الأفغانى ـ وبالحرف ـ وبذات الألفاظ :

« إنه : زنديق ... ملحد ... مجدف ... متفرنج ـ فى الفكر والسلوك ... علمانى ... ثيوقراطى ؟ ! ... تقدمى ... ثورى ... جدلى رجعى ؟ ! ... تقليدى ـ محافظ ؟ ! ... وسطى ... حالم ... هنكار ؟ ! ... سلفى ... شيعى ؟ ! ... بهائى ... باطنى ... ماكر إرهابى ... فوضوى ... عدمى ... غامض ... مريب ... جاهل متعصب ... غبى فى الفكر ـ غبى فى السياسة ... شغل نفسه بسفاسف الفكر وبسفاسف الفكر السياسى ... مزدوج الشخصية ـ بل ومتعددها متذبذب ... متناقض ... محامى روسيا فى السياسة الأفغانية ... صاحب نظرية « المستبد العادل » ... صاحب عنجهية فارسية ... شخصية مأساوية ... لم يكن يعرف مايريد ... عدو للشعور القومى وللحركات الاستقلالية ... على درجة من النقص فى الإخلاص ... باحث عن استدرار الأموال ـ وبالطرق الملتوية ـ لتصب فى جيبه ... ينصب على كل الأطراف ... انتهازى من طراز نادر ... متوسل للغايات النبيلة بالوسائل الخسيسة ... مغامر ... مقامر ... بل وأفاق دولى ... » [12] ؟؟؟ ! ! ! .

تلك هى ـ عند لويس عوض ـ أوصاف الرجل الذى سقنا طرفا من وصف الأئمة والعلماء والأعلام له ـ منذ قليل .. والذى قال عنه الأستاذ

---

(١٢) تتناثر هذه الأوصاف للأفغانى فى صفحات « دراسة » الدكتور لويس عوض .. وانظر على وجه الخصوص عدد [التضامن] ١٤ ص ٨٠ . وأصل « الدراسة » ص ١٧٣ ، ١٩١ .

الإمام الشيخ محمد عبده : إنه لايبالغ إذا قال : « إن ماأتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ماقدر لغير الأنبياء .. » !

وذلك هو الذى جعلنا نقول : إن « دراسة » الدكتور لويس عن الأفغانى قد بلغت فى الشذوذ إلى الحد الذى جعلها « ساقطة » بالطبع والذات .. ولولا أن الرجل قد سلك إلى غرضه هذا كل السبل « الملتوية » ـ ولا أريد أن أقول : « الخبيثة » ـ لما احتجنا إلى هذا « النقد » لنحمى به « الحقيقة » من « الافتراء » ! ..

فما هى هذه السبل الشاذة ، التى سلكها الدكتور لويس ليبلغ بواسطتها قمة الشذوذ التى بلغتها « دراسته » عن جمال الدين ؟؟ ..

● من « التقاليد البحثية » ، التى غدت بديهة فى دنيا الفكر ، تلك التى تتعلق بطبيعة ونوعية المصادر والمراجع فى كل بحث من الأبحاث ، وعلاقة هذه المصادر والمراجع ـ من حيث الموضوع والمستوى ـ بالبحث الذى تستخدم فيه ..

فإذا كان البحث فى الاقتصاد ، فإن آثار الفكر الاقتصادى لابد وأن تتصدر قائمة المصادر والمراجع .. وإذا كان فى التاريخ ، فهناك مصادره ووثائقه .. وإذا كان فى الدين ، فهناك مصادر الفكر الدينى .. وإذا كان فى الأدب ، فهناك الآثار الأدبية وأعمال النقاد .. تلك بديهة من البديهيات .

وفى حال جمال الدين الأفغانى فإن هناك أعمالا فكرية كتبت عن الرجل ـ مابين رسالة جامعية ، أو كتاب متخصص ، أو دراسة جادة ، أو فصل أو فصول من كتاب ـ كتبها أكثر من خمسين مفكرا ، فيهم مايزيد على الثلاثين

إماما وعالما ومفكرا ومثقفا ، من الشرق والغرب ، ومن كل الديانات والاتجاهات .. وبديهى أن تتصدر هذه الأعمال الفكرية قائمة المصادر والمراجع فى أى بحث جديد عن جمال الدين ـ مع مايصل إليه الباحث الجديد من مصادر جديدة جديرة بالاحترام .. وبديهى كذلك ، فى التاريخ لأى مفكر ، أن تكون أعماله الفكرية وآراؤه الثابت نسبتها إليه ، موضع الاعتبار الأول فى تقويم أفكاره واتجاهاته .. كما أن شهادات المعاصرين ، وخاصة القريبين من العلم الذى نكتب عنه ، هى الأحرى مصادر لابد وأن يكون لها وزن كبير .. كل هذه بديهيات ، استقرت كتقاليد تعارف عليها المفكرون والباحثون ، فى كل ميادين البحث ومجالات التفكير.

لكن الدكتور لويس عوض قد جاء ، فى « دراسته » عن الأفغانى ، فخرج عن كل هذه القواعد ، ورفض كل هذه البديهيات .. واستن للباحثين سنة سيئة لم يسبقه إليها أحد من الناس !

● فهو يرفض أن يصدق الرجل الذى يكتب عنه ؟ ! .. بحجة « أن الأفغانى كان كثيرا مايلون الأحاديث عن نفسه ، لأسباب متعددة[13] .. » ؟ ! .. وبحجة « أن الأفغانى عودنا أن يروى الأمور دائما من وجهة نظره[14] .. » ؟ !

● ثم هو يرفض آراء محمد عبده عن الأفغانى .. رغم عدالة الرجل ، ودقته ، وموضوعيته ـ التى جعلته لا يغفل نقد الأفغانى ، رغم مايكنه له من تقدير منقطع النظير ـ ورغم أنه قد صحبه وشاركه لأكبر فترة ـ ثمانى عشر

---

(١٣) [التضامن] العدد ٦ ص ٦٨ .

(١٤) [التضامن] العدد ١٤ ص ٧٨

عاما ـ حتى لقد صدق عندما قال إنه يكتب عنه بناء على « طول العشرة وكمال الخبرة » .. ولم يشفع محمد عبده ـ كمصدر ثقة ـ عند الدكتور لويس ـ إجماع معاصري الأفغاني .. وكل الذين كتبوا عنه بأنه ـ أي محمد عبده ـ « أعلم الناس بمقاصد الأفغاني وأعماله .. » ـ كما يقول رشيد رضا[١٥] ـ و« أعز أخلاء الحكيم الأفغاني » ـ كما قال سليم العنحوري ..

● بل لقد رفض ما أجمع عليه أئمة العصر وأعلام علمائه - الذين أرخوا لجمال الدين .. وترددت في « دراسته » عبارات كثيرة من مثل : « هناك رواية محمد عبده ، وهي بوجه عام رواية جرجي زيدان ، وآدمز ، وبراون .. وهي **الرواية المعتمدة** من أكثر الناس[١٦] .. » ثم يرفضها .. ومن مثل عبارة : « ... وفي رواية محمد عبده وجرجي زيدان وبراون وغيرهم من **المصادر التقليدية**[١٧] » .. ثم يرفضها .. ومن مثل عبارة : « **وقد أجمع** محمد عبده وأديب اسحق وسليم العنحوري وجرجي زيدان وعامة معاصري الأفغاني من المصريين وأبناء البلاد العربية[١٨] .. » ثم يرفض هذا الإجماع ؟ !

وبالطبع ، فليس من حق أحد أن ينكر على باحث أن يرفض « الروايات المعتمدة » ويرفض « الإجماع » ، إذا كان قد استند إلى مصادر أوثق مما استندت إليه « الروايات المعتمدة » ، وإذا كانت لديه الحقائق الصلبة والواضحة التي تنقض « الإجماع » .

---

(١٥) [تاريخ الأستاذ الإمام] جـ ١ ص ٣٠٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م

(١٦) [التضامن] عدد ٥ ص ٦٩ .

(١٧) [التضامن] عدد ٥ ص ٦٨ .

(١٨) [التضامن] عدد ٧ ص ٦٢ .

لكن أن يرفض لويس عوض « إجماع علماء العصر وأعلامه » ، مستندا إلى « تقارير الجواسيس الانجليز » ، وإلى « ملفات المباحث » الخاصة بالأفغانى فى دوائر الأمن والتجسس فى انجلترا وفرنسا - وهى الدوائر التى ناصبته العداء ، لعدائه لاستعمار حكوماتها بلاد الشرق واستغلالها شعوبه - وإلى عدد من الكتب التى ألفها نفر من « طلاب الاستشراق » - وليسوا من علمائه - استنادا إلى « تقارير الجواسيس » و « ملفات المباحث » .. أما أن تكون هذه هى « مصادر » الدكتور لويس ، التى ينقض بها « إجماع الأئمة وأعلام علماء العصر » .. فتلك هى الخطيئة الكبرى ، والسنة السيئة التى استنها فى « دراسته » هذه عن جمال الدين الأفغانى !..

إن الدكتور لويس يسمى « الأوراق » التى استند إليها « وثائق » .. وهو يتحدث عنها فى معرض حديثه عن الكتب التى أخذ عنها ، والتى استندت إلى هذه « الوثائق » ، فيقول صراحة إنها لا تخرج عن « تقارير جواسيس » و « ملفات مباحث » ضمت « تقارير المخبرين » !! فأصحاب « المراجع الجديدة » ، التى استند إليها فى « دراسته » ، « اضطروا - [فى سبيل نقض إجماع علماء العصر] - إلى نبش ملف جمال الدين الأفغانى وتحركاته فى آسيا وإفريقيا فى

١ - سجلات وزارة الخارجية البريطانية
٢ - وفى « يوميات كابول » عن عامى ١٨٦٨ و ١٨٦٩ م فى « أعمال حكومة الهند » فى مصلحة الشؤون الخارجية (كلكتا سنة ١٨٦٩ م) (مكتب علاقات الكومنولث) .
٣ - وفى « موجز حوادث كابول » فى الأعوام ١٨٦٣ - ١٨٧٤ م (مكتب علاقات الكومنولث) الصادر فى سملا سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٤ م

٤ ـ وفى « أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (ملف فاس ١٨٨٨ ـ ١٨٩٦ م) .
٥ ـ بل اضطروا إلى نبش محفوظات البوليس الفرنسى والبوليس الانجليزى[١٩] » .

لكن .. هل ضمت هذه « الأرشيفات » و « الملفات » أوراقا يمكن ، بحق أن تسمى « وثائق » يحق للباحث أن ينقض ، استنادا إليها ، إجماع العلماء ؟ !

لننظر .. ولنتأمل ..

إن « للوثيقة » ـ عند الدكتور لويس ـ مفهوما غريبا .. فهو يمنح هذا الاسم لأوراق ينكره عليها ، ليس علماء التاريخ وحدهم ، بل والطلاب المبتدئون فى هذا الفن ! .. ولقد سبق أن أشرنا إلى قصة تلك « الأوراق » التى كتبها رجل اسمه « لاسكاريس » ـ هو ـ باعتراف الدكتور لويس ونص كلماته ـ « مصاب بنوع من الهوس أو الخيال المسرف » .. والتى ضمنها « هذيان » رجل مريض بالحمى ، ساعة الاحتضار ، هو « المعلم يعقوب اللعين » ، عندما حضرته الوفاة على ظهر السفينة التى أقلته هو والخونة الذين تعاونوا مع الحملة الفرنسية على مصر ، أقلته مع جنود الحملة عند جلائهم عن مصر سنة ١٨٠١ م ... لقد سمى الدكتور لويس هذا « الهذيان » ، الذى كتبه « مهووس » ، « وثائق » .. وقال ـ ليضفى عليها المهابة ـ إنها فى محفوظات وزارة الخارجية بلندن تحت رقم [F.O.78vol.38] ، وليتها كانت « وثيقة » يورع فيها « معلمه يعقوب اللعين » تركته الشخصية .. إذن

---

(١٩) [التضامن] عدد ١ ص ٥٣

عان الأمر .. ولكنها ، فى رأى الدكتور لويس ، « وثائق مشروع الاستقلال الأول لمصر »[20] ؟ !

ذلك هو مبلغ « الاحترام » عنده لمصطلح « الوثيقة » .. وهو يكتب هذا الكلام لقراء هم أبناء حضارة لها فى نقد النصوص والمأثورات والروايات جهود تبلورت فى علم اسمه [علم الجرح والتعديل] ؟ ! .. أمة تعلمت فى سيرة نبيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه فى لحظات احتضاره ، طلب صحيفة ودواة ليملى كتابا ، فأحجم عن الإجابة نفر من أجلة الصحابة ، على رأسهم عمر بن الخطاب ، قائلين : « إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن . حسبنا كتاب الله[21] ! » .. فحتى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يسجلوا ما أراد أن يملى عندما اشتد عليه الوجع ساعة الاحتضار .. احتراما منهم « للمصادر » الجديرة بأن تكون طاقة التوجيه وتكوين الأفكار والآراء .. فى أمة هذا شأنها وشأن حضارتها مع « الوثائق » و « التوثيق » : يسمى الدكتور لويس « هذيان » « معلمه يعقوب » عندما اشتدت عليه الحمى ، لحظة الاحتضار : « وثائق مشروع الاستقلال الأول لمصر » ! ! .

ولقد سار على هذا الدرب فى « دراسته » عن جمال الدين

● إنه يتهم الأفغانى بالكذب .. وبالتقية .. وبالباطنية .. وبالمنصب لأنه قد أخفى « إيرانيته » وزعم أنه « عثمانى » عندما عاش فى بلاط أمير الأفغان سنة ١٨٦٨ م .. و « الوثيقة » التى اعتمد عليها الدكتور لويس هى تقرير جاسوس أفغانى كان يعمل لحساب الاستعمار الانجليزى .. وبعبارات

(٢٠) [تاريخ الفكر المصرى الحديث] جـ ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٢١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ ٤ ص ٣٨٨ .

الدكتور لويس : « هي تقرير كتبه موظف في حكومة كابول سنة ١٨٦٨ م كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز .. والتقرير بعنوان [سجل بأوصاف السيد الرومي في كابول] .. » .. وفيه اتهام للأفغاني في عقيدته ووطنيته إذ يقول عنه : إنه « فيما يبدو لا يتبع دينا معينا . وأسلوب معيشته أقرب إلى أسلوب الأوربيين منه إلى أسلوب المسلمين .. وهو يلبس ملابس النوغاي (أتراك جنوب غرب التركستان) . ويشتبه أن يكون عميلا روسيا ... [٢٢] » !

تلك هي « الوثيقة » التي اعتمد عليها الدكتور لويس في نقض « إجماع العلماء » على تدين الأفغاني وصدق إخلاصه في وطنيته ..

ونحن إذا تجاوزنا - جدلا - عن « التدني والهبوط » في إطلاق اسم « الوثيقة » على هذه الورقة التي كتبها جاسوس .. نسأل الدكتور لويس : أما كان الأجدر بك أن تقف موقف الناقد أمام هذه النصوص ؟ .. إن « نقد النصوص » ليس خاصية من خصائص المؤرخ وحده - حتى يمكنك الاعتذار بأنك « مؤرخ هاو » - لم تتعلمه فيما تعلمت ! .. وإنما هو جزء من « صنعة » الناقد الأدبي - التي هي وظيفتك الأصلية ! .. فلماذا لم تقف الموقف النقدي من هذا النص ؟ .. وأنت لو صنعت ذلك لألقيته في سلة المهملات ؟ ! ... وذلك لأن :

١ ـ هذا التقرير يتحدث عن « السيد الرومي » .. وليس فيه أية إشارة إلى أن هذا « السيد الرومي » هو جمال الدين الأفغاني ! .. فمن قال إن المقصود هو جمال الدين ؟ !

٢ ـ ثم إن وصف « السيد » يعني « التشريف » - من « السيادة » -

---

(٢٢) [التضامن] عدد ١ ص ٥٤

المنحدرين من نسل آل البيت ، أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء ... أي أنه « عربي ، قرشي ، هاشمي » ... أما « الرومي » فمعناها « التركي العثماني » ، لأن العرب ، في صراعهم مع الترك العثمانيين ، قد سموهم « الأروام[23] » .. فكيف يكون إنسان واحد « سيدا » و « روميا » في ذات الوقت ؟ أي كيف يكون « عربيا » و « تركيا عثمانيا » في وقت واحد ؟ ! ..

٣ - ثم .. هذا الجاسوس - وهو أفغاني - كيف لم يكتشف « إيرانية » جمال الدين .. والأفغانيون والإيرانيون أبناء أرومة واحدة ؟ !

٤ - وأخيرا .. فهل من حصافة العميل ، الذي يمارس نشاطه في بلاط دولة محافظة دينيا ، أن يكون متفرنجا في أسلوب معيشته ، إلى الحد الذي « يبدو فيه أنه لا يتبع دينا معينا » ؟ ! ... وألست أنت الذي أوردت عبارة « بلنت » عن أسلوب معيشة الأفغاني في لندن ، والتي تقول : « إنه كان رجلا بريا ، كل مافيه آسيوي ، وليس من السهل تأنيسه للعادات الأوربية » ؟ ! ... أكان « آسيويا بريا » في لندن ، « متفرنجا » في « كابول » ؟ ! .

عزيزنا الدكتور لويس ! .. إن من الحكم الشعبية المأثورة تلك الحكمة التي تقول : « إذا كان المتحدث مجنونا ، فليكن المستمع عاقلا » ؟ ! .. فلم لم تصنع ذلك مع هذا « الهراء » الذي سميته « وثائق » ، نقضت بها « إجماع الأئمة والعلماء والأعلام » ؟ ! .. هل هو الغرض السيئ ؟ .. والغاية الرامية إلى ضرب الإحياء الإسلامي بتشويه رائده في عصرنا الحديث ؟ ! .. أم ماذا ياعزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

---

(٢٣) انظر عبد الرحمن الكواكبي [الأعمال الكاملة] ص ٣٢٥ طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

وغير هذا الجاسوس المجهول الاسم ، وغير التقرير الذى كتبه عن « شخص » مجهول الاسم كذلك .. ترد فى « دراسة » الدكتور لويس الاشارات إلى تقارير الجواسيس ـ من أمثال « حسين بلجرامى » ، سكرتير الحاكم الانجليزى لحيدر آباد .. و « عزيز الدين » ، الذى كلفته الحكومة البريطانية برصد تحركات الأفغانى ـ فهى « مصادره » فى « دراسته » عن جمال الدين !

لقد كان لابد للدكتور لويس كي ينقض « إجماع الأئمة والعلماء » ، من أن يرفضهم ، كمصادر لـ « دراسته » ، وبذلك فهو قد تنكب طريقهم ، على حين رأيناه قد سار خلف الجواسيس ، باعتماده على التقارير التى كتبوها عن الأفغانى ، بل والتى لا دليل على أن المعنى بها هو جمال الدين !

● وغير هذه « الأوراق الساقطة » ، التى يسميها الدكتور لويس « وثائق » ، نراه يعتمد على نوعية من « الكتب » ليست بأحسن حالا من هذه « الأوراق » !

فهو يعتمد ، فى تشويه موقف الأفغانى من الثورة المهدية بالسودان ، وتوجيه الاتهامات إلى موقفه أثناء المفاوضات بين الانجليز وبينه ، بواسطة « بلنت » ، حول الثورة المهدية ، يعتمد على الترجمة الانجليزية لكتاب الصحفى الفرنسى « هنرى دوشفور » [مغامرات حياتى] ؟ ! .. ثم نراه ـ كما هى عادته ـ لا يتخذ أى موقف نقدى مما جاء فى هذه [المغامرات] !

فهو ، استنادا إلى هذه [المغامرات] ، يوجه للأفغانى « تهمة » أنه « طرح نفسه وسيطا فى المفاوضات ، مدعيا أنه يعرف المهدى معرفة شخصية » وينسب إلى الأفغانى عبارة : « تلميذى السابق فى جامعة الأزهر ، وهو الآن المهدى[٢٤] » !

---

(٢٤) أصل « دراسة » الدكتور لويس ، ص ١٩٣

ولو تأمل الدكتور لويس ماجاء فى هذه [المغامرات] بحس نقدى لظهرت له هذه الحقائق :

١ ـ أن الأفغانى ، وفق كتابات « بلنت » التى أوردها الدكتور لويس ذاته ، ليس هو الذى طرح نفسه وسيطا فى المفاوضات ، بل إن الانجليز هم الذين سعوا إليه ، بواسطة « بلنت » .

٢ ـ ان الأزهر لم يكن يسمى « جامعة » .. وهو لم يتخذ هذا الاسم إلا فى ستينات القرن العشرين . لقد كان اسمه « الجامع » ـ بالتذكير ـ وعندما عرض البعض على الشيخ سليم البشرى [١٢٤٨ ـ ١٣٣٥ هـ ١٨٦٧ ـ ١٩١٧ م] تسميته « جامعة » ، رفض قائلا : « لماذا تؤنث ماذكره الله ؟ ! » .

٣ ـ أن جمال الدين الأفغانى لم يدرس فى الجامع الأزهر .

٤ ـ والمهدى ـ محمد أحمد ـ لم يدرس فى الأزهر .. فلقد منعه فقره من مغادرة السودان ؟ !

لم ير الدكتور لويس شيئا من هذه الحقائق البسيطة ، والعيادة ، التى تنقض [المغامرات] التى اعتمد عليها .. فقط رأى « تهمة » موجهة للأفغانى فحال « الغرض » بينه وبين التفكير فى مدى تماسكها ومصداقيتها ! ..

● وكتاب آخر ، هو « العمدة » فى أغلب ماوجه إلى الأفغانى من اتهامات .. ففيه أنه « شيعى » ، كذب على العالم عندما ادعى أنه « سنى » .. وأنه « إيرانى » ، كذب على العالم عندما زعم أنه « أفغانى » ، وأنه « غير متدين » ، كذب على العالم عندما ظهر فى صورة المتدينين ! .. الخ .. الخ .. وعنوان هذا الكتاب هو [جمال الدين الأسد آبادى ، المعروف بالأفغانى] .. وهو منسوب إلى « ميرزا لطف الله خان » ـ الذى زعم

أنه ابن أخت جمال الدين . ويضم ملاحق فيها « شهادات » على هذه الدعاوى المناقضة لما قاله الأفغانى عن نفسه . ولما أجمع عليه الأئمة والعلماء .

ومرة ثالثة . نقول : إن الدكتور لويس لو نظر نظرة نقدية إلى ماحواه هذا الكتاب ، لكشف تهافته وزيفه .. ولأراح واستراح ... ففى هذا الكتاب من « اللامعقول » الشىء الكثير ... وعلى سبيل المثال :

١ ــ يدلل هذا الكتاب على « ايرانية » جمال الدين بأن له فى « أسد آباد » الايرانية أسرة تسمى « الاسرة الجمالية » . نسبة إليه ! .. ونحن نعلم أن الرجل لم يتزوج ولم ينجب .. فكيف تكون له أسرة « جمالية » تنتسب إليه هو . لا إلى أبيه وأجداده ؟ ! ..

٢ ــ والكتاب يتحدث عن إخوة جمال الدين . فيقول إن له أختين : طيبة . ومريم ــ وليس لنا ملاحظة على اسميهما . فهما ــ اسمان ــ مألوفان فى الأوساط الإسلامية ــ .. لكنه يذكر أن اسم أخيه الوحيد هو « مسيح الله »[٢٥] ! .. فلم لم يقف الدكتور لويس أمام هذا الاسم ، ويقول لقرائه : إن هذا الاسم محال أن يكون مألوفا فى أسرة اسلامية .. ولابد أن يكون القصد من هذا الكتاب هو تشويه الصورة الإسلامية لجمال الدين ؟ ! .. أم ان هذا الاسم ــ « مسيح الله » ــ قد أعجب الدكتور لويس فغض الطرف . ومضى يلملم الاتهامات ؟ ! .

٣ ــ وفى هذا الكتاب ــ [جمال الدين الأسد آبادى] ــ كم من المعلومات التى لايكتبها إلا جاهل أو محرف ! .. ففيه : أن « الحزب الوطنى ــ [الذى تزعمه الأفغانى بمصر] ــ كان دقيق التنظيم للغاية » ..

---

(٢٥) انظر ص ١٧٠ ، ١٧١ من هذا الكتاب . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

والمعروف انه كان « تجمعا للصفوة » ولم يكن « حزبا » ، بالمعنى المتعارف عليه ، حديثا ، من مصطلح « الحزب » !

وفيه : أن « التبرعات النقدية من أعضاء هذا الحزب ، فى تسعة أشهر فقط ، بلغت ١٨،٠٠٠ جنيه » ... وهذا كلام يدخل فى عالم الخيال المريض .. !

وفيه : « أن جميع من كانوا فى الادارات الانجليزية ـ من المصريين ـ قد تركوا أعمالهم ، وانضموا إلى المجاهدين من رجال الحزب الوطنى » ؟ ! ... والمعروف أن هذا « الحزب » ، وزعيمه الأفغانى ، لم يكن موجودا بمصر عندما قامت بها « إدارات انجليزية » فلقد نفى الأفغانى من مصر سنة ١٨٧٩ م ، وانتهى أمر هذا الحزب ، تقريبا ، قبل الاحتلال الانجليزى لمصر الذى حدث سنة ١٨٨٢ م ؟ !

وفيه : أن « اللورد كرومر ، المستشار المالى البريطانى » فى مصر قد انزعج من نشاط الأفغانى وحزبه الوطنى ، فكتب إلى حكومته تقريرين حول خطورة هذا الحزب على التجارة الانجليزية فى مصر وافريقية وآسيا .. وأنه ـ أى « الحزب الوطنى ـ هو أوضح مظهر لنهضة العرب من ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهو يبرهن حقا على كيفية سيطرة العرب على ثلث المعمورة فى أقل من ربع قرن » ؟ ! ..

ونحن نعلم ـ وتلاميذ المدارس الابتدائية يعلمون ـ أن كرومر كان « المعتمد البريطانى » فى مصر .. وليس « المستشار المالى » .. وأنه لم يأت إلى مصر إلا بعد الاحتلال بسنوات ، أى بعد نفى الأفغانى منها ، واختفاء الحزب الوطنى بنحو الخمس السنوات .. ومن ثم فلم يكتب كرومر إلى حكومته التقارير عن نشاط الأفغانى وحزبه فى مصر أبدا ؟ ! ..

وفيه : أن الموظفين الانجليز ... وأعضاء المجمع الكنسى قد شاركوا « كرومر » فزعه من الأفغانى وحزبه الوطنى .. وتعجبوا من « تقهقر سبعمائة مليون من المسيحيين المثقفين الأقوياء أمام أربعين شخصا يقودهم درويش إيرانى هو جمال الدين الأسد آبادى » ! .. وبعد سطور يذكر أن أعضاء هذا الحزب ـ الذين قال عنهم مرة إنهم ثلثمائة ، ومرة إنهم أربعون ـ يذكر أنهم قد بلغوا ، فى تسعة أشهر ٢٠،١٨٠ عضوا .. وأصبح الحزب يملك رأسمالا كبيرا فى المصارف ! .. مع العلم أن مصر ، يومئذ ، لم يكن بها أية مصارف ؟ ! ..

وفيه : أن الانجليز ، عندما انزعجوا من نشاط الحزب الوطنى .. « نفوا جمال الدين إلى أوربا » ! .. والمعروف أنه قد نفى إلى الهند ؟ ! ..

وفيه : أنهم قد « نفوا كذلك محمد عبده ، الذى كان مفتيا ثلاث سنوات » ! .. ومعلوم أن محمد عبده لم ينف إلا بعد فشل الثورة العرابية ، وبالتحديد فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م .. كما أنه لم يكن ، مفتيا قبل نفيه ، وإنما شغل هذا المنصب بعد عودته من المنفى بعشر سنوات ـ [فى ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ م] ؟ ! ..

وفى هذا الكتاب ، أيضا ، أن نفى جمال الدين من مصر كان سنة ١٨٧٩ م « بعد قضاء الانجليز على الثورة العرابية » ؟ ! .. والمعروف أن القضاء على الثورة العرابية كان فى سنة ١٨٨٢ م وليس فى سنة ١٨٧٩ م ؟ ! ..

وبعد أن ذكر الكتاب أن نفى الأفغانى من مصر كان إلى أوربا .. عاد ، ذكر أنه توجه من مصر للهند ؟ ! .. كما جعل استضافة « بلنت » للأفغانى

« بمنزله بباريس » .. على حين يعلم الجميع أنها فى لندن[٢٦] ؟ ! ...

إلى آخر هذا الكم من « المعلومات » التى ما كان يجوز لطالب مبتدئ أن يراها ثم يعتمد على هذا الكتاب فى نقض إجماع الأئمة وأعلام العلماء الذين كتبوا تاريخ جمال الدين ؟ ! ...

تلك هى « مصادر » « دراسة » الدكتور لويس عوض عن جمال الدين الأفغانى .. التى رجحها على كتابات محمد عبده ، ورشيد رضا ، وحسن البنا ، وابن باديس ، ومحسن الأمين ، وعبد القادر المغربى ، ومحمد المخزومى ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد الفاضل بن عاشور ، وعبد الله النديم ، وأديب اسحق ، وسليم نقاش ، وسليم العنحورى ، وجرجى زيدان ، وسعد زغلول ، ومحمد إقبال ، وعباس العقاد ، وأحمد أمين ، وعبد الرحمن الرافعى ، ومالك بن نبى ، ومحمود قاسم ، وفيليب دى طرازى ، ورينان ، وبراون ، وآدمز ، وبلنت ، وجولد صيهر ... وغيرهم من العلماء والمفكرين والكتاب ؟ ! ..

* * *

لقد شاءت الصدفة ، وأنا أقرأ « دراسة » الدكتور لويس عن الأفغانى . أن أقرأ فى صحيفة [الأهرام] ـ بتاريخ ١٩٨٣/٩/٢٨ م ـ نقلا عن الـ [ديلى تلجراف] البريطانية ـ أن باحثا أمريكيا ـ هو الدكتور « ريتشارد شوارتز » قد طلب الاطلاع على « ملف » العالم الرياضى ـ صاحب النسبية ـ البرت أينشتين [١٨٧٩ ـ ١٩٥٥ م] فى « إدارة المباحث الفيدرالية الأمريكية » . فوجد أن تقارير المباحث تصور أينشتين فى سنوات إقامته بأمريكا ـ من سنة ١٩٣٢ حتى وفاته سنة ١٩٥٥ م ـ فى صورة « العقل المدبر

---

(٢٦) [جمال الدين الأسد آبادى] ص ٦٢ ـ ٧٥

وراء مؤامرة شيوعية تستهدف السيطرة على هوليود .... والمسئول عن شبكة تجسس ، تستخدم مكتبه فى برلين ، لتلقى رسائل جواسيس الاتحاد السوفيتى على عنوانه ... » ... إلى آخر ما فى تقارير هذا « الملف » ، البالغ عدد صفحاته ١٥٠٠ صفحة ؟ ! ...

ولقد تساءلت : ترى ، هل يسمح « الضمير العلمى » للذين جمعوا للدكتور لويس - فى لوس انجليس - تقارير الجواسيس وملفات المباحث ، ليكتب - استنادا إليها - « دراسته » عن جمال الدين الأفغانى ... هل يسمح « ضميرهم العلمى » بكتابة تاريخ « أينشتين » استنادا إلى « ملفه » فى « إدارة المباحث الفيدرالية الأمريكية » ؟ ! ... أم أن « الضمير العلمى » مسموح له أن يأخذ « إجازة » إذا ما كانت « الدراسة » عن أعلام العروبة وقادة الإسلام ؟ !

ثم تساءلت : إذا كان الدكتور لويس قد رفض السير على درب العلماء الذين كتبوا عن الأفغانى ، وارتضى لنفسه السير على درب الجواسيس ، عندما اعتمد تقاريرهم « مصادر » لـ « دراسته » .. فلم لم يرجع إلى « تقارير جواسيس الدولة العثمانية » فى « محفوظات الآستانة » أيضا ؟ !

لقد شملت « مخصصات » السلطان عبد الحميد للأفغانى - فى سنوات إقامته بالآستانة - إلى جانب المنزل والراتب والعربة التى تذهب به إلى « متنزه الكاغدخانة » - عددا من الجواسيس .. حتى لقد داعب جمال الدين السلطان يوما ، عندما طلب منه تخصيص عربة للجاسوس الذى يتبعه ، لأن الجاسوس يلهث - فى حالة يرثى لها - خلف عربة جمال الدين ؟ !

فلم لم نر فى « دراسة » الدكتور لويس أثرا لتقارير جواسيس السلطان ؟ ! ... أم أن فرط إعجابه « بالغرب » ، وازدرائه « بالشرق » ، قد انسحب ، أيضا ، على الجواسيس ؟ ! !

تشكيك .. وافتراء !..

كثيرون ـ ممن يحسنون الظن بالدكتور لويس عوض ـ قد أقلقهم ذلك المستوى ، البالغ السوء والبين الشذوذ ، الذى بلغته « دراسته » عن جمال الدين الأفغانى .

ولقد كتب إلى فضلاء كثيرون ـ لثقة أعتز بها وتقدير أفخر به ـ يطلبون إلى جلاء وجه الحقيقة فى الأمر ، بل ويستنفروننى لتقويم « دراسة » الدكتور لويس .. فالأستاذ الفاضل الدكتور الطاهر أحمد مكى ـ الناقد الأدبى ، وأستاذ الجامعة ، ورئيس تحرير مجلة [أدب ونقد] ـ يكتب إلى : « .. إن دراسة الدكتور لويس .. تثير كثيرا من التساؤلات .. ونود أن نعرف كلمة العلم .. » .. والكاتب الفاضل الأستاذ مصطفى نبيل ـ مدير تحرير مجلة [العربى] ـ يعبر عن الصدمة التى أصابت الأوساط السياسية والثقافية ، ذات التوجه القومى ـ [فما بالنا بالاسلامى ؟!] ـ من هذه « الدراسة » .. فيكتب إلى يقول : « أتصور أن مقالات الدكتور لويس .. قد أثارتك مثلما أثارتنا .. إنه لا يمكن أن تمر هذه المقالات بلا تعليق .. إنه ليس من المناسب أن تلوث بالوحل أحد رموز النهضة العربية الحديثة .. فلذلك تأثيره على « المشروع العربى » .. لقد سبق واطلعت على كتيب صغير لمؤلفة يهودية ، صدر فى لندن ، يردد ذات الأفكار التى يعالجها الدكتور لويس .. » !

بل إن [التضامن] ـ وهى المجلة التى قبلت أن تنشر « دراسة » الدكتور لويس ـ بعد أن رفضت وسائل النشر بمصر نشرها ـ قد أدركت ما بها من خروج على « المألوف » . فكتب إلى رئيس تحريرها ، الأستاذ فؤاد مطر ، فى مارس سنة ١٩٨٣ م ـ أى قبل صدور المجلة ـ يطلب إلى الكتابة لها حول « دراسة » الدكتور لويس !.. وعندما نشرت [التضامن] تلك « الدراسة » قدمت لها بما يشبه التنصل مما بها من أفكار .. فكتبت فى التقديم لها ـ ضمن ما كتبت ـ : إن الدكتور لويس « يتحمل اسمه تبعات رأيه .. ومناقشته تبدو واجبا فكريا .. » ؟!..

ولذلك .. فإن من « الحق » ، بل ومن « الواجب » أن نتساءل عن الأسباب التى بلغت « بدراسة » الدكتور لويس عن « جمال الدين » هذا الحد من « القبح المشين » ؟!..

وفى تقديرى أن مرجع ذلك أسباب ، فى مقدمتها :

١ ـ أن الدكتور لويس قد اشترك بهذه « الدراسة » فى الوصول إلى تحقيق « غرض لأرى مبيت » .. ولم تكن « الحقيقة الموضوعية » هى هدفه .. ولا هدف الذين دعوه وهيأوا له « الأوراق » التى استند إليها فى الأحكام التى أصدرها على جمال الدين .. لقد جاءت هذه « الدراسة » حلقة فى المخطط الذى يتصدى لظاهرة « الإحياء الاسلامى » .. لتهيل التراب على الرمز الذى ارتاد .. فى عصرنا الحديث ميدان هذا الإحياء ..

٢ ـ ولقد كان طبيعيا « لدراسة » هذا هو « غرضها » .. أن تكون « مصادرها » هى « الأوراق والتقارير والملفات » التى كتبها الجواسيس والعملاء ـ من موظفى « المباحث » وتلامذة الاستشراق ـ صهاينة وأشباه صهاينة ـ .. فهؤلاء .. وأمثالهم .. هم « كتيبة التصدى الفكرى » لظاهرة « الإحياء الاسلامى » التى قادها جمال الدين الأفغانى !..

فما كان « لغرض » « الدراسة » ولا لنوعية « مصادرها » إلا أن يثمرا هذا « الشذوذ » الذى خرج به علينا الدكتور لويس ـ ولقد سبق « نقدنا » لهذين العاملين . فيما تقدم من صفحات ـ أما القدر من « المعلومات » . التى اطلع عليها الدكتور لويس ، والخاصة بتاريخ . جمال الدين الأفغانى وحركته الثورية التجديدية . فلقد أفسدها ـ حتى يطوعها لخدمة « الغرض الثأرى المبيت » .. أفسدها بما امتلأت به « دراسته » من « التشكيك » .. ومن « الافتراء » ؟!..

٣ ـ **فيما يتعلق بـ « التشكيك » . ولوى عنق « الحقائق » و« المعلومات » . لتذهب فعاليتها . بل ولتعطى الأثر المعاكس لأثرها الطبيعى .. لا أعتقد أنى قد قرأت . من قبل . « دراسة » بلغت ما بلغته « دراسة » الدكتور لويس** ... وإذا شئنا الأمثلة على ذلك . فلينظر معى القارئ العزيز فى هذه المواطن والألوان التى سلكت أكثر الطرق « التواء » لتفضى إلى « التشكيك » فيما استقر من « حقائق » « ومعلومات » عن جمال الدين الأفغانى :

● كل الأئمة والعلماء والأعلام الذين كتبوا عن الأفغانى قد أجمعوا على وضوحه وحسمه . حتى كأنه السيف المسلول فى وضح النهار ... بل لقد تحدث الإمام محمد عبده عن افتقار الأفغانى إلى « المسايرة والملاينة والكياسة » مع مخالفيه وخصومه . وانتقد هذا الجانب فى طبع أستاذه . فقال ـ بعد الحديث عن إيجابيات طبعه ـ : « .. إلا أنه كان حديد المزاج وكثيرا ما هدمت الحدة مارفعته الفطنة ..[1] » ؟!..

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣٥٢

والأفغاني ذاته يحدثنا حديث الرافض « للتقية » ـ التي تجعل المرء يظهر غير مايبطن لدواع يراها ـ والداعي إلى الجهر بالرأى ، مهما كانت المخاطر ، ومهما تكن الظروف والملابسات .. يحدثنا الأفغاني عن رأيه في هذه القضية فيقول : « لا أرى في هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانه لازما إلا ما كان في علانيته شينا ومعرة . ولايكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقل كتمانهم . فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها لا خير فيها ، ولاهي بالدولة الأمينة من أماناتها وحسن تصرفها . ورجل يرى كل شيء يقال له ، أو يجب أن يقوله سرا مكتوما ، لا يرجى إلا لنفاقه ، وماهو بالرجل الرجل ، ولايشبه رجل . [ومن أحب فليعلن] . والمحبة هنا على مطلق المعنى ، لكل شيء حق ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات ..[2] » .

لكن الدكتور لويس يأبى إلا أن « يشكك » في هذه الصفة من صفات الأفغاني . فيتهمه « بالغموض » و« التقية » و« ازدواج الشخصية .. بل وتعددها » . فيقول : « لقد انتشرت « التقية » بين الشيعة .. ونشأ الأفغاني في هذه التقاليد التي جعلت منه مزدوج الشخصية بل ومتعددها . يفصل الكلام والتعاليم بحسب من يخاطبه وبحسب ظروف الزمان والمكان »[3]

والدكتور لويس يستعين ، هنا ، بالخلط لكي يصل إلى « التشكيك » و« التشويه » ! . ذلك أن **الفرق بين والبعد شاسع بين « التقية » وازدواج الشخصية وتعددها وبين مراعاة حال المخاطب ووضع ظروف الزمان والمكان في الحسبان** .. فرسولنا ، عليه الصلاة والسلام يقول : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » !.. ولقد استقر واشتهر في تراثنا الفكرى أن

---

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٥٣٦

(٣) [المصادر] العدد ٢ ص ٧٠

« وحدة الحقيقة » لاتمنع تعدد أساليب الوصول إليها ولا تعدد أساليب إبلاغها إلى الآخرين ، وأن تعدد المستويات الفكرية للناس قد اقتضت وتقتضى تعدد وتنوع سبل البلاغ .. فهناك ـ كما تحدث ابن رشد ـ السبل « الوعظية » و « الجدلية » و « البرهانية » ، التى تختص كل واحدة منها بنوعية من المخاطبين ! .. فأين هذه من « التقية ـ والباطنية ـ وازدواج الشخصية » ؟ ! .. وأين « تشكيك » الدكتور لويس من « الوضوح والحسم » الذى تميز به طبع جمال الدين ؟ ! ..

● ولقد كانت حياة الأفغانى ودعوته وحركته التجسيد لمقاومة الشرق للعاصفة الاستعمارية التى هبت من الغرب فزحفت على وطن العروبة ودول الشرق وعالم الاسلام .. والذين قرأوا ويقرأون كتاباته ، وخاصة فى [العروة الوثقى] ، يرون وضوحا فى الهدف ، وخبرة ممتازة بصراعات السياسة الدولية وتناقضات أقطابها ، ومحاولة واعية ودائبة للاستفادة من هذه التناقضات لدفع الآثار المدمرة لعاصفة الاستعمار عن وطن العروبة وعالم الاسلام ، ولتحقيق « الدولة النموذج » ، التى تنهض بالثقافة الاسلامية ، وبثمرات العلم الحديث ، فتستقطب شعوب الشرق ودوله فى مواجهة التحديات .

تلك كانت رسالة جمال الدين فى الحياة .. تجلوها كتاباته .. وتؤكدها نضالاته .. ويجمع عليها أنصاره وأعداؤه دون استثناء ! ..

.. لكن الدكتور لويس عوض يأتى « ليشكك » فى هذه الحقيقة ، فيجرد قلمه من كل آثار الدقة ، بل والأمانة ، ليحكم على الأفغانى ـ حينا ـ بأنه كان « محامى روسيا فى السياسة الأفغانية » ! .. ـ وحينا آخر ـ بأنه « أثناء وجوده فى كلكتا ـ [بالهند] ـ عرض خدماته على الحكومة البريطانية ، ولكنها اعتذرت عن قبولها ، مع الشكر ! .. » .

ورغم أن الدكتور لويس ـ فيما يتعلق بالاتهام الأول ـ يستند إلى « قصاصة ورق » كتبها جاسوس أفغاني يعمل لحساب الانجليز عن من يسميه « السيد الروسي » ـ الذي لا دليل على أنه جمال الدين الأفغاني !.. ورغم دعوة الدكتور لويس إلى الحيطة والحذر فيما يتعلق بتقارير الجواسيس عن خصوم الاستعمار.. إلا أنه لا يتورع عن استخدام « أداة التوكيد » : « إن » ، واستخدام كلمة : « بوضوح » ، ليؤكد نسبة الاتهام إلى الأفغاني ، فتقول عبارته : « إن الأفغاني كان بوضوح محامي روسيا في السياسة الأفغانية ».. ثم يمضي ليدعم هذه التهمة بقوله : « إن بعض تصرفاته الغامضة المريبة تدعمها ! ».. وذلك دون أي ذكر لأي تصرف من هذه التصرفات « الغامضة والمريبة » ؟!..

بل إن الدكتور لويس يوغل في سبيل « التشكيك » ، حتى يبلبل قارئه فتضيع من ذهنه « الحقيقة » ضياعا كاملا ، يوغل في ذلك إلى الحد الذي يجعله « يشكك » في عمالة الأفغاني للروس ، ولكن بالاتجاه بعمالته للعثمانيين ! ، فيقول : « إننا قد ننتهي إلى أن جمال الدين كان في نهاية الأمر يخدم مصالح الخلافة العثمانية ، متحمسا ككفاح مسلمي آسيا الوسطى ، بما يمكن مستقبلا من وحدة العالم الاسلامي تحت الخلافة العثمانية » !.

إن الهدف هو « التشكيك » في عداء الأفغاني للاستعمار .. ولما كان إنكار « حقيقة » عدائه للاستعمار سيجد مقاومة لدى القارئ ، فليكن « التشكيك » هو السبيل لإغراق « الحقيقة » في بحر من « الاحتمالات » ، من مثل تلك التي تحملها عبارات الدكتور لويس عن الأفغاني : « هل كان حقا عميلا للروس ، كما توحي الوثائق البريطانية ؟.. أم أنه كان مجرد سياسي فاشل ، و« رفيق طريق » يرى أنه لا خلاص للمسلمين من براثن الانجليز إلا بالتعاون مع روسيا ؟.. أم أنه كان مثاليا حالما يخطط لاستقلال الهند المسلمة

وروسيا المسلمة ويحاول أن يمهد ـ بالعمل السياسى وبالفكر ـ لوحدة إسلامية كبرى ؟! ...»

تشكيك .. واحتمالات .. وعلامات استفهام .. هدفها طمس حقيقة عداء الأفغانى للاستعمار !..

أما فيما يتعلق « بالاتهام » الثانى ـ سعى الأفغانى ليعرض خدماته على الانجليز ـ .. فرغم أن « مصدر » الدكتور لويس هو « إشارة » فى تقرير جاسوس انجليزى كتب عن الأفغانى لحكومة الهند الانجليزية سنة ١٨٩٦ م .. ورغم أن هذه « الاشارة » لا تحدد طبيعة هذه « الخدمات » .. فإن الدكتور لويس يتطوع « بالتكهن » ـ أى والله « بالتكهن » ـ فيقول : « .. ونستطيع أن نتكهن بأن الخدمة التى عرضها الأفغانى على الحكومة البريطانية ـ فى الهند ـ هى أن تعيده إلى مصر لإطفاء الثورة العرابية وتأييد الخديوى توفيق ..»[4] ؟!..

يتكهن الدكتور لويس هذا التكهن .. بالرغم من سيل الحقائق والمعلومات التى تواترت عن عداء الأفغانى للاستعمار الانجليزى فى كل مكان .. وبالرغم مما كتبه الكاتبون عن هذا العداء الذى بلغ حدا جعل البعض يظن أنه عداء « لجنس الانجليز » ، فسألوا الأفغانى عن ذلك ، فحدد أنه موجه للاستعمار الانجليزى ، لا للأمة الانجليزية [5] ؟! .. بل ورغم النصوص التى أوردها الدكتور لويس نفسه فى « دراسته » ، نقلا عن « بلنت » وعن الساسة الانجليز ومراسلى جريدة « التايمز » الانجليزية ، وكلها

(٤) [التضامن] العدد ٤ ص ٧٦ ، ٧٨ . والعدد ١٥ ص ٦٦

(٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

تؤكد عداء الأفغانى للاستعمار الانجليزى ومحاربته له فى كل البلاد وفى جميع الميادين !..

إن الدكتور لويس يوغل فى « درب التشكيك » إلى الحد الذى يجعله يذكر الشىء ونقيضه ، ليبلبل القارئ فى « الحقيقة » حقيقة عداء الأفغانى للاستعمار .

ففيما يتعلق بخلع الخديوى اسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م] عن عرش مصر سنة ١٨٧٩ م .. ينقل الدكتور لويس عن أديب اسحق أن هذا « الخلع » كان قد تقرر من قبل انجلترا وفرنسا والدولة العثمانية . وأن سعى جمال الدين الأفغانى ، على رأس [الحزب الوطنى] المصرى إنما كان ليخلف الأمير « توفيق » - الذى كان يبدى ميله لتعاليم الأفغانى - أباه « اسماعيل » ، بدلا من الأمير « حليم » - الذى كان مع فرنسا - .. ينقل الدكتور لويس هذا .. ثم يعود فيتهم الأفغانى بأنه هو الذى « قاد شرذمة من أعضاء الحزب الوطنى ، من الاصلاحيين المحافظين الموالين لمحور تركيا - انجلترا ، فعجل بالاجهاز على إسماعيل ، وعلى انتفاضته الوطنية الدستورية ، زائفة كانت أم مخلصة .. »[٦] ؟!

فكيف يتهم [الحزب الوطنى] بأنه هو الذى عجل بالاجهاز على الخديوى اسماعيل .. مع الاعتراف بأن « الخلع » كان قد تقرر ، قبل تحرك [الحزب الوطنى] ؟!.. ومع الاعتراف بأن هذا التحرك كان خاصا بمن يخلف إسماعيل ؟!.. ثم ماهى حيثيات اتهام [الحزب الوطنى] بالمحافظة ، وموالاة محور « تركيا - انجلترا » ؟!.. أليس هذا هو حزب « مصر للمصريين » ؟!.. وحزب الثورة العرابية ؟!.. أليس هذا الحزب هو عدو

---

(٦) [التضامن] العدد ٧ ص ٦٣ ، ٦٤ .

التدخل الأجنبي في مصر ـ والذي كان انجليزيا في الأساس؟!

وفيما يتعلق بموقف الأفغاني من الاستعمار الانجليزي، أثناء إقامته بالهند، بعد أن تسبب الانجليز في نفيه من مصر سنة ١٨٧٩ م. يتهم الدكتور لويس الأفغاني بمهادنة الانجليز.. «وبأن نشاطه لم يكن فيه مايغضبهم أو يلفت نظر جواسيسهم» ـ ولقد سبقت إشارتنا إلى اتهامه له بعرض خدماته عليهم! ـ.. لكنه يعود فيعترف ـ عندما ينقل عن «بلنت» ـ أن آراء الأفغاني المعادية للانجليز لقيت «انطباعا حسنا» عند الزعيم الاسلامي عبد اللطيف.. وأن وضوح هذه الآراء وحدة هذا العداء قد بلغا إلى الحد الذي جعل «مولاي عبد اللطيف يخاف على نفسه من لقاء الأفغاني مخافة غضب الانجليز..»؟!.

وبعد أن يعترف الدكتور لويس ـ نقلا عن «كتاب القاضي عبد الغفار» ـ أن «الانجليز قد وضعوا الأفغاني تحت المراقبة.. وأنه كان محدد الإقامة».. يعود فيشكك في الهدف من نفيه إلى الهند، أثناء صراع الانجليز ضد الثورة العرابية. فيقول: «أما لماذا سمح الانجليز للأفغاني أن يقيم في الهند، بعد أن طردوه من مصر، فأمر غير مفهوم. فقد كان في إمكانهم أن **يشحنوه** ـ [كذا!] ـ إلى بلاده في إيران. ربما ليضعوه تحت المراقبة. أو **ربما لأنه موصى عليه من الباب العالي، صديق الانجليز في تلك الفترة**»[7]؟!.

لقد نقل ما يؤكد عداء الأفغاني للانجليز عندما كان منفيا بالهند.. وكيف كان هناك مراقبا محدد الاقامة.. ثم عاد ليشكك في الموضوع، وليوهم القارئ بأن الأمر كان مجرد مسرحية مثلها الانجليز مع الأفغاني، تنفيذا لوصية

---

(٧) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٤، ٦٥، ٦٦.

صديقهم - « فى تلك الفترة » - السلطان العثمانى ! - وذلك دون أن يسأل الدكتور لويس نفسه : هل كان السلطان العثمانى صديقا للانجليز فى الفترة التى كانوا ينتزعون فيها مصر ؟ ! .. وهى التى فجر احتلالها كل تناقضات العثمانيين مع الانجليز ؟ ! ..

بل ويمضى الدكتور لويس ليعلل أسباب نفى الانجليز جمال الدين الأفغانى من مصر إلى الهند ، فيكشف لنا ، لا عن « تناقضه » فقط ، بل وعن « قلة فى المعلومات » .. نستحى أن نسميها « جهلا بأبسط الحقائق والمعلومات » ؟ ! .. يقول : « وفى تقديرى أن قرار الانجليز بإبعاد الأفغانى إلى مصر يرجع إلى عاملين :

١ - أنهم أدركوا أن الأفغانى يعمل لحساب الباب العالى مباشرة .

٢ - أن الأفغانى خرج من حلقات المثقفين والمناورة مع سادة البلاد إلى خط جديد منسق غالبا مع « تركيا الفتاة » وإصلاحيى تركيا . يقوم على الإرهاب المتمثل فى مؤامرات الاغتيال ، وعلى تحريك الشارع ، على غرار ما كانت تفعله الجمعيات السرية المألوفة فى أوربا فى ذلك الزمان (الفوضويون ، والنهيلست) .. »[٨]

ونحن نقول : إن الدكتور لويس لو كان يحترم الحقيقة ، ويحترم عقل قارئه لما كتب ما كتب ..

(أ) لقد سبق وحكم أن نفى الأفغانى إلى الهند كان بتوصية من الباب العالى لأصدقائه الانجليز .. ثم هاهو يذكر أن النفى قد حدث لأن الانجليز قد أدركوا أنه يعمل لحساب الباب العالى مباشرة ، وفى مكان آخر أورد نص تقرير القنصل الانجليزى بالقاهرة ، الذى يتحدث فيه عن حادثة النفى ،

---

(٨) « التضامن » العدد ٨ ص ٦٢

وفيه يقول : « إن الأفغاني قد حظر عليه الإقامة في أي من أجزاء الامبراطورية العثمانية » ! [9] فكيف نتفق هذه المتناقضات الثلاث ؟!

(ب) وهو يذكر أن الأفغاني يعمل لحساب الباب العالي مباشرة .. ثم يذكر . في ذات الفقرة : أنه يعمل مع « تركيا الفتاة » وإصلاحيي تركيا » ... ويغفل . أو يتغافل عن أن « تركيا الفتاة » وإصلاحيي تركيا ، هؤلاء هم أعداء الباب العالي ، الذي قال إن الأفغاني يعمل مباشرة لحسابه ؟!..

(جـ) والدكتور لويس يتحدث عن نفي الأفغاني من مصر سنة ١٨٧٩ م . ويعلله بتنسيق الأفغاني مع « تركيا الفتاة » . وذلك دون أن يكلف نفسه مؤونة سؤال أهل الذكر عن تاريخ نشأة « تركيا الفتاة » ؟ تلك التي بدأت جنينا في صفوف الطلاب الأتراك في جنيف سنة ١٨٩١ م ـ في رأي أو في سنة ١٨٩٤ م ـ في رأي آخر ـ ثم هي لم يعرف لها نشاط داخل الدولة العثمانية إلا في العقد الأول من القرن العشرين .. أي بعد وفاة جمال الدين الأفغاني بسنوات طويلة [10] .. فكيف نسق الأفغاني نشاطه ، أثناء إقامته بمصر ـ في سبعينات القرن التاسع عشر ـ مع جماعة هي من ثمرات القرن العشرين .. عندما كان في رحاب مولاه ..

(د) كذلك لم يسأل الدكتور لويس نفسه ـ ولو من باب الاحترام لعقل القارئ ـ كيف يكون التنسيق بين دعوة « الجامعة الاسلامية » ـ التي هي ـ

---

(٩) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥

(١٠) فيليب حتي [تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين] جـ ٢ ص ٣٥٠ طبعة بيروت سنة ١٩٥٨ م . ولوتسكي [تاريخ الأقطار العربية الحديث] ص ٣٩٤ طبعة موسكو سنة ١٩٧١ م .

كما يقول ـ الخط الأصيل فى تفكير الأفغانى السياسى [11] ـ وبين دعوة « تركيا الفتاة » ـ التى تعنى سيطرة القومية الطورانية على دولة الخلافة ؟!..

كيف ـ بالله ـ يمكن أن يتم هذا التنسيق ـ على فرض المستحيل ـ وهو وجود « تركيا الفتاة » فى عصر جمال الدين ؟!!..

● ولما كان شهود العصر وأئمته ومؤرخوه وعلماؤه الأعلام قد أجمعوا على امتياز جمال الدين وتفرده وتميزه ، فى كل موطن عاش وناضل فيه .. فلقد شق الدكتور لويس على نفسه وعلى الحقيقة وعلى قرائه كى « يشكك » فى قيمة وأهمية جمال الدين !..

(أ) فالمحاضرة التى ألقاها الأفغانى عن « الصناعات » وفلسفتها « فى (دار الفنون) بالآستانة..

والتى سببت أزمة عنيفة مع « مشيخة الاسلام » العثمانية ـ انتهت بنفى جمال الدين من عاصمة الدولة العثمانية .. هذه المحاضرة ـ وما أحدثته من أحداث وجدل وصراع ـ يتفه الدكتور لويس من شأنها . فيقول : « وغير صحيح بأن محاضرته الثورية « مسببة الأزمة » أقامت الدنيا وأقعدتها ـ كما صور ـ وإنما كانت مجرد فقاعة فى الجو الثقافى التركى سرعان ما انفثأت .. » !..

ونحن إذا جعلنا « دراسة » الدكتور لويس مصدرنا الوحيد ـ وذهبنا نجمع منها الآثار وردود الأفعال التى أحدثتها هذه المحاضرة .. فسنجد :

١ ـ أن شيخ الاسلام العثمانى حسن أفندى فهمى قد طلب من الصدر الأعظم عالى باشا إصدار الأمر بطرد الأفغانى من البلاد .. ولقد استجاب الصدر الأعظم لذلك فصدر أمر الطرد ..

---

(١١)[التضامن] العدد ٦ ص ٦٨ .

٢ ـ أن أمرا سلطانيا صدر من السلطان عبد العزيز [١٢٤٥ ـ ١٢٩٣ هـ ١٨٣٠ ـ ١٨٧٦ م] بفصل جمال الدين الأفغاني من « مجلس المعارف » العثماني .. وبفصل مدير الجامعة ـ [دار الفنون] ـ تحسين أفندي كذلك !

٣ ـ أن لجنة من هيئة كبار العلماء قد تشكلت لإصدار الحكم على الأفغاني وإصدار الفتوى بحكم « الشرع » ـ كما تراه مشيخة الاسلام العثمانية ـ في محاضرته .. وأن رأى هذه اللجنة وحصيلة مداولاتها قد صدر ـ في صورة كتاب عنوانه [السيوف القواطع] ، وعليه اسم أحد أعضائها ـ خليل فوزي ـ في سنة ١٨٧٢ م .. وفيه حديث عن مهمة اللجنة ، التي تشكلت للرد على « زندقة » الأفغاني .. وعن الكتاب ، الذي هو ثمرة لمداولاتها ، والذي كتب تنفيذا لأوامر الخليفة السلطان لنصرة الدين وتسفيه « الفلاسفة الحقراء » .. والنتيجة التي وصل إليها « شيوخ الرجعية العثمانية » هي أن الأفغاني مرتد ، وإذا لم يعلن توبته فقد حق قتله ؟ ! .

٤ ـ أن الصحافة الأوربية في استانبول ـ وليس التركية والعربية فقط ـ قد خاضت عباب المعركة التي أثارتها هذه المحاضرة [١٢] ..

٥ ـ وأخيرا .. استمرت هذه المحاضرة تثير ردود الأفعال ، فيكتب الشيخ مصطفى المغربي رسالة عنوانها : [عين الصواب في الرد على من قال إن الرسالة والنبوة صنعتان تنالان بالاكتساب] يشير إليها ابنه الشيخ عبد القادر المغربي ـ تلميذ الأفغاني ـ الذي برأ الأفغاني مما اتهمه به أبوه [١٣] ؟ !

يذكر الدكتور لويس كل هذه الوقائع التي مثلت أحداثا وردود أفعال

---

(١٢) [الخصام] العدد ٥ ص ٦٨ ـ ٧٠ .

(١٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] جـ ١ ص ٣٢

لمحاضرة الأفغانى عن « الصناعة وفلسفتها » .. لكنه .. كى « يشكك » فى أهمية الأفغانى ويقلل من قدره ، يقول عنها إنها « مجرد فقاعة فى الجو الثقافى التركى سرعان ما انفثأت .. » !؟ .. ترى ماذا كان يريد لهذه « المحاضرة » أن تصنع ، حتى لا تكون « مجرد فقاعة » ؟ .. هل كان يريد لها أن « تقلب نظام الحكم فى دولة آل عثمان » ؟ ! ! ..

● والدكتور لويس عوض يذكر فى « دراسته » : « إجماع محمد عبده وأديب إسحق وسليم العنحورى وجرجى زيدان ، وعامة معاصرى الأفغانى ، من المصريين وأبناء البلاد العربية على ثلاثة أشياء :

الأول : هو دور الأفغانى الكبير بين المثقفين والعامة فى خلع الخديوى اسماعيل ..

والثانى : هو دور الأفغانى الكبير بين المثقفين فى التمهيد للثورة العرابية ..

والثالث : هو دور الأفغانى الخاص فى حركة التحرير المصرية ، إلى جانب دوره العام فى حركات التحرير الاسلامية فى مواجهة الاستعمار البريطانى على وجه التخصيص .. » (١٤)

يذكر الدكتور لويس هذا الاجماع على أهمية دور الأفغانى وتفرده وامتيازه وريادته فى هذه الميادين .. وهو إجماع شهود العصر ورجالاته وأعلامه الذين عاصروا الأفغانى ، بل وشاركوه صنع الكثير من الأحداث فى هذه الميادين .. لكن الدكتور لويس يمضى على درب « التشكيك » متوهما القدرة على هدم هذا « الإجماع » ! ..

ونحن نعلم أن « الشك » فيما أجمع عليه علماء عصر من العصور أو اتفق عليه مفكروه ليس منكرا من القول ولا زورا .. فـ « الشك

---

(١٤) [التضامن] العدد ٧ ص ٦٢ .

المنهجى » ، الذى هو طريق المفكر إلى « اليقين » أمر مشروع ، بل ومطلوب . لكن الذى صنعه الدكتور لويس كان شيئا مختلفا ومخالفا .. إنه « الشك العبثى » .. بل « التشكيك » الذى بلغ حد الهدم والنقض للحقائق التى اضطر الدكتور لويس ، أحيانا ، إلى الاعتراف بها أو إلى إيرادها إذا كانت منصفة لسيرة جمال الدين ؟ !..

(أ) فى حديثه عن خطبة الأفغانى بقاعة « زيزينيا » بالاسكندرية ، يذكر أن « أهم ماجاء فى هذه الخطبة هو :

ابراز الأفغانى لدور « القوميات » فى نهضة الأمم

وإدانته للتعصب الدينى

واستبداد الحكام

، ودعوته لإنشاء تنظيم سياسى ، هو الحزب الوطنى ، ليحمى النظام النيابى

ودعوته لحرية الاجتماع ، وحرية الصحافة .

وتعليم المرأة .

والأخذ ، عامة ، بأسباب القوة والتقدم فى الحضارات الأجنبية . »[15]

هذا هو تلخيص الدكتور لويس لمحاضرة الأفغانى فى « زيزينيا » .. والذين يتأملون هذه « المحاور » التى دارت حولها هذه الخطبة لابد مدركون لمبلغ ثوريتها وتقدميتها ، بمقاييس مجتمعاتنا المعاصرة ، فما بالنا بهذه المجتمعات فى سبعينات القرن الماضى .. أى منذ أكثر من قرن من الزمان ؟ !

لكن الدكتور لويس ، بعد ذكره لأفكار الأفغانى الثورية هذه ، يعود ،

---

(١٥) [التضامن] العدد ٩ ص ٥٩

فى الصفحة التالية من « دراسته » ، لينفى عن الأفغانى شرف « الثورية » ، بل وليتهمه « بالاندماج فى الحركات الوطنية والتقدمية المصرية كى يحكم جنوحها إلى التطرف الراديكالى .. » ؟ ![16]

وهنا نتساءل : أية « راديكالية » تلك التى تتجاوز ـ فى مثل تلك البيئة وذلك التاريخ ـ ذلك « البرنامج الثورى » الذى طرحه جمال الدين ؟ ! ولكنه « التشكيك » ! ...

(ب) وإذا كان المؤرخون قد أجمعوا ـ ومن قبلهم زعماء الثورة العرابية وخصومها ـ على دور الأفغانى فى التمهيد لهذه الثورة ، إن فى الفكر أو فى تربية القيادات التى فجرتها وقادتها .. فإن الدكتور لويس يذهب فى « التشكيك » بهذه الحقيقة لا إلى حد إنكارها فقط ، بل وإلى محاولة إثبات نقيضها ! .. يقول : « غير صحيح ما يقوله محمد عبده وغيره من أن دور الأفغانى فى تحريك الفكر المصرى كان أهم عامل فى إشعال الثورة العرابية بل على العكس من ذلك . **لقد أدت أفكار الأفغانى العثمانية إلى استقطاب ذلك الجناح المحافظ بين مجاهدى الحزب الوطنى الحر ثم مجاهدى الثورة العرابية مما أحبط الثورة العرابية بتوجيهها فى مسارات دينية بدلا من تعميق جذورها المصرية** [17] » ؟ !

إنه يحمل الأفغانى مسئولية فشل الثورة العرابية . بدلا من الغزو والاحتلال الانجليزى الذى حارب جيش الشعب بقيادة عرابى وهزمه مستعينا بالخيانة ! . فبدلا من إلقاء المسئولية ـ فى فشل الثورة ـ على الانجليز والخونة ، يذكر عبارة غامضة تجعل الفشل ناتجا عن « توجيه الثورة فى

---

(16) [التضامن] العدد ٩ ص ٦٠ .

(17) [التضامن] العدد ٩ ص ٥٨ ، ٥٩ .

مسارات دينية بدلا من تعميق جذورها المصرية » !..

وهنا لابد من التساؤل : ماهى « هذه المسارات الدينية » ؟

إننا نعلم أن الثورة العرابية قامت وهزمت وهى ترفع شعار : « مصر للمصريين » .. بمعنى : العداء للتدخل الأجنبي والنهب الخارجى ، الذى كان أوربيا فى الأساس .. وهذا هو جوهرها ومحتواها الوطنى .. وأنها قامت وهزمت وهى مخلصة للحرية والديمقراطية والدستور .. وهذا هو جوهرها ومحتواها الديمقراطى .. وأنها قد قامت وهزمت وهى مجسدة لأروع صور « الوحدة الوطنية » بين طوائف الأمة ومذاهبها الدينية .. فـ « المجلس العرفى » .. برلمان الأمة الثائرة ـ قد ضم أربعمائة من قادة الأمة ، بينهم كل الممثلين الروحانيين لجميع الطوائف الدينية ، مسلمين ومسيحيين ـ بكل طوائفهم ـ ويهود[18] .. و« البند » الخامس فى برنامج [الحزب الوطنى الحر] ـ حزب الثورة العرابية ـ يتحدث عن « الوحدة الوطنية » لأبناء الأمة ، على اختلاف عقائدهم الدينية ، فيقول : « الحزب الوطنى حزب سياسى ، لا دينى ـ [بمعنى أنه غير طائفى ، وليس بمعنى أنه ضد الدين !] ـ فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب ، وجميع النصارى واليهود ، وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه ، لأنه لاينظر لاختلاف المعتقدات ، ويعلم أن الجميع إخوان ، وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية ، وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة المحمدية الحقة تنهى عن البغضاء ، وتعتبر الناس فى المعاملة سواء .. »[19] !

---

(١٨) سليم نقاش [مصر للمصريين] جـ ٥ ص ١٣٠ طبعة الاسكندرية سنة ١٨٨٤ م

(١٩) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ١ ص ٣٦٩

فإذا علمنا أن الذى صاغ هذا البرنامج هو الشيخ محمد عبده . تلميذ الأفغانى ومريده . زاد التساؤل إلحاحا عن ذلك « الحزب الحافظ » ـ فى الحزب الوطنى ـ الذى يقول الدكتور لويس إنه ـ تبعا للأفغانى ـ قد قاد الثورة العرابية إلى « المبارات الدينية التى أحيطتها » ؟!.

لكنه « التشكيك » فيما غدا ، فى تاريخنا ، بديهيات مثلث وتمثل صفحات مشرقة فى ذلك التاريخ !..

بل إن الدكتور لويس يذهب ، على هذا الدرب ، إلى حدود « الافتراء » على الأفغانى افتراء يستفز كل صاحب ضمير . إنه يتهم الرجل ـ الذى كان منفيا ، محدد الإقامة ، ومراقبا من قبل الانجليز ، بالهند ، أثناء الثورة العرابية ـ يتهمه بالمسئولية عن « المنشور السلطانى » الذى أعلن « عصيان عرابى » فى سبتمبر سنة ١٩٨٢ م ؟!..

يقول الدكتور لويس ـ فى فقرة لم تنشرها [التضامن] ، ورجعنا فيها إلى أصل « دراسته » ص ١٠٧ ـ : « ومن يدرس تاريخ الثورة العرابية يعرف أن « منشور العصيان » ... وإعلان خروج عرابى ورجاله من الملة والدين ، حين كانت جيوش الانجليز تطرق أبواب القاهرة كان من طبيعة الأشياء التى كان الأفغانى يدعو إليها .. » ؟!..

أما كيف ؟.. فلا يذكر الدكتور لويس أية حيثيات لهذا « الافتراء » !.

وهنا نتساءل . هل الرابطة ـ رابطة الجامعة الاسلامية ـ التى أرادها الأفغانى بين مصر وبين الخلافة العثمانية ، كانت من أجل مواجهة الاستعمار الأوربى ـ الذى تصدت له الثورة العرابية ـ ؟؟ أم أنها كانت من أجل تسهيل مهمة هذا الاستعمار ـ كما حدث ووظف له « منشور العصيان » ؟؟..

وإذا كان الدكتور لويس لم يقرأ نص « منشور العصيان » ـ كما يبدو ـ أو

قرأه ثم أضاف إليه من عنده. فإننا نقول له : إن « المنشور » لم يذكر « خروج عرابى ورجاله من الملة والدين » .. وإنما ذكر - فى البند الخامس - عبارة « بناء على ما تقدم ، يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ، ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية [٢٠] » .. ونحن إذا نحينا « الغباء السلطانى والتخاذل العثمانى » جانبا ، أبصرنا دور « الخداع الانجليزى » فى صدور هذا المنشور .. فلقد كان إعلانه شرطا انجليزيا لدخول الجيوش العثمانية لمصر ، كبديل للجيش الانجليزى .. فلما صدر المنشور ، فأضعف موقف عرابى والثورة ، تشددت انجلترا فى شروطها ، لأن طلبت عدم دخول الجيوش العثمانية إلى الاسكندرية وبورسعيد والسويس ، وبقاءها فى دمياط ورشيد وأبى قير ، بل وطلبت أن تكون قيادة الجيوش العثمانية للجنرال الانجليزى « ولسلى » ! .. ولقد رفض السلطان الشروط الانجليزية ، فلم يتم الاتفاق ، واستفاد الانجليز من « منشور العصيان » ، وتجاوزوا ظرف السماح بالتدخل العثمانى كى لا يكون بديلا لاحتلالهم مصر .. ولقد تعللت انجلترا بأنها ضبطت كتابا مرسلا من السلطان إلى عرابى ، وأعلنت أن العلاقات لم تزل مستمرة بين عرابى والأستانة ، بالرغم من مناداة السلطان بعصيان عرابى ورجاله وقالت « التايمز » الانجليزية : « إن هذا الكتاب لو نشر لكان له تأثير عظيم [٢١] » ! ! ..

فهو ، إذن ، « الغباء السلطانى والضعف العثمانى » و« الخداع الانجليزى » - وليس فكر جمال الدين الأفغانى - المسئول عن « منشور العصيان » ! ..

(٢٠) [مصر للمصريين] جـ ٥ ص ٢٠١

(٢١) [مصر للمصريين] جـ ٥ ص ٢٠١ - ٢٠٣

ثم .. ألم يقرأ الدكتور لويس ما كتبه الأفغاني في [العروة الوثقى] إدانة هذا المنشور ؟! .. لقد كتب يقول : « إن على الدولة العثمانية أن تتذكر أنه لولا فرمانها بعصيان عرابي لما سهل للانكليز أن يدخلوا أرض مصر . ولا أصابوا هذه الغنيمة باردة . فلتنظر إلى قوتها ونفوذها ، وتلاحظ أن الحل على من عقد . والعقد على من حل .. وعليها ألا تغفل عن النمسا وشرها . والروسيا وطمعها . وفرنسا وآمالها . فمن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة تدعو الأقران إلى التسابق في الأطماع . وإذا فرط متساهل في ملته فلن يجد منهم فيما بعد عونا » ؟! .. [٢٢]

وإذا كان الدكتور لويس لم يقرأ هذا الذي كتبه الأفغاني إدانة لـ « منشور العصيان » .. فلم لم يتأمل ما أورده هو ، في « دراسته » ، نقلا عن « بلنت » ، الذي ذكر أن جمال الدين قد وضع ــ في مفاوضاته مع الانجليز لإنقاذ « غوردون » المحاصر من قبل مهدي السودان في الخرطوم ، ولحل المشكل السوداني ــ قد وضع ضمن شروطه شرط « إعادة عرابي من المنفى إلى مصر [٢٣] ؟! .

ولكنه « التشكيك » ، الذي يغفل ــ بل ويتغافل ــ عن الحقائق ، حتى يصل إلى حد « الافتراء » ! ..

(جـ) فإذا ما تعلق الأمر بالمكانة العامة للأفغاني بمصر ، وبدوره القيادي في مجتمعها أثناء إقامته بها ، لم يتوان الدكتور لويس عن الاسراع للتهوين من شأن الرجل .. فهو يورد فقرات من التقرير الذي كتبه القنصل الانجليزي بمصر « السير فرانك لاسيلز » إلى وزير خارجيته اللورد سالسبوري ، في ٣١

---

(٢٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني] جـ ٢ ص ١٦٨ .

(٢٣) [القضاس] العدد ٢١ ص ٦٢ .

أغسطس سنة ١٨٧٩ م بخصوص نفى الأفغانى من مصر ، فنقرأ فيه ـ وصفا للأفغانى ـ هذه العبارات : « ... وجمال الدين ، فيما يبدو ، رجل ذو طاقة ضخمة وصولة كبيرة كخطيب . وقد استحوذ تدريجيا على قدر من التأثير فى سامعيه فكان مصدر خطر . وفى العام الماضى قام بدور إيجابى فى إلهاب الشعور المعادى ضد الأوربيين ، وبصفة خاصة ضد الانجليز ، الذين يحمل لهم كراهة عميقة .. إن جمال الدين سبق نفيه من وطنه ، ومن مدراس ، ومن مدينة الجزائر ، ومن استانبول على التعاقب . وقد حظر عليه الاقامة فى أى جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية... » .

تلك هى صورة الافغانى ، كما صورها القنصل الانجليزى .. وهى صورة القائد الذى يقود الأمة ، والذى يناصبه الاستعمار وتناصبه الرجعية العداء الشديد ، إلى الحد الذى جعلوا حياته نفيا وتشريدا دائمين .. ومع ذلك نجد الدكتور لويس يعقب على هذه الأقوال ـ لافض فوه .. ولاحرمنا من « أماناته » ـ فيقول : « ماذا نستخلص من كل هذه الأقوال ؟ نستخلص أن جمال الدين الأفغانى ، فى قمة نشاطه فى مصر سنة ١٨٧٩ م لم يكن علما من أعلام البلاد أو زعيما بارز المكانة فى الحياة المصرية .. »[٢٤] !؟...

تلك هى « الخلاصة » التى « استخلصها » الدكتور لويس من تقرير القنصل الانجليزى عن جمال الدين !..

(د) وحتى « الذمة المالية » للأفغانى لم تسلم من « تشكيك » الدكتور لويس !..

إن الذين عاصروا الأفغانى وعاشروه قد أجمعوا على أنه قد عاش « درويشا فقيرا » لا يقيم وزنا لعرض الدنيا ، حتى لقد عدل عن أن يصحب

---

(٢٤) [التضامن] العدد ١٠ ص ٥٥

معه رداء بديلا ، بعدما تكرر نفيه من بلد إلى بلد . فكان إذا خلقت ثيابه استبدلها بأخرى !.. وكتب الإمام محمد عبده عن هذا الجانب من حياته فقال : « .. وهو كريم يبذل مابيده .. عظيم الأمانة .. قليل الحرص على الدنيا . بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور . عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام لايهاب الموت كأنه لايعرفه !.. » .. ولقد قرأ الدكتور لويس هذا الوصف .. وأورده في « دراسته » .. ولكنه سلك ـ هنا أيضا ـ سبيل « التشكيك » في « الذمة المالية » للرجل .. فكتب يتساءل : « من أين للأفغاني بكل هذه النقود حتى يساعد كل هؤلاء المهاجرين الشوام على إصدار كل هذه الجرائد وتأسيس كل هذه المطابع ؟!.. » . ثم لا يلبث أن يقطع بأن « مصدر التمويل كان الباب العالي بصفة أساسية ، وفرنسا بصفة فرعية .. » .. وهو يقطع ويؤكد . استنتاجا ، ودونما دليل !.

ومن « الحق » و« الواجب » أن نسأل : هل أسس الأفغاني مطابع للصحف التي ساعد على إصدارها في مصر ؟.. إن صحيفة [مصر] صدرت من « دكان في حي باب الشعرية » الشعبي .. كما صدرت [العروة الوثقى] من غرفة على سطح المنزل رقم ٦ في شارع « مارسيل » بباريس .. ولم تكن هناك « المطابع التي تأسست » ، والتي يتحدث عنها الدكتور لويس .. والذي يزيد من غرابة « العقلية المباحثية » التي يتحدث بها الدكتور لويس عن « التمويل » للصحف الشعبية التي ساعد الأفغاني على صدورها .. أن الدكتور لويس قد عاش حقبة من التاريخ المصري ـ فيما قبل ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ـ كانت الصحف الشعبية تصدر فيها بالقروش التي يتبرع بها الفقراء .. ومع ذلك فعلت هذه الصحف مالم تفعله صحافة المطابع والمؤسسات .. فلم هذا الغبار المثار في غير موضع ، وبلاسبب من الأسباب ؟!

ثم .. إن الجميع يعلم . علم اليقين . أن افتراق محمد عبده عن الأفغانى فى سنة ١٨٨٥ ــ بعد توقف [العروة الوثقى] ، قد كان لاختلاف تصور كل منهما « لسبيل » تحقيق الأهداف المتفق عليها .. والدكتور لويس يسلم « بالطابع الفكرى » للخلاف بين الرجلين ، ويقول : « .. نحن نعلم . على وجه اليقين . ان خلافا نشب بين الأفغانى ومحمد عبده فى أواخر فترة « العروة الوثقى » . وهو خلاف ذو طابع فكرى . لأنه خلاف بين منهجين . منهج المفكر محمد عبده . ومنهج السياسى الأفغانى . كلاهما أراد تجديد شباب الاسلام وتحرير العالم الاسلامى . ولكن على طريقته .. »[٢٥]

لكن الدكتور لويس لا يمهلنا كى نهنأ بهذا التقويم الموضوعى لخلاف محمد عبده مع الأفغانى .. فيسرع ــ وفى ذات الصفحة من « دراسته » ــ ليتساءل عن السبب ــ الذى سبق وقطع . بيقين ، أنه فكرى ــ يتساءل . متشككا ــ : « هل كان بسبب خلاف على المال » ؟! .. ثم لا يتورع عن أن يمضى ليقول : « إن كل الأموال كانت تصب فى جيب الأفغانى ، وهو يتولى الإنفاق » .. وينسب إلى أعضاء [جمعية العروة الوثقى] التونسيين ماله يقولوه .. وينسب إلى محمد عبده مالم يقله .. كل ذلك « للتشكيك » فى « ذمة الأفغانى المالية » ! .. فيقول : « لعل ــ [لاحظ معنى « لعل » !] ــ التونسيين قبضوا المعونة عن محمد عبده ــ عندما زارهم ــ لأنهم كانوا يعلمون أن الأفغانى تنق مافيه الكفاية وأكثر . من يعرف ؟ ــ [لاحظ الاعتراف بأن لا أحد يعرف !] ــ لعلهم ــ [لاحظ معنى « لعلهم » !] ــ قالوا أشياء لمحمد عبده أبت عفته أن يتكلم فيها .. » ؟! ..

إن التونسيين لم يقولوا شيئا ضد الأفغانى .. ومحمد عبده لم يذكر إلا

---

(٢٥) أصل « الدراسة » ص ١٨٨ .

ماذكر عن أمانة الأفغانى وكرمه وقلة حرصه على الدنيا ـ وهو كلام كتبه فى التقديم لترجمة [الرد على الدهريين] عندما أقام فى بيروت ـ بعد فراقه للأفغانى ؟! ـ والدكتور لويس يقول إنه « لا أحد يعرف » شيئا عن هذه الأمور.. ومع ذلك يمعن فى « التشكيك » . مستخدما أدوات « هل » و« لعل » و« لعلهم » ، على نحو غريب ؟!..

وإذا ما قرأ فى تقارير الجواسيس الانجليز ـ التى يسميها « وثائق » ـ كلاما عن أموال تلقاها الأفغانى من بعض الشخصيات مثل خير الدين التونسى ، والجنرال حسين باشا ، لم يكلف نفسه البحث ليعرف أن هذه الشخصيات كانوا أعضاء فى [جمعية العروة الوثقى] يؤدون لها « الاشتراك » المالى . وإنما تراه متلهفا على اتهام الأفغانى بجمع الأموال ، لتصب فى جيبه ، وليتولى وحده الانفاق ؟!..

تلك نماذج ـ مجرد نماذج ـ من « التشكيك » الذى امتلأت به « دراسة » الدكتور لويس عن جمال الدين الأفغانى !

* * *

٤ ـ أما فيما يتعلق « بالافتراءات » التى اجتهد الدكتور لويس كى يلصقها بفكر الأفغانى وعقيدته وأسلوب حياته.. فلقد تناثر منها فى صفحات « دراسته » الكثير من النماذج ، حتى لقد نافست فى العدد نماذج « التشكيك » !..

● لقد سبق وأوردنا قول محمد عبده عن الأفغانى : « .. إنه أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه.. وله حمية دينية لايساويه فيها أحد.. يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله.. » .. وقول « بلنت » عنه : « .. إن كل مافيه آسيوى ، وليس من السهل تأثيره للعادات الأوربية » ..

لكن الدكتور لويس يتوكأ على « قصاصة ورق » كتبها جاسوس انجليزى عن من وصفه « بالسيد الرومى » ، فيفترى على الأفغانى تهمة « التفرنج فى الفكر والسلوك » .. كما يستند إلى إحدى الشهادات التى جمعها الشاه الايرانى ، المعادى لجمال الدين ، والتى تتحدث عن « إفطاره علنا فى نهار رمضان » أيام إقامته فى النجف العراقية .. ![26] ..

والغريب فى الأمر هو أن الدكتور لويس لايكتفى بتزكية « الرواية » والأكذوبة التى اخترعها من زعموا قرابتهم للأفغانى ، من أهل « أسد آباد » الايرانية .. بل مضى فحمل افتراءاتهم فوق ماحملوها ؟!:

فإذا قال قائلهم إن سبب رحيل جمال الدين من « أسد آباد » إلى « قزوين » ـ وهو فى العاشرة من عمره ـ « أن فتنة نشبت بين (السادة) هناك » .. « وأنه قد شاع فى النجف ـ فيما بعد أثناء إقامته بها ـ أن الفتى جمال الدين هو المهدى المنتظر .. رغم إنكار جمال الدين لهذا الذى شاع عنه .. » .

إذا قال قائلهم ذلك ، لم يكتف الدكتور لويس بالتزكية والتصديق .. وإنما تطوع بالزيادات والاضافات .. فمرجعه يقول إن جمال الدين كان ينفى أسطورة أو « إشاعة » المهدية المنسوبة إليه .. لكن الدكتور لويس يقول : « **ولاشك** ـ [لاحظ مغزى استخدام « ولاشك » !] ـ أن جمال الدين بأقواله وأفعاله ، صراحة أو بالايحاء ، بالخداع أو بالايمان ، كان يغذى هذه الأساطير التى كانت تنسج من حوله .. » ! .. ثم يتطوع ليرجح أن هذه الأساطير هى سبب الفتنة التى حدثت من قبل فى « أسد آباد » .. فهو يجعل لأسطورة « النجف » تأثيرا ، بأثر رجعى ، فى مرحلة « أسد آباد » ؟! .. ثم هو لا يطلب من نفسه القليل من الاتساق فى التفكير .. فمن يشيع حول نفسه

---

(٢٦) [التضامن] العدد ٦ ص ٧٠ .

أسطورة المهدية .. ومن يغدي الزعم بأنه « يوحى إليه بأنه المهدى المنتظر » . هل يليق به ، وهل يدعم من مسعاه هذا ـ فى بيئة محافظة فى تدينها كالنجف ـ « عدم الاهتمام بالمحافظة على شعائر الدين .. والافطار علنا فى رمضان ؟! »[٢٧] !..

لقد كنا ننتظر من الدكتور لويس أن يقف من هذه « الشهادات » التى ضمها كتاب [جمال الدين الأسد آبادى] ـ والذى سبق لنا الحديث عن قيمته ـ أن يقف منها موقف الناقد ، المتمثل للحكمة الشعبية المأثورة : « إذا كان المتحدث مجنونا فليكن السامع عاقلا » !.. لكن الدكتور لويس ـ مع الأسف ـ لم يصنع ذلك .. بل لقد أضاف ، من عنده ، المخترعات والاستنتاجات التى زادت الطين بلة بتدعيمها لهذه الافتراءات !..

● كان الأفغانى « فيلسوفا ـ متصوفا » و« درويشا ـ [فقيرا] ـ زاهدا » .. لكن الدكتور لويس عوضا إمعانا منه فى « الافتراء » على الرجل ـ ولزيادة حرصه على إهالة التراب والوحل على الرمز الأسطورى الذى ارتاد للأمة طريق البعث الإسلامى فى عصرها الحديث ـ قد أراد أن يقدم لقرائه جمال الدين الأفغانى « سكيرا » ؟!.. وفى سبيل بلوغ هذه الغاية لم يكتف الدكتور لويس بالافتراء على جمال الدين ، بل لقد افترى على الذين أرخوا له أيضا !.. فكتب فى دراسته يقول : « .. أما تردد الأفغانى على القهاوى **والبارات** فيشهد به محمد عبده وسليم العنحورى .. »[٢٨] !

فهل ، حقا ، شهد محمد عبده وسليم العنحورى بتردد الأفغانى على

---

(٢٧) [التضامن] العدد ٢ ص ٦٩ .

(٢٨) [التضامن] العدد ٦ ص ٧٠

« البارات » ـ [بصيغة الجمع .. أى أن الأمر لم يقف عند « التردد » على بار واحد] ـ ؟! .. لننظر ..

إن عبارة محمد عبده التى تتحدث عن الأماكن التى كان الأفغانى يستطيب التنزه فيها والجلوس بها ، وعقد مجالسه بين ربوعها ، تشير إلى جلوسه فى المتنزهات العامة ، وفى « المقهى » الحديث الذى يماثل ـ فى عصره ـ « الكازينو » ـ فى عصرنا الحالى ـ وهى أماكن لم يكن مألوفا ـ فى ذلك العصر ـ من الشيوخ والعلماء ارتيادها .. وليس فى عبارة محمد عبده ، مازعمه الدكتور لويس ، من تردد الأفغانى على « البارات » .. يقول الأستاذ الإمام : « وكان ـ [الأفغانى] ـ يتوسع فى إتيان بعض المباحات ، كالجلوس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار ، وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية ، فكان بعيدا من اللغو منزها عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء ـ [ضباط الجيش] ـ وأرباب المقامات العالية وأهل العلم .. » .

ثم يمضى الأستاذ الإمام ليرد نقد الناقدين ذهاب الأفغانى إلى هذه المتنزهات العامة فيقول : « وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه ، لكن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، وأى غضاضة على المرء أن يفرج بعض غمة بما أباح الله له ؟! .. [٢٩] » .

أما سليم العنحورى ، فهو وإن سمى المكان الذى كان يجلس فيه الأفغانى ، ويعقد به منتداه : « ملهى » ، إلا أنه يحدد صراحة أن هذا « الملهى » هو بالتحديد « قهوة متاتيا » المجاورة لمبنى « البريد » ـ

(٢٩) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣٥٣

[البوسطة] ـ بميدان العتبة الخضراء ، بالقاهرة ، يقول المنحورى عن مجلس جمال الدين : « وكان مجلس علمه فى « ملهى » ، قرب الأزبكية .. يدعى (قهوة البوسطة) .. » [٣٠]

فهو « مجلس علم » ـ كما قال المنحورى ـ .. وهو المنتدى الذى كان يتحلق حول الأفغانى فيه طليعة المجتمع المصرى من المدنيين والعسكريين الذين جددوا حياة الأمة الفكرية والعملية ، وارتادوا بالشرق ميدان الثورة للمرة الأولى فى العصر الحديث .. إنه المكان الذى تكون فيه قادة من أمثال محمد عبده والبارودى وعرابى والنديم وسعد زغلول .. الخ .. الخ .. الخ .. لكنه ـ بمقاييس افتراء الدكتور لويس ـ « بار » .. بل و « بارات » !؟ ..

● وتتعدد الافتراءات التى يقذف بها الدكتور لويس كل من وقف عند الحقيقة فى تأريخه لحياة جمال الدين .. وفى مقدمتهم الأستاذ الإمام !..

فإذا ذكر محمد عبده حقيقة أن الأفغانى لم يدرس بالأزهر ، وأنه لم يذهب إليه إلا مصليا أو زائرا ، وأن مجلس علمه كان فى منزله .. لم يعجب ذلك الدكتور لويس ، ورأيناه يسلك لنقض هذا القول سبيلا توقعه فى أخطاء لايقع فيها بصير بكتابة التاريخ ؟! .. إنه يقول : « وربما كان اهتمام محمد عبده بإبراز أن الأفغانى لم يدرّس بتاتا فى الأزهر جاء من الأفغانى نفسه ، من حيث حرصه على إخفاء صداماته مع علماء الأزهر ، حتى لايخيف تلاميذه من المجاورين [٣١] » ..

---

(٣٠) [تاريخ الأستاذ الإمام] جـ ١ ص ٤٤ .

(٣١) [التضامن] العدد ٦ ص ٧٠ .

.. فى رأيه أن محمد عبده يكذب ــ تبعا لكذب الأفغانى ــ عندما ينفى تدريس الأفغانى بالأزهر ، كى لايبرر صداماته مع شيوخ الأزهر ، فيخاف منه المجاورون فلا يقبلون على دروسه ؟!

ولو كان الدكتور لويس عوض يحترم عقول قرائه لاحترم الحقيقة ولما سود الصفحات بمثل هذا « الكلام » !.. فلو كانت للأفغانى صدامات مع شيوخ الأزهر، عندما كان يدرس فيه ، لعلمها المجاورون ــ [من طلاب الأزهر] ــ ولما أفلح محمد عبده فى إخفائها عنهم ، لأنهم مثله شهود عيان ؟!.. ثم ــ وهذا هو الأهم ــ إن محمد عبده قد كتب هذا الذى كتبه عن الأفغانى فى تقديمه لرسالة [الرد على الدهريين] ، وهو منفى ، ببيروت سنة ١٨٦٦ م ، وكان الأفغانى فى باريس .. فأين كان الأفغانى ، يومئذ ، من مصر ومن الأزهر ومن المجاورين ، حتى يكذب محمد عبده ، فيخفى تدريس الأفغانى بالأزهر وصداماته مع شيوخه كى يطمئن له المجاورون فيتتلمذون على يديه ؟!..

أهذا كلام ياعزيزنا الدكتور لويس ؟! ...... على كل حال فنحن نحمد الله على أن هذا هو مبلغ جهدك فى دعم مارميت به الأفغانى من « الافتراءات » !.. وعلى قارئ « دراستك » أن يقيس مالم نشر إليه على ماأشرنا إليه فى هذه الصفحات

* * *

ولقد زاد الطين بلة ، وأسهم فى إشاعة الأخطاء الصارخة وغير اللائقة فى « دراسة » الدكتور لويس : قلة بضاعة الرجل العلمية بالميدان الذى تصدى « للإفتاء » فيه ! لقد دخل ميدان التاريخ ، دون أن يمتلك أيا من أدواته .. بل واختار التاريخ للبعث الاسلامى وحركة الاصلاح الإسلامية بالذات ؟!..

والناظر في كتبه الدكتور لويس يرى أخطاء تحدد قيمة بضاعته العلمية في هذا الميدان :

● فالرجل الذى دفع إلى المكتبة العربية كتابا ، يحمل اسمه : في « فقه اللغة العربية » .. هذا « العالم اللغوى » عندما ينسب إلى « المهدى » يقول « المهدوية »[٣٢] ولا يقول « المهدية » ؟ ! !

● وهو يزعم أن جمال الدين الأفغانى قد قال عبارة : « ... والشيعة يقولون انى نصيبى » .. فلا يستطيع تمييز الخطأ ، لأن صحة الكلمة « ناصبى » ؟! .. وبدلا من أن يسأل أهل الذكر عن معنى الكلمة ، فيصححها ، يتطوع ليفتى ويفسر . فإذا « بعلمه الغزير » يثير الضحك والرثاء ! .. لقد فتح « قوسا » ليفسر كلمة « نصيبى » فقال : (من معركة نصيبين ، أى من أعداء على) بن أبى طالب ؟! .. والرجل لا يدرى أن الإشارة إنما هى إلى فرقة « النواصب » ، الذين ناصبوا على بن أبى طالب وبنيه العداء .. وأن المفرد منها « ناصب » ، والنسبة إليها « ناصبى » .. أما معركة « نصيبين » فلا علاقة لها بالموضوع ــ اللهم إلا أن تكون علاقتها به مثل علاقة الدكتور لويس بالموضوع الذى تصدى للكتابة فيه ؟! ــ « فنصيبين » مدينة بالشام فتحت فى زمن عمر بن الخطاب ! ..

● ونحن نعذر الدكتور لويس إذا لم يميز بين الآية القرآنية وبين الحديث النبوى الشريف .. لكنه إذا جاء فتحدث عن خطاب ، ثم زعم أن الأفغانى هو كاتبه .. ثم وجدنا الخطاب يتحدث عن الآية القرآنية [إنما المؤمنون إخوة] ــ الحجرات : ١٠ ــ على أنها « حديث »[٣٣] » .. كان من حقنا أن

---

(٣٢) [المصادر] العدد ٣ ، ص ٦٩

(٣٣) أصل « الدراسة » ص ٩٩

نقول : إن هذا جهل إن جاز لغير الأفغانى فلا يجوز لإمام كجمال الدين ؟!.

فهل مثل الأفغانى من لا يميز بين الآية وبين الحديث ؟!.. وهل يليق « بمؤرخ » ـ ينظر فى نصوص مصادره نظرة نقدية ـ ألا يكتشف زيف نسبة مثل هذا النص إلى مثل الأفغانى ؟!.. وأيضا ـ فكاتب الخطاب يتحدث عن نفسه فيقول : « إن كاتب هذا الخطاب رجل وضيع المقام لا أهمية له .. »[٣٤] ؟!.. فهل مثل الأفغانى من يقول هذا عن نفسه .. وهو الذى هابته الملوك والقياصرة .. حتى لقد انزعج منه السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ ـ ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨ م] عندما طلب منه وقف الهجوم على الشاه الايرانى ناصر الدين [١٢٤٦ ـ ١٣١٣ هـ ١٨٣١ ـ ١٨٩٦ م] فجاءت استجابته فى عبارة : « الآن .. عفوت عن الشاه » !

إن الدكتور يكثر من الحديث عن « عنجهية » الأفغانى .. ويتحدث عن « عناده الذى جعله يرفض التبعية للباب العالى .. وأقصى مايتصوره هو حالة من « التعايش » بينه وبين السلطان »[٣٥] .. فهل يليق بمن هذا مقامه .. ومن هذه مكانته ، أن يكتب لمن هو دون السلطان فيقول عن نفسه : « إنه رجل وضيع المقام .. لا أهمية له » ؟!..

أين العلم بنقد النصوص .. أخص خصائص من يتصدى لكتابة التاريخ ؟!..

● كذلك فنحن لا نعذر الدكتور لويس عندما لايكلف نفسه مؤنة النظر فى « أطلس جغرافية » البلاد التى يتحدث عنها .. ففى معرض افترائه على

---

(٣٤) أصل « الدراسة » ص ١٠٢

(٣٥) أصل « الدراسة » ص ٢٢٤

الأفغانى ، والتدليل على إيرانيته ، يسوق حكاية وعده لأمه ، وهو صغير ، بأن يجعلها حاكمة على خراسان !..

وإذا صرفنا النظر عن الوقوف عند ألفاظ السخرية التى صبها الدكتور لويس على الأفغانى ، بسبب هذه الحكاية المزعومة ، فإننا نسأله :

لم لم يسأل نفسه ــ من باب نقد النص ــ : هل من المألوف فى البيئة الشيعية المحافظة مثل إيران ــ أن تكون المرأة حاكمة لخراسان ؟!

ثم .. إن خراسان ــ ياعزيزنا الدكتور لويس ــ ليست فى إيران ــ حتى نستدل بذلك على إيرانية الأفغانى .. وإنما هى فى أفغانستان ، ولو نظرت فى معاجم البلدان القديمة ــ بل وفى [القاموس الاسلامى] للأستاذ أحمد عطية الله ــ لعلمت أنها « اسم تاريخى **يطلق على مايعرف اليوم ، بصفة عامة ، باسم أفغانستان** ، وهو يطلق ، بصفة عامة ، على الاقليم الذى يحده فى الشمال نهر جيحون ، وفى الشرق حوض السند ، ومن الغرب إقليم فارس ، ويضم من المدن الشهيرة : كابل وغزنة وقندهار وترندوجوين وقارات ونساوبيورد وسرخس ... » !..

● كذلك لا عذر للدكتور لويس عندما يتطوع بالافتاء فيقع فيما لا يليق من الأخطاء .. فهو ينقل عن « بلنت » أن « السيد أمير على » كان يتزعم ــ فى كلكتا ــ بالهند ــ « طائفة مثقفة مجددة ، تدعو للأخذ بالحضارة الغربية .. » .. فزاد بذكر اسم الرجل « الأمير على » بزيادة « أل » ــ لكن هذا لايهم .. وإنما المهم **أنه يتطوع بالتفسير فيفتح قوسا ليقول لنا : إن السيد الأمير على (هو السيد أحمد خان)** [36] .. **ولو رجع الدكتور لويس إلى أى قاموس للأعلام ، أو إلى كتاب [زعماء الاصلاح فى العصر الحديث]**

---

(٣٦) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦ .

للأستاذ أحمد أمين . لعلم أن أحمد خان [١٢٣٣ - ١٣١٦ هـ ١٨١٧ - ١٨٩٨ م] غير السيد أمير على [١٢٦٥ - ١٣٤٧ هـ ١٨٤٩ - ١٩٢٨ م] .. ولعلم أن الأول كان ينهج للاصلاح طريق التربية والتعليم فقط . على حين أضاف الثانى إلى نهجه خطة سياسية تعالج مشكلات المسلمين !..

● وفى موطن آخر يستعين الدكتور لويس « بقلة العلم » على تشويه صورة جمال الدين الأفغانى !..

فحتى يلصق به تهمة التعاون مع الانجليز . فى مصر . سنة ١٨٧٨ م . إبان الصراع بينهم وبين الخديوى اسماعيل . يقول « إنهم نصحوا بانتخابه رئيسا لمحفل « كوكب الشرق » . الذى كان فرعا من المحفل الماسونى فى انجلترا سنة ١٨٧٨ م » ثم يتحدث عن « طردهم » له من هذا المحفل بعد هذا التاريخ . عندما وقع بينهما الخلاف . وانتهت « فترة التعاون الكامل » بينهما [٣٧] . كما يقول !..

ولو رجع الدكتور لويس إلى أى مرجع محترم من المراجع التى تؤرخ للماسونية . لعلم أن المحفل الذى انتخب الأفغانى رئيسا له سنة ١٨٧٨ م - إبان صراع الانجليز ضد الخديوى اسماعيل - وهو محفل « كوكب الشرق » - لم يكن هو التابع للمحفل الانجليزى .. بل كان تابعا للمحفل الفرنسى [٣٨] .. فهو المحفل الذى أنشأه الأفغانى . كموقف ضد المحفل التابع للانجليز .. وهو الذى يسميه سليم العنحورى « جمعية (الماسون) العربية » ! [٣٩] .. فلم يكن الأفغانى متعاونا مع الانجليز . لا يومئذ .

---

(٣٧) [التضامن] العدد ١ ص ٥٦ .

(٣٨) صابر طعيمة [الماسونية ذلك العالم المجهول] ص ١٢٨ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

(٣٩) [تاريخ الأستاذ الإمام] جـ ١ ص ٤٦ .

ولاقبل ذلك ولا بعده . فلقد كانت كراهية استعمارهم طبعا من طباعه لازمه حتى انتقل إلى رحاب الله !..

ثم . إن الانجليز ليسوا هم الذين « طردوا » الأفغانى من المحفل الذى كان يتبع محفلهم .. وإنما الرجل هو الذى استقال . عندما اكتشف جبن هذا المحفل عن التصدى للاستعمار وللاستبداد . وعندما تبينت له علاقة هذا المحفل - ولو بالصمت والمسايرة - بمخطط الانجليز فى مصر . وخير دليل على صدق هذا الذى نقول كلمته التى أدان فيها ماسونية ذلك المحفل . والتى استقال منه بعد إلقائها .. لقد قال فيها : « أول ما شوقنى للعمل فى بناية الاحرار ، عنوان كبير خطير : [حرية ، مساواة ، إخاء] . غرض : [منفعة الانسان ، سعى وراء دك صروح الظلم ، تشييد معالم العدل المطلق] .. فحصل لى من كل هذا وصف للماسونية ، وهو : همة للعمل ، وعزة نفس وشمم ، واحتقار للحياة فى سبيل مقاومة من ظلم .

كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين اسطوانتى المحافل الماسونية ؟!.

إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم ، ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولاقامت لبنايتهم زاوية قائمة !..

يؤلمنى أننى للآن ماعرفت لنفسى ، بصفتى ماسونيا ، ولا لمطلق الماسونية تعريفا يجعل لها صورة فى الذهن ووصفا ينطبق على من ينخرط فى تلك العشيرة !.. ماسونيتكم ، أيها الإخوان ، اليوم لاتتجاوز : « كبس أعمال . وقبول أخ » ، يتلى عليه من أساطير الأولين مايمل ويخل فى عقيدة الداخل ، ويسقط مكانة الماسونية فى عينيه .. فالماسونية ، على شكلها هذا ،

وتقاليدها . ليست فقط قديمة المهد . بل هي لاتزال في المهد . ولسوف - إذا أصرت وأصر أبناؤها على الوقوف عند حدود رموز أكثرنا لايفقه مغزاها ولا المراد من وضعها - أنها ستختنق في المهد ولاتدرج منه [٤٠] ! .. »

تلك هي قصة الأفغاني مع الماسونية .. إنها صفحة من صفحات صراعه ضد الاستعمار . والاستعمار الانجليزي على وجه الخصوص .. وليست إطارا تعاون فيه الأفغاني مع الانجليز . كما ادعى الدكتور لويس ! ..

لكنها « قلة المعلومات » بميدان البحث وطبيعة مادته ومصطلحاته . عندما أضيفت إلى « الغرض الثأري الميت » . الذي حرك الدكتور لويس للافتراء على الأفغاني والتشكيك في حقائق حياته ونضاله وفكره .. أثمر كل ذلك مابلغته هذه « الدراسة » من مستوى في الشذوذ قل أن يكون له نظير ! ..

---

(٤٠) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٥٢٦

هل كان الأفغانى ملحدا .. وزنديقا ؟ !

من كان يتصور أن الدكتور لويس عوض « العلمانى » ، الذى يكثر من الحديث عن المذهب الانسانى ـ « الهيومانزم » ـ والمعادى للإحياء الدينى ، والذى ترتعد فرائصه من التطرف والغلو الدينى .. من كان يتصوره مستخدما لسلاح « التكفير » ، يحكم على عقيدة جمال الدين الأفغانى بالتجديف والزندقة والإلحاد . وكأنه أحد غلاة جماعات التكفير فى العصر الذى نعيش فيه ؟ ! .

صورة مأساوية .. لكنها وقعت فى « دراسته » عن جمال الدين ! ..

ولقد يحار المرء فى تفسير هذا الغلو « غير المألوف » من الدكتور لويس .. هل انتابته نوبة من « الكهنوت المسيحى » فنهض كى يعيد تمثيل مشاهد قرارات « الحرمان » التى كانت تصدرها الكنيسة قديما ضد أحرار المفكرين ؟ ! .. لا أعتقد .. فالرجل منسوب إلى الكنيسة القبطية ، التى لم يشتهر فى تاريخها هذا التجاوز والعدوان على ضمائر المؤمنين وعقائدهم .

وأغلب الظن أن عداء الدكتور لويس لرمز الإحياء الإسلامى والاستقلال الحضارى عن الغرب : جمال الدين الأفغانى ، هو الذى دفعه إلى هذا « الخروج » العصرى ، الذى جعله يحارب بكل سلاح ، حتى ولو كان محرما إسلاميا ، وممنوع الاستخدام من قبل كل المستنيرين والانسانيين !

لقد سبقت إشارتنا إلى نماذج من « التشكيك » و « الافتراء » التى أصابت سيرة الأفغانى وفكره فى « دراسة » الدكتور لويس .. والآن نقف لننظر فى قمة هذا « الافتراء » .. عندما أباح الدكتور لويس لقلمه أن يحكم على « العقيدة الدينية » للأفغانى .. فيقول : « **إنه غير متدين** » .. **بل** « **مجدف** » .. و « **ملحد** » .. و « **زنديق** » ؟ ! ..

فى « دراسة » الدكتور لويس — وحتى عندما عرض لـ « تدين » الأفغانى و « عقيدته الدينية » لانجد أية إشارة إلى كتابات الأفغانى الدينية .. و « الكلامية » منها و « الصوفية » على وجه الخصوص .. وبديهى أن من يكتب عن عقيدة إمام كجمال الدين . لابد وأن يرجع لما كتبه الرجل فى « العقيدة » .. من مثل [تعليقاته على شرح الدوانى للعقائد العضدية] و [رسالة الواردات فى سر التجليات] وماكتبه عن [القضاء والقدر] .. الخ .. الخ ..

ونحن لاندرى .. هل قرأ الدكتور لويس هذا الجانب من أعمال الأفغانى الفكرية .. أم لا ؟ .. قد يكون قرأه .. ولم يجد سبيلا لفقهه .. بحكم تكوينه الدينى وقدراته الفكرية المحكومة بتخصصه الأكاديمى البعيد كل البعد عن هذا الميدان ! .. المهم **أننا لانجد أثرا لأعمال الأفغانى « العقيدية » فيما كتبه الدكتور لويس عن « عقيدته » .. وهذا خلل منهجى يسقط أحكام الدكتور لويس من الأساس ! ..**

لقد وقف الدكتور لويس ، فى « دراسته » عن الأفغانى عند حدود الأوراق والكتب التى جمعها له الذين استضافوه فى جامعة « لوس أنجليس » .. وما جمعوه له من كتابات الأفغانى ذات العلاقة بالعقيدة : ترجمة الخضيرية لرسالة [الرد على الدهريين] و [المقالات الجمالية] التى كتبها بالهند عندما نفى إليها فى مطلع ثمانينات القرن الماضى .. وكلا

المصدرين من الكتابات « الجمهورية » . التى تعالج الجوانب السياسية والاجتماعية والحضارية ، ولاتغوص غوص المتخصص فى ميدان العقيدة الدينية عندما يكتب للمتخصصين !

ومع ذلك .. فلننظر لنرى كيف تعامل الدكتور لويس مع فكر الأفغانى ، الذى اطلع عليه ، ورجع إليه فى هذا الموضوع ..

لقد كتب الأفغانى رسالة [الرد على الدهريين] لتكون سلاحا فى الصراع ضد طائفة من مسلمى الهند ، يمكن أن نسميهم بـ « المتغربين » الذين تهادنوامع الاستعمار الانجليزى هناك .. فهم قد تغربوا فى الحضارة والفكر والسلوك ، ووقفوا عند « التنوير » بعضاميته الغربية ، وتقاعسوا بالتالى عن مهام الوطنية والنضال ضد الاستعمار .. ولذلك ، فلقد تميزت هذه الرسالة بميزتين رئيسيتين :

الأولى : حدتها وعنفها .. لأنها حملت روح الثورة العنيفة التى حكمت موقف الأفغانى إزاء الاستعمار ..

والثانية : التركيز على « العائد » و « المردود » الاجتماعى والسياسى والثقافى ، الذى يصيب الأمة إن هى استمسكت بالإسلام كهوية حضارية تميزها عن الحضارة الغربية الغازية .. **فحديث [الرد على الدهريين] عن الإسلام هو حديث عن « البديل الحضارى » الإسلامى لحضارة الغرب المادية العدوانية الاستعلائية .. وليس حديثا عن الإسلام كدين مجرد ، بعقائده وأركانه .. لأن [الرد على الدهريين] ليست ، فى الأساس ، كتابا من كتب « علم الكلام » ، الذى هو « فلسفة الإسلام » ! ..**

أما الدكتور لويس ، فإنه ــ بعد أن أهمل كتابات الأفغانى « الكلامية »

و « الصوفية » ـ والتي منها يجب أن يستقي الدارس الأمين عقيدته ومذهبه الديني ـ قد اعتبر رسالة [الرد على الدهريين] هي التجسيد الفكري لحقيقة عقيدة جمال الدين .. فقال : « ... أما من هو الأفغاني الحقيقي فهو في « الرد على الدهريين » : فهو كتابه الخطير ... »[1] .

لقد قرأ [الرد على الدهريين] فوجدها تتحدث عن « العائد » السياسي والاجتماعي والحضاري للإسلام الديني .. فبدلا من أن يلتمس فكر الأفغاني عن الدين ، كعقيدة مجردة ، وأصول وقواعد وأركان وضعها الشارع سبحانه وتعالى .. بدلا من أن يلتمس هذا من مواضعه في أعمال الأفغاني الفكرية ، أباح لنفسه ولقلمه أن يستبيح عقيدة الأفغاني ، فيحكم عليه بالتجديف والزندقة والإلحاد ، بدعوى أن الدين عنده ليس حقيقة موضوعية ، وإنما هو مجرد مؤسسة اجتماعية ضرورية لتنظيم حياة الجهلة من الناس .. فعنده « أن **الأفغاني ـ في [الرد على الدهريين] ـ لم يكن مهتما بإثبات صحة العقيدة الدينية بقدر ما كان مهتما بإثبات نفعها للوجود الاجتماعي والسياسي**»[2] .. لقد رفض الأفغاني المدرسة المادية في كتابه [الرد على الدهريين] ، ورفض موقف المدرسة المثالية في مقاله [شرح أحوال الأغوريين] .. ولكن الأفغاني في رفضه للفلسفة المثالية بدلا من أن يعتصم بالفهم التقليدي ، أو بالعقل العام في فهم الدين ، أسس رفضه للمثالية على رأي لا يقل تجديفا عن رأي المثاليين الأوربيين من الرومانسيين والمتصوفة وأصحاب العقل المتجاوز أو الحقيقة المتجاوزة .. أسسه على أن زعزعة إيمان المسلمين بالمعجزات وبالعقاب والثواب في الدار الآخرة ، وهم « في حال ضعفهم وشقائهم الراهنة » كفيلة بأن تجعلهم

---

(١) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٥

(٢) [التضامن] العدد ١٧ ص ٦٧ .

يتخلون عن المقاومة القومية وينضمون إلى معسكر مستعمريهم ، بل وربما فرطوا فى دينهم واعتنقوا دين جلاديهم . ومعنى هذا بصراحة أن الأفغانى لم يكن ينظر إلى « المعجزات » وإلى « اليوم الآخر » على أنها مقولات دينية حقيقية .. وإنما هى عنده مجرد معتقدات نافعة لحفظ المجتمعات وصيانة الروح القومية فيها .. ومن هنا وجب النظر إلى الدين لا على أنه مجموعة من الحقائق الفكرية والروحية ، ولكن على أنه مؤسسة اجتماعية وقومية ... هذا هو جوهر رسالة الأفغانى فى [الرد على الدهريين] ... فالحق ، عند الأفغانى ، هو ما يبنى المجتمع والباطل هو ما يقوضه . ولا داعى بعد ذلك للبحث فى الميتافيزيقا ! [3] .. إن الأفغانى لم يكن متدينا بالمعنى المفهوم . ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء الامبراطوريات ... [4] » ؟ ! ...

ذلك جانب من جوانب التجنى الصارخ الذى مارسه الدكتور لويس فى حديثه عن العقيدة الدينية لجمال الدين الأفغانى ..

وهنا نسأل : هل إذا حدثنا رجل عن « فوائد ظل الشجرة » كان هذا الرجل ، بالضرورة ، منكرا لأصل الشجرة ، كحقيقة موضوعية ؟ ! .. وهل استمتاع الإنسان « بالثمرة » يعنى جحوده بالشجرة التى أثمرت هذه الثمرة ؟ ! .. وهل إذا تحدث الأفغانى عن العائد السياسى والحضارى والقومى للإسلام ، بالنسبة للمسلمين فى صراعهم ضد الحضارة الغربية التى جاءت فاقتحمت عليهم ديارهم وجاهدت لطمس معالم شخصيتهم القومية وتشويه ذاتيتهم الحضارية ... هل إذا تحدث الأفغانى عن هذا الجانب من الإسلام ، كان ، بالضرورة ، منكرا للدين

(٣) [التضامن] العدد ١٧ ص ٦٤

(٤) [التضامن] العدد ٣ ص ٧٠

كحقيقة موضوعية مجردة ؟ !

إن تناول الإسلام ، كوضع إلهي ، والحديث عن عقائده ، كحقائق موضوعية ، والبحث الميتافيزيقي في هذه المقولات الدينية ، قد سبق للأفغاني وأوفاها حقها قبل أن يكتب [الرد على الدهريين] بعشر سنوات ، ففي مصر كانت له « أمالي » في علم الكلام الإسلامي تضعه في مصاف كبار فلاسفة الإسلام ! .. فهل إذا تحدث عن الإسلام الحضاري والسياسي والاجتماعي ، في [الرد على الدهريين] ، يكون منكرا للإسلام « الدين » ؟ ! .. أم أن الدكتور لويس كان يود للأفغاني أن يقف عند حدود « المباحث الكلامية » و « الصوفية » .. ثم يدع دنيا المسلمين وسياستهم وقوميتهم وحضارتهم فريسة سهلة للحضارة الغربية ، فلايشهر في وجه « التغريب » الهوية الإسلامية للذين تدينوا بالإسلام ؟ ! ..

أعتقد أن هذا هو السبب الأساسي لتحامل الدكتور لويس .. فما يهمه ليس « تدين » الأفغاني ، الذي يضمن له الجنة يوم الحشر الأكبر ! .. وإنما الذي يهمه أن لا يقف الإسلام الحضاري والثقافي والسياسي والاجتماعي في وجه الحضارة الغربية التي يدين لها بالولاء ؟ !

* * *

إن الدكتور لويس مولع بتجزئة الأفغاني إلى مراحل .. مصرية .. وهندية .. وعروة وثقى .. وتركية .. الخ .. ولذلك ، فنحن مجاراة لمنهجه ، سنقف أمام تقويمه لعقيدة الأفغاني في « المرحلة الهندية » ، لنرى رأينا في هذا التقويم ، قبل أن نعرض لفكر الأفغاني الديني ، والذي ينقض اتهامات الدكتور لويس من الأساس .

لقد رأينا تقويم الدكتور لويس لرسالة [الرد على الدهريين] ، التي

رآها الممثلة لحقيقة الأفغانى .. ورأينا حكمه على الأفغانى ، من خلالها وبسببها ، بأنه « ملحد » و « غير متدين » . وما الدين عنده إلا « دافع للجماهير الجاهلية لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء الامبراطوريات .. » !

لكن .. يبدو أنه قد استمرأ منهج « التجزئة » .. فبعد أن جعل للأفغانى « مرحلة هندية » ، مضى « ليجزئ » عقيدته فى ذات « المرحلة الهندية » الواحدة ، بل وفى الكتاب الواحد ـ [الرد على الدهريين] ـ ؟ ! .. لقد رأيناه يحكم على الأفغانى ، من خلال [الرد على الدهريين] .. بأنه « **ملحد** » .. ثم هاهو ، فى مكان آخر من « دراسته » ، يحكم عليه ، من خلال ذات الكتاب ، بأنه « **تقليدى محافظ فى تفسير الإسلام** » ؟ ! .. يقول : « **لقد اختار الأفغانى فى سنة ١٨٨١ م ، نهائيا ، الدفاع عن الموقف التقليدى المحافظ فى تفسير الإسلام ، وحمل حملة شديدة على تجديد الفكر الإسلامى بالفكر العلمى والفلسفى الذى عده الطريق المختصر إلى الزندقة وإلى زعزعة الإيمان الدينى . وقد عبر عن كل ذلك فى « الرد على الدهريين] وفى « مقالاته الهندية »**[٥] ؟ !

وهنا نسأل : كيف تكون رسالة [الرد على الدهريين] : « تجديدا » ـ أى كفرا وزندقة وزعزعة للإيمان ـ وتكون هى ذاتها : « تقليدا ومحافظة فى تفسير الإسلام ، ومعاداة للتجديد والزندقة وزعزعة الإيمان » ؟ ! .. كيف يتأتى ذلك التقويم لمن يحترم الحقيقة فيحترم عقول القراء ؟ ! .

إن الدكتور لويس يمعن فى هذا التناقض الصارخ والغريب عندما

(٥) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦

يحكم على الأفغاني بأنه ـ من خلال [الرد على الدهريين] ـ قد أصبح « غبيا فى الفكر ، كما هو « غبى فى السياسة »[6] » ـ [بسبب دعوته للإسلام السياسي والجامعة الإسلامية ؟ !] ـ .. فكيف تكون « الغبية فى الفكر » « تجديفا » ، ياعزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

* * *

نحن لازلنا فى « المرحلة الهندية » للأفغاني ... وحتى الآن صادر على الرجل ، من الدكتور لويس ، حكمان متناقضان :

● فهو « مجدف » .. أي كافر بالله ... من خلال كتابه [الرد على الدهريين] ! ..

● وهو « تقليدى محافظ فى تفسير الإسلام عدو للتجديد والزندقة » من خلال [الرد على الدهريين] و [المقالات الهندية] ! ..

لكن الدكتور لويس لا يقف عند هذا القدر من « التناقضات » .. بل يمضى ليصادر على عقيدة الأفغاني ـ وفى ذات « المرحلة الهندية » ـ وبسبب ذات الأعمال الفكرية ـ أحكاما أخرى بينها وبين بعضها أشد التناقضات ! .

● فبعد « **التجديف** » .. وبعد « **المحافظة والتقليد** » .. يذكر أن الأفغاني قد شق « **طريقا وسطا** » بين أهل الجمود وبين المتفرنجين .. فيقول : « .... ويبدو أن الأفغاني حاول فى كلكتا ـ [بالهند] ـ أن يفتح لمسلمى الهند طريق ثالثا .. » .. **وهو ينقل هذا التقويم لموقع الأفغاني الفكرى عن « بلنت »** .. الذى التقى بشاب هندى من أنصار الأفغاني ـ اسمه « مولاى أ . م » ـ تحدث إلى « بلنت » عن التيارات الفكرية بين

---

(٦) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦ .

مسلمي الهند ، وكيف « أن الأمير علي وأصدقاءه قد وضعوا أنفسهم خارج إطار المجتمع الإسلامي ، بزيهم الانجليزي وعاداتهم الانجليزية . بينا عبد اللطيف وجماعة الموالى [علماء الدين] كانوا مسرفين فى المحافظة .. فجاء الأفغاني بفكرة قوامها : **الجمع بين إصلاح الإسلام والوحدة الإسلامية** . وهناك الآن كثيرون يفكرون على طريقته ، ويعتقدون فى **موقف وسط** بين هذين الحزبين المتنافسين » ..

إن الدكتور لويس ينقل هذا التقويم عن « بلنت » .. ويعترف « بتجمع الشباب المعتدل حول الأفغاني .. ورفضه طريق علماء الدين المحافظين ، ومدرسة السيد « أحمد خان » الليبرالية ، التى كانت تجد تناقضها الأول مع التخلف الداخلى وليس مع الاستعمار البريطاني .. » .

لكن الدكتور لويس لايزكى هذه « الوسطية » ، لأنها تعنى – كما قال الشاب الذى تحدث إلى « بلنت » – « إصلاح الإسلام » أى تجديده ليكون البديل الحضارى للتغريب .. و « الوحدة الإسلامية » أى [الجامعة الإسلامية] التى تجمع أمم الإسلام فى رباط تضامنى يعينها على مواجهة الامبريالية والاستعمار .. لا يزكى الدكتور لويس هذه الوسطية بل يراها « **معادلة صعبة .. تريد قبول حضارة العصر ورفض الانجليز** [7] » ؟ !

ونحن نسأل الدكتور لويس : هل كان يريد لمسلمي الهند قبول الانجليز كشرط لقبولهم « حضارة العصر » ، حتى تكون المعادلة سهلة ؟ ! .. إنه واضح الانحياز لموقف « المتغربين » ، من أمثال « أحمد خان » ، الذين تفرنجوا ، ورفضوا « الموروث » ، وتعلقوا بأذيال « الوافد الغربي » .. بل

---

(٧) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .

هو أشد حماسا وانحيازا لهذا الموقف « التغريبي » .. لانعدام الصلات التي تربطه بهذا « الموروث » ؟ ! ..

● وبعد الحكم « بالتجديف » .. و « بالمحافظة والتقليد » .. و « بالوسطية » .. يأتي حكم رابع للدكتور لويس .. فيقول ، عن الأفغاني ـ في ذات المرحلة الهندية » ـ إن فكره يمثل « الانسانية الإسلامية » ـ [الهيومانزم الإسلامي] ـ ؟ ! ... فهو يورد فقرات من محاضرة ألقاها الأفغاني في قاعة « ألبرت هول » ، انتقد فيها إحجام المسلمين عن الاستفادة من علوم العصر التي ازدهرت في أوربا ، على الرغم من استمرارهم ترديد مقولات أرسطو التي استعان بها أسلافهم .. فهم يقبلون على « أرسطو ، وكأنما هو قطب من أقطاب الإسلام » ومع ذلك فإذا جاء ذكر جاليليو ونيوتن وكبلر قالوا : هؤلاء كفار ! » ..

والأفغاني هنا ـ وهذا مالم يلحظه الدكتور لويس ـ يقول للمسلمين : إن مانحتاجه من الغرب ليس الفلسفة .. وإنما العلوم الطبيعية وتطبيقاتها . أما الفلسفة والثقافة والالهيات والانسانيات . فسبيلنا إليها هو الإسلام وتراثه الثقافي والحضاري ...

ثم يمضي الأفغاني في محاضرته ليقول : « إن أبا العلم وأمه هو الدليل ، والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات ، والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل . وأولئك الذين يحرمون العلم والمعرفة ، معتقدين بذلك أنهم يصونون الدين الإسلامي ، هم في الواقع أعداء ذلك الدين . إن الدين الإسلامي هو أقرب الأديان إلى العلم والمعرفة ، وليس هناك أي تعارض بين العلم والمعرفة وبين أسس العقيدة الإسلامية .. » .

والدكتور لويس يعلق تعليقا إيجابيا على كلمات الأفغاني هذه .

فيقول : « والحق أن المرء لا يستطيع أن يقرأ هذا المنطق المتماسك ، إلا ويقف باحترام عميق أمام فكر الأفغاني الساطع ، الذي كان يمكن أن يكون دعامة قوية من دعامات « الهيومانزم الإسلامي » ، واستكمالا لتلك الثورة الثقافية التي بدأها رفاعة الطهطاوي .. » !

وهنا - وعند هذا الحد ، عز على الدكتور لويس أن يصمت ، فيكون قد قال في الأفغاني كلمة حق لم يفسدها بتشكيك ولم يطمسها بتشويه ، فعقب على كلماته هذه بقوله : إن الأفغاني قد أفسد فكره الانساني هذا عندما « شغل نفسه بسفاسف السياسة وبسفاسف الفكر السياسي التي طمست في آثاره مبادئ الهيومانزم ، أو المذهب الإنساني ، ولم تبرز للأجيال التالية إلا دعوته السلفية ودعوته الثيوقراطية .. »[8] » !

فإذا ما بحثنا عن « سفاسف السياسة وسفاسف الفكر السياسي » ، التي لا تعجب الدكتور لويس ، وجدناها متمثلة في : تأسيس التمدن الحديث على أسس إسلامية ، وإحياء الجامعة الإسلامية ، كرابطة تجمع شعوب الشرق وعالم الإسلام في الصراع ضد الاستعمار ! ..

على كل ، لقد قال الدكتور لويس عن الأفغاني - في هذا الموضع من دراسته - وعن فكره في ذات المرحلة الهندية - إنه « **إنساني** » - [**هيومانزم**] - بعد أن حكم على عقيدته وفكره بـ « **التجديف** » .. وبـ « **المحافظة والتقليد** » .. وبـ « **الوسطية** » .. فإلى هنا ، وحتى الآن قد صدرت على الأفغاني ، من الدكتور لويس أربعة أحكام ! ..

● أما الحكم الخامس فهو إيجابي ، ومما يحمد للدكتور لويس .. فبعد أن رأيناه يحكم على الأفغاني - من خلال مقالاته الهندية - « بالمحافظة

(٨) [التضامن] العدد ١٦ ص ٦٨

والتقليد »[9] ـ ها هو يحكم عليه ـ من خلال إحدى هذه المقالات الهندية ـ مقال [فوائد الفلسفة] ـ بأنه : « إنسانى ـ تقدمى ـ جدلى ـ وفيلسوف اجتماعى من طراز عظيم .. » !..

لقد تحدث الأفغانى إلى أهل الجمود من معاصريه ، الذين أضاعوا قدراتهم العقلية فيما لا يفيد الأمة فى صراعها ضد التحديات التى تطبق على مستقبلها وتضيق على ذاتيتها الخناق . تحدث إليهم فقال : « لم تستخدمون آراء هذه العقول الشامخة فى حل سفاسف المشكلات ؟ ومع ذلك فأنتم لا تفكرون لحظة فى هذا الموضوع الخطير الذى ينبغى على كل إنسان ذكى أن يفكر فيه ، ألا وهو : ما سبب الفقر والعجز واليأس بين المسلمين ؟ وهل هنالك علاج لهذه الظاهرة ، ولهذا الخطب الوبيل ؟ أم أنه لا علاج لها ؟ ... فما من شك أو ريب فى أن امرءا لا ينفق حياته كلها فى حل هذه المشكلة ، ولا يجعل من هذه الظاهرة الخطيرة محور تفكيره إنما يضيع حياته هباء ويتلفها ، ولا يصح أن يلقب بفيلسوف . فالفيلسوف هو من يعرف جوهر الأشياء... »

هنا ، عقب الدكتور لويس فأنصف الأفغانى بقوله : « هذه المواقف الفكرية ، عند الأفغانى ، لاشك كانت مواقف تقدمية فى عصره .. بل هى تقدمية حتى فى عصرنا هذا ، لأنها تجعل غاية كل علم وكل فلسفة الرقى بالمجتمع البشرى ، ولاسيما بإلغاء الفقر والجهل والمرض وضعف الإنسان أمام الطبيعة وأمام أخيه الإنسان . فهى فلسفة اجتماعية من طراز عظيم ، بل هى فلسفة جدلية ، ترفض للعالم الإسلامى ما رفضه فلاسفة النهضة الرينسانس للعالم المسيحى من منطق العصور الوسطى .. »[10]

---

(٩) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦

(١٠) [التضامن] العدد ١٦ ص ٦٨ ، ٦٩

لقد قال الدكتور لويس كلمة إنصاف للأفغانى . لكنها جاءت فى إطار التناقضات الصارخة التى اتسمت بها أحكامه على فكره وعقيدته فى السنوات الثلاث التى قضاها بالهند . بعد نفيه من مصر سنة ١٨٧٩ م . وهى الأحكام التى تراوحت مابين « **التجديف** » .. و « **المحافظة والتقليد** » .. و « **الوسطية** » .. و « **التقدمية ـ والانسانية ـ والجدلية ـ والفلسفة الاجتماعية ذات الطراز العظيم** » .. ؟ !

* * *

لكن هذا التناقض . الذى اتسم به تقويم الدكتور لويس لفكر الأفغانى فى « المرحلة الهندية » . على ما رأيناه به من اجحاف وافتراء . هو مما يهون عندما يقاس بالافتراء الذى وجهه الدكتور لويس إلى العقيدة الدينية للأفغانى فيما سماها « بالمرحلة المصرية » ... فلقد بلغ هنا قمة الافتراء عندما اتهم الرجل . بـ « **الزندقة** » .. وبـ « **الإلحاد** » ؟ ! ..

لقد نظر الدكتور لويس فيما كتبه ثلاثة من الذين ترجموا للأفغانى : محمد عبده . وأديب اسحق .. وسليم العنحورى .. فوجد الأول يتحدث عن اعتقاد الأفغانى باعتباره « عالم الدين القويم الايمان » .. ووجد الثانى يصنفه مع « المفكرين الأحرار » .. أما الثالث ـ سليم العنحورى ـ فلقد قال عنه ما يعنى أنه « متفلسف ملحد » ! .. فتعلق الدكتور لويس بهذا الوصف الأخير؟ ! .. وساق العبارة التى أوردها العنحورى وقال فيها عن جمال الدين : « ... إنه قد برز فى علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم . زاعما أن الجراثيم الحيوية المنتشرة فى الفضاء هى المكونة بترق وتحوير طبيعيين ... » ...

لقد كانت عبارة العنحورى هذه هى طلبة الدكتور لويس .. فدافع عن العنحورى . ونفى عنه كل شبهة أو غرض يدعوه إلى الافتراء على

الأفغاني .. ثم عقب قائلا : إن حديث الأفغاني عن تطور الفكر الدينى قبل ظهور أديان التوحيد هو مما يستقيم مع العلم والدين معا .. « وإنما يبدأ الإلحاد - [إلحاد الأفغاني] - حيث يبدأ الحديث « بقدمية العالم » . وليس بخلقه ، وحيث تنسب الصورة المجردة لذات الله المطلقة فى الزمان والمكان والوجود والصفات إلى خيال الإنسان . وليس إلى إدراكه للحقيقة ، سواء بالعقل أو من رسالات السماء[11] .. » !

ونحن - قبل أن نسوق من أعمال الأفغانى الفكرية ما ينفى عنه هذا الافتراء - وقبل أن نعرض رأيه فى « قدم العالم وحدوثه » . وفى « الذات الالهية » . وفى « النبوة » . وفى « الخلق أو التكوين الطبيعى والذاتى للكائنات الحية » .. قبل أن نجلو للقارئ أولا . وللدكتور لويس ثانيا ! رأى الأفغانى وعقيدته . من خلال كتاباته « الكلامية - الفلسفية » - نود أن نقوم آراء سليم العنحورى وقيمتها ومصداقيتها . ليعرف القارئ وزنها ومقدار ما تستحقه من ثقة . وخاصة إذا ما قورنت بآراء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . أو أديب إسحق عن جمال الدين . وذلك حتى يعرف القارئ لماذا رجح الدكتور لويس قول العنحورى عن أقوال محمد عبده وأديب اسحق ! ..

لقد كتب العنحورى ترجمته للأفغانى ونشرها فى مقدمة ديوانه [سحر هاروت] .. ولقد أعاد رشيد رضا نشر هذه الترجمة فى الجزء الأول من [تاريخ الاستاذ الامام] .. ونحن إذا تأملنا ما كتبه العنحورى عن جمال الدين ملنا إلى إسقاط روايته . كمصدر ثقة للتاريخ . لأن روايته قد امتلأت بالأخطاء والأكاذيب والمفارقات ... فعلى سبيل المثال :

---

(١١) [التضامن] العدد ٦ ص ٦٩ ، ٧٠ .

١ ـ يقول الصحورى عن خطبة الأفغانى فى « دار الفنون » العثمانية ، بالآستانة : إن الأفغانى قد « غالى فيها إلى حد أن أدمج النبوة فى عداد الصنائع المعنوية .. »[١٢] .

والحقيقة غير ذلك .. وكلام الأفغانى منشور وموثق ـ وسيأتى إيراده بعد قليل ـ والذين ادعوا ذلك هم خصوم الأفغانى من شيوخ الآستانة الرجعيين .. فالصحورى إما أنه قد نقل كلام هؤلاء الخصوم .. أو أنه فهم كلام الأفغانى بمنطق اللاهوت المسيحى الذى تنقصه عقلانية الإسلام ! ..

٢ ـ وهو يقول عن الأفغانى : إنه زار مكة ، لمدة عام ، بعد مغادرته الآستانة ، عقب أزمة محاضرة « دار الفنون » .. وليس هذا بصحيح .. فلقد غادر الآستانة إلى القاهرة .. كما يزعم الصحورى أن الأفغانى قد تعلم اللغة العربية بمكة فى هذه الزيارة المزعومة ! .. والثابت المتواتر الشهير أنه قد تعلمها فى صباه ، وأنه قد شرح للطلبة السوريين الذين كانوا يدرسون بالأزهر بعض كتب النحو العربى فى زيارته الأولى لمصر سنة ١٨٦٩ م ؟ !

٣ ـ ويقول الصحورى إن رياض باشا [١٢٥٠ ـ ١٣٢٩ هـ ١٨٣٤ ـ ١٩١١ م] قد أنزل الأفغانى حجرة فى الجامع الأزهر ـ [أى أنه قد سكن فى أروقة الجامع الأزهر] ـ وأنه ـ [أى رياض] ـ قد عين له راتب مدرس بالأزهر .. والثابت تاريخيا أن الأفغانى لم يسكن بأروقة الأزهر .. ولم يدرس فيه .. كما لم يكن لشيوخ الأزهر « رواتب » فى ذلك التاريخ ؟ !

---

(١٢) [تاريخ الأستاذ الإمام] جـ ١ ص ٤٤ .

٤ ـ ويقول الصحورى : إن الأفغانى قد غادر مسكنه بالأزهر إلى منزل « بحارة اليهود » .. والثابت أن مسكنه كان فى « خان الخليلى » ، وليس فى « حارة اليهود » ! .

٥ ـ ويزعم الصحورى أن الأفغانى قد أراد تحويل مصر إلى « جمهورية » يتولى زعامتها ! ... وفضلا عن تهافت هذا الزعم ، فإن رأى الأفغانى فى « الحكم الجمهورى » معروف . فلقد كان يرى أن بلاد الشرق لم تتهيأ لمثل هذا اللون من الحكم فى ذلك التاريخ .. فهو القائل : « .. أما الحكم الجمهورى فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله . »[13] ! .

٦ ـ ويقول الصحورى : إن نفى الأفغانى من مصر سنة ١٨٧٩ م كان عن طريق « بورسعيد » .. والصحيح أنه كان عن طريق « السويس » .. ويقول : إن خادم الأفغانى « أبو تراب » قد سجن بمصر .. والثابت أنه قد نفى معه ! .

٧ ـ ويقول عن الأفغانى : إنه عندما أصدر « العروة الوثقى » ـ بباريس ـ « عاود الاستمساك بالدين الحنيف » ! .. وكأنما كان الأفغانى فى بلاد المسلمين لا يتدين ، ثم يعاوده التدين فى باريس ؟ ! .

٨ ـ ثم .. إن الصحورى هو أقل الثلاثة ـ محمد عبده ، وأديب اسحق ، وهو ـ صحبة لجمال الدين .. فمحمد عبده قد عاشره ولازمه وكان أقرب الناس إلى فكره وحياته اثنى عشر عاما ... أما أديب اسحق فلقد صحبه لسنوات ... على حين لم تزد صحبة الصحورى للأفغانى عن العام ، فلقد جاء إلى مصر سنة ١٨٧٨ م ولما لم يطق تبعات العمل السياسى والفكرى الذى كان يقوده جمال الدين عاد إلى قواعده فى الشام !

---

(١٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٩

٩ ـ وأخيرا .. فلقد راجع المخزومي نفسه : عندما لقيه الامام محمد عبده فى الشام ، وأوضح له خطأ قوله بإلحاد الأفغانى .. وبين له أن الأفغانى كان يورد حجج الماديين ليرد عليها . فمن غير المقبول أن تنسب إليه هذه الحجج باعتبارها آراءه وعقيدته .. فاقتنع المخزومي ، ورجع عن اتهامه للأفغانى بالالحاد ، وكتب نقدا لما سبق أن نشره خاصا بعقيدة الأفغانى ، وأذاع هذا النقد على الملأ ، حتى لقد نشره بالصحف السيارة ـ من مثل صحيفة [لسان الحال] وصحيفة [الجنة] ـ .. وذكر فى هذا التصحيح أن المصدر الذى جعله يقول ماقال هو ماتلقاه « عن بعض المصريين والسوريين .. » ـ فلم يكن الرجل كاتبا لما كتب أولا بناء على السماع المباشر من جمال الدين .. كما هو حال محمد عبده . الذى كتب ترجمته للأفغانى بناء على « طول العشرة وكمال الخبرة » .. فهو ـ بشهادة المخزومي ذاته ، بل وبألفاظه : « أعز أخلاء الحكيم » الأفغانى ! ـ ... ولقد أعلن المخزومي فى تصحيحه لما سبق وكتبه عن عقيدة الأفغانى .. أعلن : أنه « لم يبق محل للريبة فى كمال اعتقاد الأفغانى وجلاء يقينه .. »[١٤] .

لكن الدكتور لويس لا يقيم وزنا لكل هذه الحقائق الناصعة الوضوح .. إنه يتعلق بالرواية المعيبة ، المليئة بالأخطاء والمفارقات . ويعتمد على أقل المصادر ثقة وخبرة وعشرة للأفغانى بل ويتشبث بالرأى الذى رجع عنه صاحبه ، وانتقد نفسه على ابدائه ، وأذاع نقده هذا على الملأ من الناس ؟ ! ..

ذلك هو الدكتور لويس فى الموقف من الأفغانى .. وفى أى

(١٤) [تاريخ الأستاذ الامام] جـ ١ ص ٤٢ ـ ٥١ .

القضايا ؟ .. فى الأخطر منها .. فى الحكم على الضمائر والسرائر والعلاقة الخاصة بين العبد ومولاه ! ..

وإذا كان هذا هو مكان الرواية التى اعتمد عليها الدكتور لويس فى اتهام الأفغانى بالزندقة وبالالحاد .. فإن حظها الوافر من التهافت ـ ورجوع صاحبها عنها ـ لا يجعلنا نكتفى بما قدمناه .. إذ لابد من جلاء موقف الأفغانى ـ من خلال أعماله الفكرية وكتاباته « الكلامية » ـ من القضايا التى اتهمه بسببها الدكتور لويس بالزندقة وبالالحاد ...

فما هو موقف الأفغانى من : « قدم العالم أو حدوثه » ؟ .. ومن مقولة « التكون الذاتى والطبيعى للكائنات الحية » ؟ .. ومن « الدين » كوضع إلهى وحقيقة موضوعية » ؟ .. ومن « النبوة .. وعلاقتها بالحكمة ـ [الفلسفة] ـ » .. ما رأى الأفغانى فى هذه القضايا ، التى هى ـ فى الفكر الدينى ـ أمهات فى صدق التدين ، وركائز فى سلامة الاعتقاد ؟؟ ..

● لم يقل الأفغانى « بقدم العالم » ، بل قال « بحدوثه » ! .. ورأيه هذا ثابت ومعلن وشهير .. أوضحه بجلاء فى مجلس علمه الذى شرح فيه أمهات كتب المنطق والتصوف والكلام والأصول لتلاميذه ، فى السنوات الأولى لإقامته بمصر .. والناظر فى تعليقاته على [شرح الدوانى للعقائد العضدية] ـ وهى [**التعليقات] التى تمثل نصا « كلاميا ـ فلسفيا » عالى المستوى ، يضع الأفغانى فى مصاف عظماء فلاسفة الإسلام** ـ إن الناظر فى هذه [التعليقات] ـ التى فرغ الأفغانى من إملائها أواخر ذى الحجة سنة ١٢٩٢ هـ ـ أوائل سنة ١٨٧٦ م ـ والتى دونها محمد عبده ـ يجد موقف الأفغانى المنحاز إلى « حدوث العالم » واضحا ومحددا وجليا وحاسما لا يحتمل اللبس أو الغموض أو التأويل .. فهو ـ بعد أن عرض آراء الفلاسفة والمتكلمين فى هذه القضية ـ ص ٢٢٣ ومابعدها ـ أعلن انحيازه

إلى جانب القائلين بحدوث العالم ، بما يستلزمه هذا القول من إيمان بالخالق ، الذى أحدث هذا العالم .. يقول الأفغانى : « واتفق أهل الحق على أن **للعالم ـ الذى قد ثبت حدوثه ـ** محدثا أزليا ، أبديا ، لم ينقطع وجوده فى آن من الآنات الماضية ، ولا ينقطع فى آن من الآنات المستقبلة. واستدل أصحابنا على ذلك بأن **العالم مُحدَث** ـ بالفتح ـ وقد سبق دليله ـ وكل مُحدَث فله مُحدِث ـ بالكسر ـ بالضرورة ، إذ من البديهى أن المعدوم لايوجد إلا بموجد ، فموجده إما أن يكون ذاته ، أو ينتهى إليه ، فيدور ، أولا يكون ذاته ، ولاينتهى إليه ، بل يذهب حادثا عن مُحدِث ، لا إلى نهاية ، فيتسلسل ، أو ينتهى إلى ما ليس بحادث ، وهو القديم . والدور باطل ، بالضرورة ، والتسلسل ، بالبرهان ، فثبت الثالث ، **فالعالم ينتهى إلى مُحدِث قديم ، فهو أزلى ، وما كان أزليا ، استحال أن لايكون أبديا** .. »[١٥] .

إنه ـ هنا ـ يقطع بحدوث العالم ومافيه ، عن مُحدِث أحدثه ومافيه ، هو الله ، سبحانه ، الأزلى الأبدى ... فأين قوله المزعوم « بقدم العالم » .. و « بالتكون الذاتى للكائنات الحية » ؟ .. الذى زعمه الدكتور لويس ؟ ! ..

ليس من حق الدكتور لويس أن يتعلل بأنه لم يقرأ [تعليقات] الأفغانى على شرح الدوانى للعقائد العضدية .. ولا بأنه قد قرأها فلم يستطع فقه مضامينها ، كنص إسلامى كلامى متخصص ! .. فالكتاب لديه ، قد أهديته نسخة منه منذ سنوات .. وكان عليه أن يسأل أهل الذكر إن استغلق عليه فقه هذه النصوص ! ... ثم ، **ماعذره ، وهو الذى رجع ـ**

---

(١٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] جـ ١ ص ٣٠١ .

كما يشير في « دراسته » ـ إلى رسالة [الرد على الدهريين] ـ ماعذره . عندما يتهم الأفغانى بالقول « بقدم العالم » و « بالتكون الذاتى والطبيعى للكائنات الحية » . وفى [الرد على الدهريين] نصوص للأفغانى تنقض هذا الاتهام من الأساس ؟ ! .. ففى [الرد على الدهريين] يعرض الأفغانى لآراء القائلين بقدم العالم وبتكون الجراثيم بالترقى والتحوير الطبيعيين .. يعرض لها بالنقد والنقض والتفنيد ... فيقول : « وذهب فريق آخر إلى أن الأجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه من أزل الآزال ولا تزال . ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات . وزعموا أن فى كل بذرة نباتا مندمجا فيها . وفى كل نبات بذرة كامنة .. الخ ... »

ثم يمضى ليرد هذا الزعم بقوله : « وغفل أصحاب هذا الزعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية فى مقدار متناه . وهو من المحالات الأولية » .

وبصدد تكون الجراثيم .. يعرض رأى الماديين فيقول : « ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع . رجع المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث . ثم اختلفوا فى بحثين :

الأول : بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية . فذهب جماعة إلى أن جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ التهاب الأرض فى التناقص . ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضى . وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون إلى اليوم . خصوصا فى خط الاستواء حيث تشتد الحرارة . وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية » ! ..

ثم يمضى الأفغانى فيفند كل مذاهب الماديين والطبيعيين والدهريين ـ ناقضا « مزاعمهم » ـ ساخرا من « أوهامهم » ومن « مذهبهم العاطل »

فيستغرق « تفنيده » هذا فى أعماله الكاملة ست صفحات . بعد أن عرض مذهبهم فى صفحات ثلاث[16] ؟!

فلم لم تلفت هذه النصوص – فى [الرد على الدهريين] – نظر الدكتور لويس ؟ .. أم ، ياترى ، قد خلت منها الطبعة الانجليزية التى أحضرها له الأمريكان فى جامعة « لوس أنجلس » ، ضمن ما أحضروا له من أوراق ليكتب ما كتب عن جمال الدين ؟! .. أم تراه قد قرأ هذه النصوص . ومع ذلك مضى فى رمى الأفغانى بالزندقة وبالإلحاد . متقولا عليه وناسبا إليه عكس الذى كتبه الرجل فى [الرد على الدهريين] ؟! .

وإذا كانت هناك حاجة لمزيد من الوضوح لرأى الأفغانى بصدد هذه القضية – قضية وجود الخالق ، وإسناد الحياة والأحياء إلى « خلقه » لها ، فإن فى أعمال الأفغانى الفكرية المزيد من النصوص . فى نقضه لمذهب الطبيعيين الماديين من أنصار داروين Darwin [١٨٠٩ – ١٨٨٢ م] ومذهب النشوء والارتقاء ووحدة أصل الأنواع . يقول الأفغانى : « إن الغاية من مذهب الطبيعيين : **إنكار الخالق ، وإسناد الأعمال إلى الطبيعة** .. ولقد قال داروين بالنص الواحد : « إنى أرى أن الأحياء التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة » ... ولكن قوله هذا لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين .. واتهموه بالخوف من أهل دينه ، وقالوا : إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصا ، بل ينقضه من أساسه ... **فالنقطة الجوهرية هى (موجد نسمة الحياة)** »[17] .

هكذا حدد الأفغانى مواطن خلافه مع الماديين .. فالعالم عنده

---

(١٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٣٢ – ١٣٩ .
(١٧) المصدر السابق . ص ٢٥٢ .

مُحدَث ، صدر عن محدِث ، أزلى أبدى ، ولم تتكون الحياة فيه ولا الأحياء بالنشأة والتحوير الذاتيين الطبيعيين ، كما زعم الماديون ! ..

ورغم أن الأفغانى قد انحاز ـ كما أشرنا ـ إلى القول بحدوث العالم ، فإنه لم يحكم « بالكفر » ولا « بالزندقة » ولا « بالإلحاد » على الذين قالوا إن العالم قديم ... فالرجل كان متخلقا بأخلاق الفلاسفة والعلماء .. ولم يكن أسيرا لتعصب « الخوارج » ولعصبية « جماعات التكفير » ؟ ! .. ثم إنه ابن حضارة تميزت بالعقلانية ، حتى لقد تدينت فلسفتها ، كما تفلسف فيها الدين ، فلم تعرف الفصام الحاد بين علوم الشرع وعلوم العقل ... وهو وارث تراث فكرى قال كثير من أعلام فلاسفته ومتكلميه بقدم العالم وخالق قديم ، أزلى وأبدى ، لهذا العالم القديم ! ! .. إنها قضية معقدة وصعبة حقا .. لكنها مطروقة فى فكرنا الاسلامى ، أفاض فيها ابن رشد .. وانحاز إليها المعتزلة ... ولمنطقها فى تراثنا بناء شامخ يقصده الطالبون والراغبون[18] ! ..

لم يقل الأفغانى بكفر من ذهب إلى أن العالم قديم .. واقرأ ، معى ، كلامه ـ الذى يأتى درسا فى أدب البحث والنظر والحوار ! .. يقول الأفغانى : « واعلم أنى وإن كنت **برهنت على حدوث العالم ، وحققت القول فيه** ، على حسب ما أدى إليه فكرى ، ووقفنى عليه نظرى ، فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا ، وأنكروا به ضروريا من الدين القويم ، وإنما أقول إنهم أخطأوا فى نظرهم ، ولم يسددوا مقدمات أفكارهم ، ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد ، ولم يعول على التقليد فى الاعتقاد ، ولم تجب عصمته ، فهو معرض للخطأ ، ولكن

---

(١٨) انظر كتابنا [المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

خطأه عند الله واقع القبول ، حيث كانت غايته من سيره ، ومقصده من تمحيص نظره ، أن يصل إلى الحق ، ويدرك مستقر اليقين . وكل من اعتقد بالألوهية التامة ، ونزه الحق عن جميع النقائص ، واعتقد بنبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به ، ولم يكذب شيئا مما نقل عنه ، مع علمه بأنه قد نقل عنه ، فهو مؤمن ناج ، عدل رضي عند الله تعالى [لا يكلف الله نفسا إلا وسعها][19] . وعلى المرء أن يسعى إلى الخير جهده ، **فإياك أن تنهج نهج التعصب فتهلك !** »[20].

فأصول الدين ، عند الأفغاني ، هي : الألوهية .. والنبوة .. والمعاد .. وهو قد دعا إلى تزامل « العقل » و« النقل » وتعاونهما على تحصيل الإيمان اليقيني بهذه الأصول .. فكتب يقول - بعد أن عرض آراء الفرق المختلفة في سبل تحصيل الإيمان - : « .. والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل ، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوات ، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكنه الألفاظ ، إلا فيما يتعلق بالأعمال ، على قدر الطاقة ، ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده ، بالبراهين الصحيحة ، كأن ما أدت إليه ما كان ، لكن بغاية التحري والاجتهاد ، ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه ، فوجده بظاهره ملائما لما حققه ، فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليتطرق عن التأويل ، ويقول [آمنا به كل من عند ربنا] فإنه لا يعلم مراد الله ونبيه إلا الله ونبيه ... ولابد في كمال النجاة ، ونيل السعادة الأبدية من أن ينضم إلى ذلك : التخلي عن الرذائل ، والتحلي بالأخلاق الكاملة ، والأعمال

(19) البقرة : 286 .

(20) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] جـ 1 ص 280

الفاضلة . ومن تلك الأخلاق والأعمال : تكميل قوة النظر ، وارتكاب طريق العدل فى كل شيء ، إذ لا ريب أن كل من خالف ما كان عليه النبى وأصحابه .. فهو فى النار .. »[21]

ترى .. هل يمكن أن يكون هذا كلام من يرى أن الدين ليس إلا مجرد مؤسسة اجتماعية وقومية ، ينحصر نفعها فى دفع الجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء الامبراطوريات ؟ ! .. كما قال الدكتور لويس عوض عن عقيدة جمال الدين ؟ ! ! ..

وهل يمكن أن يكون هذا كلام من لا يؤمن بالدين كحقيقة موضوعية ؟ ! ..

وهل يمكن أن يكون هذا فكر « مجدف » و « ملحد » و « زنديق » ؟ ! !

لكن .. ما بالنا نلجأ إلى التساؤل ، ونطلب من القارئ أن يلجأ إلى الاستنتاج .. وللأفغانى نصوص واضحة وحاسمة فى أن « **الدين : وضع إلهى** » ــ وهو تعريفه الأخص عند المؤمنين ــ .. يقول الأفغانى ، فى هذا الموضوع : « .. **أقول كلمة حق فى الدين . ولا أظن منكرا يجحدها : الدين وضع إلهى . ومعلمه والداعى إليه البشر** . تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين ، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحى ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الأمم ، أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ فى الأفئدة ويصبغ النفوس بعقائده ، وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الأبدان على ما ينشأ من الأعمال وما يطاوعها من العزائم والارادات . **فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها** .

---

(٢١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وكأنما الانسان فى نشأته لوح صقيل . وأول ما يخط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده . وما يطرأ على النفوس من غيره فإنما هو نادر شاذ . حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات ، بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح فى البشرة بعد الاندمال ! . . »[22]

هكذا الدين ، عند جمال الدين . . . وضع إلهى . . . وليس مجرد مؤسسة اجتماعية . . . وحقيقة موضوعية مجردة . . . وليس مجرد عائد يفيض السعادة على الفرد والمجموع . . . ولابد من تزامل العقل والنقل فى تحصيل الإيمان اليقينى بأصوله . التى هى : الألوهية التامة المنزهة . . . والنبوة . . . والمعاد . .

فهل بعد ذلك حاجة للمزيد من الإيضاح لفكر الأفغانى عن « الدين » ؟ . . وهل يوجد ـ مع هذا الفكر ـ مجال لاتهام الرجل بالتجديف والزندقة والإلحاد ؟ ! . .

غير أن هناك جزئية من جزئيات افتراء الدكتور لويس على عقيدة الأفغانى لابد وأن نعرض لها فنجلو وجه الحق فيها . فالدكتور لويس لم يتهم الأفغانى « بإنكار » النبوة . . وإنما اتهمه بوضعها مع « الحكمة » ـ [الفلسفة] ـ على قدم المساواة ، أو التشابه على أقل تقدير . . وزعم أن الأفغانى يفترض وجود التناقض بين الشريعة الإلهية التى تأتى بها النبوة . وبين العقل والحكمة المستفادين من قبل الحكماء . . واتهم الأفغانى ـ لذلك ـ بـ « الزندقة » . . بل وذهب إلى أن « **هذا النوع من الزندقة ليس جديدا فى الأفغانى ولا مستغربا منه** » ! . . ثم مضى فى الافتراء فادعى أن

---

(22) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٨٣ .

« محمد عبده » وسواه ، قد قالوا إن هذا هو رأى جمال الدين ؟ ! ..[٢٣]

فما هو وجه الحق فى هذا الموضوع ؟ ..

لقد بدأت القصة بمحاضرة الأفغانى عن « الصناعات .. وفلسفتها » فى « دار الفنون » العثمانية ، بالآستانة فى رمضان سنة ١٢٨٧ هـ ــ ديسمبر سنة ١٨٧٠ م .. وفى هذه المحاضرة تحدث الأفغانى عن دور كل من « النبوة » و « الحكمة » فى تحريك « جسم السعادة الإنسانية » ، بعد أن تحدث عن « الصناعات » باعتبارها الأعضاء لبدن المعيشة الإنسانية الحى .. **ولكن الرجل لم يساو بين « النبوة » و « الحكمة » ، وإنما تحدث عن « الفروق » بينهما** ، فقال : « .. ويفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب ، يختص الله بها من يشاء من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، أما الحكمة فما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات .. وبأن النبى معصوم من الخطأ ، والحكيم يجوز عليه الخطأ ، بل يقع فيه ... وأن أحكام النبوات آتية على ما فى علم الله ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فالأخذ بها من فروض الإيمان ، أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها إلا من باب الأولى والأفضل ، على شريطة أن لا تخالف الشرع الإلهى .. »[٢٤]

لكن شيخ الإسلام العثمانى ، حسن أفندى فهمى ، انتهزها فرصة للتشنيع على الأفغانى ، فزعم أن الرجل قد تحدث عن « النبوة » كصنعة ، لأنه عرض لها فى محاضرة عن « الصناعات » ؟ ! .. وحدثت ، لذلك تلك الأزمة التى سبقت إشارتنا إليها

---

(٢٣) [التضامن] العدد ٥ ص ٦٩

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣٤٨

أغلب شئون الدنيا يشرع لها « العقل » الإنسانى ، فى ضوء روحها ، وبما يحقق مصلحة مجموع الأمة ، ويلائم الزمان والمكان ... **فوجود « الشريعة » الصالحة لكل زمان ومكان ، لا يغنى عن « العقل » اللازم لتطبيق روحها ، وللتشريع وفق مقاصدها ، وللإبداع فى الميادين والمشكلات التى لم تعرض لها نصوصها**.. تلك بديهية إسلامية.. وهى واضحة كل الوضوح.. لكن ، تعالوا لنرى تعليق الدكتور لويس على تلك البديهية الإسلامية التى تحدث بها الأفغانى فى محاضرته ... يقول فى تعليقه : « وهذا أيضا زندقة بالنسبة لمن يعتقد أن أصول الدين والشريعة صالحة لكل عصر ولكل بيئة ، لأنه قول يفترض تناقضها مع العقل فى بعض العصور وفى بعض البيئات » ؟! ..

هكذا « فهم » الدكتور لويس !! .. ثم عقب ، فقال : « وعلى كل فهذا النوع من الزندقة ليس جديدا فى الأفغانى ولا مستغربا منه » ؟!

وفى اعتقادى أن المرء محتاج إلى «حلم الحلماء» ، بل وإلى «صبر أيوب» كى لا يغضب ويثور من هذا الذى « فهمه » وكتبه الدكتور لويس ! .. إذا كان الحديث عن « الشريعة الإلهية » وعلاقتها « بالعقل » ، كما يراها الاسلام ، من المباحث الصعبة على بعض الأفهام ، فسأضرب للدكتور لويس مثلا من حياتنا الحديثة والمعاصرة والمدنية .

إذا كان وجود « الدستور » لا يغنى عن ضرورة وجود « الفقهاء الدستوريين » ، الذين يفقهونه ويفسرونه ويرعون تطبيقه .. فإن وجود « الشريعة الالهية » لا يغنى عن ضرورة وجود « العقلاء الحكماء » الذين يفسرونها ويطبقونها على شئون الحياة .. ولما كانت الشريعة قد وقفت عند « الكليات » وتناهت نصوصها على حين لم ولن تتناهى المشكلات المستحدثة فى الحياة ، فإن وجود « الحكماء » وضرورة « العقل » للتشريع

وللإبداع فيما لا نصوص فيه هو ضرورى . ومن ثم فلا تناقض بين « الشريعة » وبين « الحكمة » . وضرورة « العقل » لا تنفى خلود الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان ! ..

كذلك .. فإن وجود « الدستور » ــ الذى هو أبو القوانين .. وقانون القوانين ــ لا يعنى إنكار ضرورة وجود « المشرعين القانونيين » ، الذين يشرعون روح الدستور قوانين تحكم جزئيات الحياة ..

وبالمثل .. فإن وجود « الشريعة الإلهية » ، لا يعنى إنكار ضرورة « العقل » و « الحكمة » ، فهما أداة المؤمنين بالشريعة إلى تطبيق روحها على جزئيات الحياة ! ..

والأفغانى ، عندما قال بضرورة « الشريعة » و « العقل » .. ولزوم « النبوة » و « الحكمة » ، إنما كان مسلما يعى حقيقة الإسلام .. ومتدينا أعمق التدين .. بل ومتأسيا سنة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى قال ، فى تعريف « الحكمة » : إنها « الإصابة فى غير النبوة » [26] ؟ ! .. كما قال : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن » [27] ! .. صدق رسول الله .

فهل بعد ذلك مجال لاتهام الأفغانى بـ « التجديف » و « الزندقة » .. و « الإلحاد » ؟ ! ! ..

هل ، بعد ذلك ، مجال ــ ياعزيزنا الدكتور لويس ؟ !

---

(٢٦) رواه البخارى .

(٢٧) رواه الترمذى وابن ماجة .

هل كان الأفغانى

إيرانيا ؟.. وشيعيا ؟.. بل وبابيا ؟!..

إذا شئنا الدقة فإن «وطن» جمال الدين الأفغانى هو كل «عالم الإسلام»!.. فهو لا يشرف إلا إذا انتسب إليه جميعه. لا إلى إقليم واحد من أقاليمه.. وبالمثل، فليس هناك ـ فيما اعتقد ـ إقليم من أقاليم «عالم الإسلام» إلا ويشرفه أن يكون له من شرف الأفغانى وعظمته حظ ونصيب!..

ولقد كان للجدل والخلاف حول «وطن» جمال الدين. وهل هو إيران؟ أو أفغانستان؟.. وكذلك حول مذهبه. هل هو الشيعة؟ أم السنة؟. لقد كان لمثل هذا الجدل أن يظل فى إطاره الطبيعى والمقبول والمألوف.. فعظماء الرجال، عادة، تتجاذبهم وتدعيهم المذاهب والأجناس والأوطان!.. وفى تراثنا العربى والإسلامى عشرات الشواهد والأمثلة فى هذا المقام..

- فالإمام على بن أبى طالب [٢٣ ق. هـ ـ ٤٠هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١م] والأئمة من بنيه تتنازعهم الفرق ـ كلامية وصوفية ـ بل وطوائف الحرف والصناعات؟!.
- والحسن البصرى [٢١ ـ ١١٠هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨م] يتنازعه المعتزلة والأشعرية والصوفية، وعامة الزهاد!..

● وكثير من علمائنا وأعلامنا تجد لهم مكانا في معاجم أعلام المذاهب السنية - في ذات الوقت الذي تحتضنهم وتزدان بهم كتب الأعلام عند الشيعة ! ..

ذلك أمر مألوف في تراثنا وتاريخنا .. وفي غيره من مواريث الأمم والحضارات .

ثم إن الإسلام قد غدا لأهله جنسية ووطنا - وصار كل بلد تعلو فيه راية التوحيد جزءا لا يتجزأ من وطن الموحدين لله .. فهو قد أقام لأهله «أمية» ضمت الأجناس واللغات والأقاليم التي دانت لله بالوحدانية وصدقت بنبوة محمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام .

والايرانيون إذا تعلقوا بجمال الدين - وقالوا إنه من مواليد «أسد آباد» - طلبا لأن يشرفوا به .. فذلك مفهوم - حتى وإن خالفهم آخرون .. وكذلك الأفغانيون ، إذا هم قالوا : بل هو من مواليد «أسعد آباد» الأفغانية ، فذلك مفهوم ، حتى وإن اختلف معهم الايرانيون ! ..

وكذلك «السنة» - إذا قالوا : إنه منا ... و«الشيعة» - إذا قالوا : لقد كان على مذهبنا .. كل ذلك مفهوم .. والخلاف فيه مألوف ومشروع ! ..

أما الرجل - فلن يعيبه أن يكون إيرانيا أو أفغانيا .. ولن ينقص من قدره أن يكون شيعيا أو سنيا . لأنه «مسلم» تشرف به كل أقاليم الإسلام وجميع مذاهبه - كما شرف عالم الإسلام ويشرف بالأعلام البارزين من السنة والشيعة ، أفغانيين وايرانيين .. وفيما وراء إيران وأفغانستان ! ..

لكن الذي جعل قضية الخلاف حول «الموطن» الذي ولد فيه جمال الدين الأفغاني .. وحول «المذهب» الديني الذي تمذهب به تأخذ بعدا

آخر . أخرجها من هذا الإطار المألوف . هو أن الذين ادعوا إيرانيته وشيعيته قد أرادوا . من وراء هذه الدعوى . إثبات «كذب» الرجل .. فلقد قال عن نفسه إنه أفغاني .. ونطقت أفكاره وكتاباته بأنه سني . ثم جاء منشأ الادعاء بأنه ايراني شيعي من خصومه وخصوم دعوته التجديدية التحريرية ـ في السنوات الأخيرة من حياته ـ وهي تأتي اليوم . أساسا . من الذين يناصبونه العداء . باعتباره الرمز والرائد لحركة «الصحوة الإسلامية» التي يكرهون ؟ ! ..

فالمقصد الأساسي من وراء دعوى ايرانيته وشيعيته ليس إضافة مجده وشرفه لتختص بهما ايران والشيعة الاثني عشرية ـ ولو كان الأمر كذلك لما استحقت القضية نقاشا ـ بل ولما كان هناك قضية للنقاش ! .. وإنما المقصد هو هدم «الرجل ـ الرمز» .. ومن ثم فإنها دعوى معادية لتراث ايران المسلمة . ولمجد الشيعة الاثني عشرية .. كما هي معادية لتراث أفغانستان المسلمة ولمجد المذهب السني .. لأنها معادية . في الأساس . «للرجل ـ الرمز» الذي يعتز به الجميع ! ..

تلك هي الوضعية التي جعلت وتجعل «جنسية» الأفغاني و«مذهبه» قضية تستحق البحث الذي يجلو وجه الحقيقة فيها للقارئ العربي والمسلم ! من كل الأقاليم وجميع المذاهب وسائر القوميات ..

كذلك . فإن موطن الخلاف وموضع الجدل محدد ومحصور في «موطن» ميلاده .. وفي «المذهب» الكلامي الذي تمذهب به .. أما «الوطن» الذي تحقق به الرجل . وناضل في سبيله .. فهو ـ كما قلنا ـ كل عالم الإسلام .. فهو ـ كما يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] ـ : «لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن . ولم تدخل فكرة الوطنية . بهذا المعنى . في مذهبه الاجتماعي ..

وللممالك الشرقية الإسلامية حب في نفسه يخطفها جميعا.. »[1] .. وعندما تحدث الأفغاني عن «مواطن» اهتمامه، التي وهب لها حياته النضالية، تحدث عن الشرق كله. فقال: «**الشرق! الشرق؟!.. لقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه وتحري دوائه!..**» ثم أخذ يعدد بلاده. فذكر أفغانستان.. والهند.. وإيران.. وجزيرة العرب.. واليمن.. ونجد.. والعراق.. والشام.. ومصر.. والأندلس «**وكل صقع ودولة من دول الإسلام**..»[2]

* * *

ومن الطبيعي - الذي استقر عليه الباحثون وتعارفت عليه مناهج التأريخ - أن المصدر الأول في «الترجمة» هو ما قال صاحب هذه «الترجمة» - إذا لم تقم الأدلة الأوثق بالتشكيك فيما قال -.. ولحسن الحظ فإن جمال الدين الأفغاني، ومعه كل الأئمة والأعلام والعلماء الذين عاصروه وجاءوا من بعده فأرخوا لحياته، قد أجمعوا على أن «الموطن» الذي ولد فيه هو قرية «أسعد آباد» الأفغانية، إحدى قرى مقاطعة «كنر»، بالقرب من «كابل»، عاصمة أفغانستان.

● فجمال الدين، عندما تحدث عن حياته النضالية، وعن اهتماماته قال: «**لقد نظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفني الأفغان، وهي أول أرض مس جسدي ترابها**، ثم الهند - وفيها تثقف عقلي - **فإيران، بحكم الجوار والروابط، وإليها كنت صرفت بعض همتي**، فجزيرة العرب، من حجاز مهبط الوحي ومشرق أنوار الحضارة، ومن يمن وتبابعتها وأقيال

(1) مقدمة طبعة مجموعة (العروة الوثقى) ص ١٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م.
(2) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) ص ٢٩٥، ٢٩٦.

حمير فيها ، ونجد ، وعراق وبغداد وهارونها ، ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها .. ومصر روح الممالك الإسلامية وباب الحرمين الشريفين.. وهكذا ، كل صقع ودولة من دول الإسلام فى الشرق..»[٣]

فى هذا النص يحدد الأفغانى أن أفغانستان «هى أول أرض مس جسمه ترابها».. فهى «الموطن» الذى ولد فيه.. ومن ثم فهو «أفغانى» بشهادته هو ، كمرجع أول فى الترجمة ، ومصدر أوثق فى التأريخ.

وفى نص آخر ، يتحدث جمال الدين عن سيرته الذاتية ، فيقول ـ فى معرض التساؤل عن جدوى ومنفعة كتابته ـ أو إملائه ـ هذه السيرة الذاتية ـ يقول : «وأى نفع لمن يذكر أننى ولدت سنة ١٢٥٤هـ ، وعمرت أكثر من نصف عمر ، **واضطررت لترك بلادى «الأفغان» مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض** ، وأكرهت على مبارحة الهند ، وأجبرت على الابتعاد عن مصر ، أو إن شئت فقل نفيت منها ، ومن الآستانة ، ومن أكثر عواصم الأرض ! ...»[٤]

فى هذين النصين يقطع الرجل بأن أفغانستان هى موطنه الأصلى ، وأن إيران هى جارة موطنه ، تربط بينهما الروابط

● وكل الأعلام الذين أرخوا لحياته ، المعاصرون له منهم واللاحقون ، عربا كانوا أو عجما ، مسلمين كانوا أم غير مسلمين ـ باستثناء من جعل خصوم الرجل ، بدلا منه ، المصدر الثقة فى التأريخ له ـ كما

---

(٣) المصدر السابق . ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٤١ .

(٤) المصدر السابق . ص ٥٣٧ .

سنفصل القول فيه وفيهم بعد قليل ـ قد أجمعوا على أنه «أفغانى» المولد والنشأة.

فالإمام محمد عبده، وهو العمدة والحجة الثقة فى التأريخ لجمال الدين، يقول: «وإنا لنذكر مجملا من خبره، نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة: هذا هو السيد محمد جمال الدين.. من بيت عظيم فى بلاد الأفغان.. ولد السيد جمال الدين فى قرية «أسعد آباد».. من قرى «كنر».. من أعمال «كابل»...»[5]

ومع محمد عبده، فى هذه القضية، اتفق: رشيد رضا، وحسن البنا، وعبدالحميد بن باديس، وعبدالقادر المغربى، ومحمد باشا المخزومى، وشكيب أرسلان، وعبدالله النديم، ومصطفى عبد الرازق، وأديب اسحق، ومحمد الفاضل بن عاشور، وسليم نقاش، وسليم العنحورى، وجرجى زيدان، ومحمد المويلحى، وابراهيم اللقانى، وابراهيم الهلباوى، وسعد زغلول، ومحمد إقبال، وعباس العقاد، وأحمد أمين، وعبدالرحمن الرافعى، ومالك بن نبى، والدكتور محمود قاسم، والفيكونت فيليب دى طرازى.. وجمهرة علماء وأعلام العرب والمسلمين الذين أرخوا لجمال الدين أو عرضوا لسيرته فيما كتبوا عن تجديد الإسلام..

وكذلك صنع أغلب المستشرقين.. من «بلنت» إلى «رينان»، إلى «جولد سيهر»، إلى «تشارلز أدامز»، إلى «لوثروب ستودارد»، الذى قال عنه: «إنه أفغانى الأرومة، لا فارسى...»[6].. إلى المستشرق

(٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣٤٤، ٣٤٥.

(٦) [حاضر العالم الإسلامى] مجلد ١ جـ ١ ص ٣٠٥

السوفيتى «لوتسكى» ، صاحب كتاب [تاريخ الأقطار العربية الحديث] .. الخ .. الخ .

هذا هو الإجماع .. إجماع العلماء والمؤرخين والمفكرين على «أفغانية» جمال الدين..

لكن الدكتور لويس عوض- كما هى العادة- جاء ليرفض هذا الإجماع . لا لأن «إيرانية» الأفغانى- التى قال بها- أحب إليه من «أفغانيته»- التى أجمع عليها العلماء والمفكرون والمؤرخون . وإنما ليظهر الرجل بمظهر «الكاذب» ، الذى خدع العالم أجمع عندما أخفى «إيرانيته» و«شيعيته» ، وأوهم الجميع أنه «سنى» من «أفغانستان» ! ..

ولقد كان لابد للدكتور لويس ، وهو يرفض اجماع العلماء والمفكرين ، من أن يتخذ لنفسه مراجع أخرى غير أعمالهم العلمية ، فكان صريحا عندما قال لنا إن مراجعه هي تقارير الجواسيس التي ضمتها الملفات السرية لأجهزة الأمن والاستخبارات في عواصم الاستعمار التى حاربت جمال الدين ؟! ..

قال الدكتور لويس فى «دراسته» عن الأفغانى : «لقد أوهم كل من عرفهم ، فى مصر وأوروبا ، أنه أفغانى بالمولد والنشأة ، فلا نجد إشارة إلى ايرانيته إلا فى الملفات السرية الأوروبية ، وفى جوازات السفر التى كان يزوده بها قناصل ايران ، وهى مصورة فى الوثائق البريطانية»[7].

ورغم أن الدكتور لويس ناقل لوجهة النظر هذه عن الكتابات الاستشراقية الحديثة ، التى كتبها صهاينة وأشباه صهاينة ، والتى أشرنا إلى

---

(٧) [التضامن] العدد ٦ ص ٦٨

قيمتها عند تقويمنا لقيمة « المصادر » التى استند إليها فى « دراسته » .. ورغم الشذوذ الذى يبدو فى موقف من يأتى ليعارض المصادر التاريخية التى كتبها العلماء والمفكرون والمؤرخون بتقارير الجواسيس وملفات أجهزة الأمن والاستخبارات الاستعمارية .. رغم كل ذلك فإننا سنمضى لننظر فيما استند إليه الذين قالوا « بإيرانية » جمال الدين ، لنرى هل لهذه « الأوراق » حظ من الصدق يكسبها شيئا من الاحترام ! ..

فى دراسة الدكتور لويس هناك تركيز على « أوراق » أربعة تقول إن جمال الدين **ليس أفغانيا .. أو تشكك فى أفغانيته** .. فلننظر فى هذه « الأوراق » ..

١ ـ « الورقة » الأولى هى ذلك « التقرير الذى كتبه موظف فى حكومة كابول سنة ١٨٦٨ م كان يعمل جاسوسا لحساب الانجليز ، والتقرير بعنوان [سجل بأوصاف السيد الرومى] .. »[٨] .. وكما سبق وتحدثنا عن هذا التقرير ، فليس فيه ما يدل على أن المعنى به هو جمال الدين ، فهو يتحدث عن « سيد رومى » ، أى « شريف تركى » .. وهذا تناقض ، لأن « السيد » هو العربى من آل بيت الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن يكون « التركى » عربيا من آل بيت الرسول ! .. ثم إن هذا التقرير يصف « السيد الرومى » سنة ١٨٦٨ م بأنه « يتكلم التركية بطلاقة » .. ومعروف ـ كما ذكر الدكتور لويس ـ أن جمال الدين عندما زار الآستانة ـ بعد ذلك التاريخ .. لم يكن باستطاعته أن يلقى محاضرته فى « دار الفنون » باللغة التركية « لأن معرفته باللغة التركية كانت ناقصة » ! .. فكتب هذه المحاضرة التى ألقاها فى سنة ١٨٧٠ باللغة العربية[٩] .. ثم .. **أليس من البديهى أن**

---

(٨) [التضامن] العدد ١ ص ٥٤ .

(٩) [التضامن] العدد ٥ ص ٦٧

يكون كاتب التقرير ـ وهو أفغانى الجنسية ـ أقدر على اكتشاف «إيرانية» من يتحدث عنه ـ إذا كان إيرانيا ـ والأفغانيون والإيرانيون أبناء أرومة واحدة، ومتجاورون، يتكلمون لغة واحدة ـ من قدرته على اكتشاف «روميته» ـ عثمانيته وتركيته ـ ؟!.

إن هذه الورقة ليس فيها ما يدل على أن المعنى منها هو الأفغانى.. وما بها من أوصاف لا ينطبق عليه.. ثم إنها تتحدث عن «رومى».. وليس عن «إيرانى».. فهى ساقطة ـ بكل المقاييس ـ من قائمة الأوراق التى يسوقها أصحابها للتدليل على «إيرانية» جمال الدين.

٢ـ والورقة الثانية هى «تقرير لجاسوس آخر لحكومة الهند الانجليزية، يظن أنه أفغانى، منشور فى «موجز وثائق كابول».. وحظ هذه الورقة من الاختصاص بالأفغانى كحظ سابقتها.. فهى الأخرى تتحدث عن «الحاج السيد الرومى»[10].. وليس فيها ما يدل على أن المعنى هو جمال الدين!

٣ـ أما الورقة الثالثة، فيشير إليها الدكتور لويس بقوله: «إن قنصل إيران فى القاهرة زود الأفغانى فى يوليو سنة ١٨٧١ م بجواز سفر إيرانى ليزوده به استانبول [والجواز مصور فى وثائق وزارة الخارجية البريطانية].. مما يوحى بأن الأفغانى، رغم انتحاله لقب الأفغانية، كان محافظا على جنسيته الايرانية..»[11].

وهذه الورقة ـ جواز السفر ـ تستحق منا وقفة، تكشف زيفها مثل باقى الأوراق التى تساق للدلالة على «إيرانية» جمال الدين.

---

(١٠) [التضامن] العدد ٣ ص ٧١

(١١) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٤

وبادئ ذى بدء ، فنحن نقول : إن حمل الإنسان المفكر والمناضل لجواز سفر من دولة ما لا ينهض دليلا على أنه من مواليد تلك الدولة بأى حال من الأحوال . فكثيرون من الذين تسوء علاقاتهم بوطنهم الأصلى ، والذين يناضلون ضد النظم السياسية السائدة فى مواطنهم الأصلية يحملون جوازات سفر مستخرجة من بلاد أخرى ، دون أن يكونوا مواطنين فيها . فضلا عن أن يكونوا من مواليدها ؟ ! .. ذلك أمر شهير.. وكثير ! ..

ثم إن لدينا على هذه « الورقة » ـ جواز السفر ـ الذى لم يقدم لنا الدكتور لويس صورته .. ولكننا نقلناها عن [دائرة المعارف الشيعية الإسلامية] [12] .. وألحقناها بدراستنا هذه لترى فيها القراء ما رأيناه بها من أدلة التزييف ! ـ إن لدينا على هذه « الورقة » ما يثبت أنها « مزورة ومزيفة » . أو مقطوعة الصلة بجمال الدين الأفغانى ؟ ! .. فهى :

(أ) مكتوبة بالفارسية ، ومطبوعة بالمطبعة . والاسم المستخرجة له ـ وهو مكتوب بالقلم ـ هو : « السيد المحترم جمال الدين » .. وليس فى التذكرة ما يثبت أن جمال الدين هذا هو جمال الدين الأفغانى ؟ ! .. ولقد كان الأفغانى أحرص ما يكون على ذكر لقب « الحسينى » عقب اسمه « جمال الدين الحسينى » .. فلقب « الحسينى » كان عنوان انتساب جمال الدين إلى آل البيت .. ولقد كان الرجل ـ كما يقول محمد عبده ـ : « فخورا بهذا النسب .. لايعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه من سلالة ذلك البيت الطاهر.. » [13] .. فما الذى يثبت أن هذه الورقة مستخرجة لجمال الدين الأفغانى ؟ ! .. ولم لا تكون خاصة بآخر اسمه جمال الدين ؟ ! ..

---

(١٢) صنفها الأستاذ حسن الأمين . انظر المجلد الثانى جـ ٦ ص ١٤ .

(١٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(ب) فى هذه «الورقة» ، وأسفل الاسم ، عبارة : «متوجه إلى اسلامبول» .. الأمر الذى يعنى أنها قد استخرجت «جواز سفر» و«تذكرة مرور» لـ «جمال الدين» المتوجه إلى عاصمة الدولة العثمانية . فإذا علمنا أن تاريخ استخراج هذه «التذكرة» ـ كما هو ثابت عليها ، فى أسفلها ـ هو : «فى يوم السبت ١٣ جماد أول سنة ١٢٨٨هـ» .. وبحثنا فى سيرة جمال الدين الأفغانى عن حاله فى ذلك التاريخ ، تأكد لنا أن لا علاقة للأفغانى بهذه «التذكرة» ، التى إما أن تكون «مزيفة» ، أو خاصة بآخر يحمل اسم «جمال الدين» ! .. ففى ذلك التاريخ ـ ١٣ جماد أول سنة ١٢٨٨هـ ـ وهو الذى يوافق ٣١ يوليو سنة ١٨٧١م ـ كان الأفغانى قد استقر بمصر ، التى جاءها فى أول محرم سنة ١٢٨٨هـ (٢٣ مارس سنة ١٨٧١م) .. وهو قد جاء مصر ، فى ذلك التاريخ ، منفيا بأمر صادر من الصدر الأعظم وبإرادة سلطانية من السلطان عبدالعزيز .. والمعركة ضده كانت لاتزال قائمة فى الآستانة .. ولجنة من هيئة كبار العلماء لازالت تجتمع لتؤلف ضده الكتب ولتصدر الفتوى بأنه «مرتد يجب قتله إذا لم يتب» عن آرائه فى محاضرة «دار الفنون» ! .. فهل من المعقول أو المقبول أو المتصور أن يستخرج الأفغانى جواز سفر إيرانى ليذهب إلى «اسلامبول» فى ذلك التاريخ ، وفى ظل تلك الظروف والملابسات ؟ !! .. ثم إن الثابت ، فى سيرة الرجل ، أنه قد لازم مصر لم يغادرها ، لا إلى «اسلامبول» ولا إلى غيرها منذ جاءها منفيا من الآستانة حتى نفى منها سنة ١٨٧٩م ..

(جـ) ثم إن الرجوع إلى حسابات الشهور القمرية يوجه إلى هذه «التذكرة» طعنا جديدا «بالتزييف والتزوير» .. فهى تقول إن يوم الثالث عشر من جماد أول هو يوم السبت ، بينما كان هذا التاريخ موافقا ليوم الاثنين . فلقد بدأ شهر جماد أول ، ذلك العام ، يوم الأربعاء ـ ١٩ يوليو

سنة ١٨٧١ م – ١٣ أبيب سنة ١٥٨٧ قبطية[١٤] – .. ووجود فارق يومين بين حسابات الشهر الثابتة وبين ما فى « التذكرة » يقطع بزيفها وتهافتها .. وهو ليس بالفرق الذى يمكن أن يعزى للاختلاف – بسبب الاعتماد على رؤية الهلال – بين « المواقيع والمطالع » وبين « الحساب الفلكى » للشهور . فذلك الاختلاف لا يتعدى اليوم الواحد ، عادة ، عندما يحدث ، ثم يعود الاتفاق فى الشهر التالى ! ..

(د) وأيضا .. فإن كل الذين قالوا ويقولون « بإيرانية » جمال الدين ، قد عللوا انتسابه إلى أفغانستان ، واشتهاره بالأفغانى .. عللوا ذلك بأن الرجل كان حريصا على إخفاء « إيرانيته » ليخفى « شيعيته » ، حتى يستطيع أن يلعب الدور الذى أراد فى إطار العالم السنى .. فإذا أخذنا منطقهم هذا ، كان من حقنا أن نسألهم : هل يتسق مع هذا المنطق أن يستخرج جمال الدين جواز سفر إيرانى ليذهب به إلى اسلامبول ، عاصمة الإسلام السنى والخلافة السنية ، فى تاريخ كانت المعركة قائمة على أشدها بينه وبين مشيخة الإسلام السنى ؟ ! ..

هل هذا معقول ، ياعزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ...

(هـ) وأخيرا .. فإذا كان الأفغانى قد حمل فى سنة ١٨٧١ م جواز سفر يثبت إيرانيته .. وأنه كان فى ذلك التاريخ – وفق عبارة الدكتور لويس « محافظا على جنسيته الايرانية » .. فلم ظل الجميع ، فى الشرق والغرب ، يصدقون « أفغانيته » ؟ ! .. ولم لم تظهر دعوى « إيرانيته » إلا فى سنة ١٨٩٦ م ؟ ! ..

---

(١٤) انظر تقويم ذلك العام فى [كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالقبطية والافرنكية] ص ١٣٣٦ – وهو من تأليف محمد مختار باشا المصرى – الطبعة التى حققناها . بيروت سنة ١٩٨٠ م .

إن من « يحرص على جنسيته الإيرانية » .. ومن يحمل « جوازات سفر إيرانية » ، ليس هو الذى يخفى ايرانيته .. وليس هو الذى يجمع الناس على تصديق انتسابه إلى أفغانستان .. فهذه الأوراق ـ على فرض صحتها ـ ليست خاصة بجمال الدين ! ..

٤ ـ أما الورقة الرابعة ، فيقول الدكتور لويس : إنها « رسالة فى الصناعات » ، من تأليف الشيخ أحمد الأحسائى ، نسخها جمال الدين بيده أيام إقامته ببغداد ، ووقعها ـ كناسخ ـ بإمضائه : « جمال الدين الحسينى » . ويذكر الدكتور لويس أن الأفغانى وضع كلمة « الأستانبولى » بعد اسمه .. وأن هذه الكلمة قد شطبت ، ووضع عليها ـ بالحبر الأحمر ـ كلمة « الكابولى » ـ نسبة إلى « كابول » ـ عاصمة أفغانستان ـ كما أن كلمة « بغداد » قد شطبت هى الأخرى واستبدلت بكلمة أخرى غير مقروءة .. ثم يعلق الدكتور لويس على هذا الموضوع فيقول ـ بعد أن نسب عمليات الشطب والاستبدال إلى الأفغانى ـ : يقول : « وهكذا بدأ جمال الدين الأسد آبادى الإيرانى ، لأمر ما ، يخفى منشأه الحقيقى وينتحل جنسية غير جنسيته .. »[١٥]

ولو كان الدكتور لويس على دراية « بالمخطوطات » وما يصنع « النساخ » بها .. ولو استشار أهل الذكر من ذوى الدراية « بالخطوط » لتثبت قبل أن يقول ما قال .. ذلك أن المتصور ، من خلال كلامه ، أن الأفغانى قد وقع على المخطوطة ـ كناسخ ـ باسمه : « جمال الدين الحسينى » ـ كما كانت عادته فى التوقيع ـ ثم جاء القراء للمخطوطة فتنازعوا ، كل منهم يريد أن يشرف موطنه بنسبة جمال الدين إليه .. فالبغدادى منهم قد كتب

---

(١٥) [التضامن] العدد ٣ ص ٦٨ .

« البغدادى » .. ثم جاء من شطب ما وجد وكتب « الاستانبولى » .. ثم جاء من شطبها وكتب « الكابولى » .. فهذه أمور مألوفة من القراء الذين يبيحون لأنفسهم العبث بالمخطوطات .. وحرام أن نتخذ هذا « العبث » سبيلا إلى ما هو أشد منه فى تاريخ الرجال ؟ ! ..

تلك هى « الأوراق » الأربع التى ضمتها « الملفات السرية الأوربية » . التى اعتمد عليها الذين ادعوا « إيرانية » جمال الدين .. وهم الذين تبعهم على دربهم هذا ، الدكتور لويس ..

لكن هذه « الملفات السرية الأوربية » قد ضمت تقارير أخرى وأوراقا كثيرة ، كتبها ساسة وقناصل وصحفيون ـ وأيضا جواسيس ـ قالت إن جمال الدين : « أفغانى بالمولد والمنشأ » .. ولقد جاء ذكر هذه التقارير والأوراق فى دراسة الدكتور لويس .. فلم لم يقف عندها ؟ ولم لم يقارن بينها وبين « الأوراق » الساقطة المتهافتة التى اعتمد عليها فى تقرير « إيرانية » جمال الدين ؟ ! .. على الأقل فإن التقارير والأوراق التى تقول إنه أفغانى . كانت تتحدث صراحة عن الرجل ـ عن جمال الدين ـ ولم تكن تتحدث عن « السيد الرومى » ، ذلك المجهول ؟ ! .. ثم إنها محفوظة فى ملفات المباحث وأجهزة الأمن والاستخبارات ووزارات المستعمرات فى عواصم الاستعمار ، ومن ثم فإنها من النوع الذى يحظى باحترام الدكتور لويس حتى ليسميها « وثائق » ! .. فلم لم يعر انتباهه لهذه التقارير والأوراق .. من مثل :

(أ) تقرير « السير فرانك لاسيلز » . قنصل انجلترا العام فى مصر . الذى كتبه لوزير خارجيته اللورد سالسبورى . عن جمال الدين الأفغانى . بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٩ م . بمناسبة نفى الأفغانى من مصر .. وفيه يقول : « أبلغنى الأمير توفيق أنه قد نبه : منذ فترة . إلى نشاط رجل أفغانى

اسمه جمال الدين ، يحرض الشعب على الثورة ..»[١٦].

(ب) رسالة مراسل «التايمز» بالقاهرة لجريدته ـ التي كتبها في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧٩م ، والتي نشرت في ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٩م . وهذا المراسل قد عرف الأفغاني عن قرب ، ولقيه ، وأجرى معه حديثا لجريدته .. وهو يتحدث عنه ، في هذه الرسالة ، فيقول : «... **فهو** - **بالميلاد** ، **أفغاني من كابول** ...»[١٧].

(جـ) تقارير الجواسيس الانجليز عن تحركات جمال الدين سنة ١٨٨٧م .. وهي تتحدث عنه كأفغاني ..

(د) تقرير حكومة الهند إلى الحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦م عن جمال الدين .. وهو يتحدث عنه ، أيضا ، كأفغاني[١٨].

إنها ـ هي الأخرى ـ تقارير وأوراق ، ضمتها «الملفات السرية الأوروبية» ، ولذلك كانت جديرة بالاعتبار من الدكتور لويس ! ..

* * *

لقد كانت معركة الأفغاني الكبرى ضد الاستعمار ، الخطر الرئيسي الذي تهدد الشرق العربي والإسلامي في ذلك التاريخ .. وكان تركيزه الأساسي ضد الاستعمار الانجليزي ، لما كان يمثله كرأس حربة للاستعمار الأوروبي يومئذ .. ولذلك فإن صراع الأفغاني مع الانجليز ، في أفغانستان ، والهند ، ومصر ، وإيران ، والسودان ، والعراق ، وتركيا ، قد جعل الانجليز أعرف الأوروبيين بجمال الدين .. فإذا كانت تقاريرهم وكتاباتهم عنه حتى سنة ١٨٩٦م ـ أي إلى ما قبل شهور من وفاته ـ تتحدث عنه

(١٦) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥.
(١٧) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥
(١٨) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٥

«كأفغانى المولد والنشأة» .. فمن أين ؟ .. ومتى ظهرت دعوى «إيرانية» جمال الدين ؟؟ ..

لقد جاءت هذه الدعوى من خصوم الأفغانى فى إيران ، وبالتحديد من الشاه الايرانى مظفر الدين [١٢٧٠ــ ١٣٢٥هـ ١٨٥٤ــ ١٩٠٧م] . أما متى ظهرت هذه الدعوى ، فبعد مقتل الشاه الايرانى ناصر الدين [١٢٤٥ــ ١٣١٣هـ ١٨٣١ــ ١٨٩٦م] ..

ففى ١٧ ذى القعدة سنة ١٣١٣هـ ــ ٣٠ إبريل سنة ١٨٩٦م ــ تقدم شاب يدعى ميرزا رضا ــ قيل إنه كان من تلاميذ الأفغانى ــ تقدم من الشاه ناصر الدين ، وهو يزور «مشهد عبد العظيم» ــ المكان الذى طرد منه هذا الشاه جمال الدين الأفغانى ، قبل سنوات ، على نحو مهين وبالغ القسوة ــ تقدم ميرزا رضا من الشاه فصرعه بخنجره ، وهو يصيح : «خذها من يد جمال الدين» ؟ ! ..

وكان الأفغانى يعيش يومئذ بالآستانة .. فأراد الشاه الجديد ـ مظفر الدين ـ استحضاره إلى ايران لمحاكمته والقصاص منه ، بتهمة التحريض والتدبير لقتل الشاه ناصر الدين .. لكن ، كيف السبيل إليه ، وهو بالآستانة ، فى ضيافة السلطان السنى عبد الحميد ؟ ! .. هنا تفتق ذهن البلاط الايرانى عن حيلة الادعاء بأن جمال الدين ايرانى الأصل والمولد ـ بل وشيعى المذهب ـ ومن ثم فمن حق ايران أن تطالب من الدولة العثمانية تسليمه لها لمحاكمته كمحرض ومدبر لاغتيال الشاه ناصر الدين .. ولقد أوعز الشاه مظفر الدين إلى حاكم «أسد آباد» الايرانية أن يكتب «عريضة» يوقع عليها نفر من أهل المدينة ، تشهد بإيرانية جمال الدين .. ثم أرسلت هذه «العريضة» إلى الآستانة ، ورفعت

إلى السلطان عبدالحميد بواسطة «علاء الملك» ـ السفير الايرانى فى تركيا ..

تلك كانت بداية الدعوى .. وهذا هو مصدرها .. ومنها بدأت عملية التلفيق والجمع لشهادات نفر من الناس ـ بعضهم زعم أنه من أقارب جمال الدين القاطنين فى «أسد آباد» الايرانية ـ ثم طبعت هذه الشهادات فى الكتاب الذى حمل عنوان [جمال الدين الأسد آبادى ـ المعروف بالأفغانى] ـ وهو الكتاب الذى سبق وأشرنا إلى ما يحمله من تناقضات وقصص واهية تجعله أدخل فى «العبث» وأبعد ما يكون عن ما يلزم المراجع والمصادر من تماسك يكسبها الاحترام ؟! ..

وكما كانت تلك هى بداية الدعوى .. فلقد كان هذا «الكتاب» عمدة الذين زعموا «إيرانية» جمال الدين ! .. أما قبل هذا التاريخ ـ الذى سبق وفاة الأفغانى بأقل من عام ـ فلم تكن هناك «ورقة» أو دعوى تتحدث عن «إيرانية» جمال الدين .. بل إن كتاب [جمال الدين الأسد آبادى] ذاته يحدد ويعلن أن مقتل الشاه ناصر الدين كان السبب الذى أدى ـ كما يقول ـ «إلى كشف حقيقة جمال الدين .. وانه ايرانى المولد والمنشأ ـ شيعى العقيدة والمذهب .. » .. بل ويعترف أن هذه الدعوى قد مثلت أمضى أسلحة خصوم جمال الدين فى صراعهم ضده .. ذلك «أن خصوم جمال الدين ـ حينما أخذوا يناوئونه ويدسون له ـ لم يجدوا شيئا يغمزونه به إلا كونه إيرانيا شيعيا ـ وأنه يكذب ويدعى أنه أفغانى سنى حتى يجد له طريقا فى تركيا والأقطار الإسلامية التركية! .. »[19]

---

(١٩) [جمال الدين الأسد آبادى] ص ٢٥ ـ ٣٦.

.. لقد أراد الشاه مظفر الدين ، بهذا الادعاء ، «إعدام جسد» جمال الدين الأفغانى ..

.. وأراد خصومه الفكريون ، من شيوخ الرجعية العثمانية ، وعلى رأسهم الشيخ أبوالهدى الصيادى [١٢٦٦ـ ١٣٢٧هـ ١٨٤٩ـ ١٩٠٩م] ـ بتلقفهم هذا الادعاء ـ «إعدام حركة البعث والتجديد الاسلامى» التى قادها وجسدها جمال الدين ..

.. ثم جاء الخصوم الألداء لتيار «الصحوة الإسلامية» وحركة «الاحياء الاسلامى» ، فتلقفوا ، هم أيضا هذا الادعاء لتشويه هذه «الصحوة» وهذا «الإحياء» بإهالة التراب على الرمز الذى ارتاد ميدانها، وذلك بإظهاره فى صورة «الكاذب ـ الأفاق» !

لقد بدأ الشاه مظفر الدين القصة بالعريضة ـ التى تشبه «شهادة شيخ الحارة» ـ تلك التى كتبها «عصدة» «أسد آباد» .. وتلقف أبو الهدى الصيادى الخيط ، فكتب إلى رشيد رضا ، عقب وفاة الأفغانى ، يقول : «إنى أرى جريدتك ـ [المنار] ـ طافحة بنقائق المتأفغن جمال الدين الملفقة . وقد تدرجت به إلى الحسينية التى كان يزعمها . وقد ثبت فى دوائر الدولة رسميا أنه مازندرانى ـ [نسبة إلى مقاطعة مازندران الايرانية] ـ من أجلاف الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية..»[٢٠]] .. ثم جاء نفر من صبية المستشرقين ـ صهاينة وأشباه صهاينة ـ فساروا على درب الادعاء «بإيرانية» جمال الدين .. حتى كانت الطبعة العربية لدعاواهم هذه ، تلك التى خرج علينا بها الدكتور لويس عوض .. والتى جعل عنوانها : [الايرانى الغامض فى مصر] ؟ !

---

(٢٠) [تاريخ الاستاذ الإمام] جـ ١ ص ٩٠

تلك هي قصة « إيرانية » جمال الدين .. وذلك هو حظها العظيم من التهافت والسقوط ! ..

* * *

وكما أن « إيرانية » الأفغانى - لو كانت حقيقة - ما كانت لتعيبه ، فكذلك « شيعيته » - لو كانت هى مذهبه - ما كان لها أن تنقص من قدره فى نظر المسلمين المستنيرين ! .. فتراث الإسلام الفكرى والعلمى والحضارى يزدان بأعلام الشيعة ، فى كل الميادين ، وعلى مر العصور .. لكن .. كما كان الهدف من دعوى « ايرانيته » هو إظهاره فى صورة « الكاذب » ، كذلك كان الهدف من دعوى « شيعيته » ! ..

ومن البداية ، نريد أن نؤكد أن جمال الدين لم يكن متمذهبا بالمعنى الضيق لمصطلح « المذهب » ، كما شاع ويشيع فى حياتنا الفكرية والعملية .. وإنما كان مسلما مجتهدا .. لقد كان يأخذ إسلامه من المصادر الأصلية للإسلام ، ولا يقلد فى ذلك مذهبا من مذاهب المسلمين .. كان « يشرب الماء من النهر ، لا من الساقية ! » .. لكن الرجل لم يكن شيعيا بحال من الأحوال ، وإن ربطته بمجتهدى الشيعة علاقات كالتى ربطته بعلماء السنة فى العصر الذى عاش فيه .. كان مسلما مجتهدا .. لكن نشأته ، وتكوينه الفكرى ، واختياره قد جعل « السنة » - بالمعنى العام - الإطار الذى مارس فيه الاجتهاد ! ..

ولنا على هذا الرأى أدلة كثيرة .. منها ما أخذناه من شهادات العلماء العدول الذين عاصروا جمال الدين وزاملوه وشاركوه فكره ونضاله وجهوده - ونموذجهم الذى نختاره هو الأستاذ الامام محمد عبده - ومنها ما استقيناه من المصدر الأوثق والمرجع الأول ، وهو فكر جمال الدين ذاته ، الذى يحدد الإطار المذهبى الذى عاش فيه ..

● [فالعروة الوثقى] ـ الجمعية السرية ـ كانت رئاستها للأفغانى .. وكان محمد عبده نائبه فى رئاستها .. وعندما سأل أحد أعضائها محمد عبده عن « مذهب » [الجمعية] كتب إليه يقول : « إننا سنيون . أشعريون أو ما تريديون . وإننا فى أعمال العبادات دائرون على المذاهب الأربعة ... وفى المعاملات على مذهب حاكم البلاد . إن وافق واحدا منها . فإن كان على غيرها توقينا المرافعة إليه ما أمكننا .. [٢١] » ...

فهى جمعية سنية المذاهب . إن فى العبادات أو المعاملات ..

● وعندما ترجم الاستاذ الامام لأستاذه جمال الدين . كتب ـ انطلاقا من « كمال الخبرة وطول العشرة » .. ـ حسب تعبيره ـ عن مذهب جمال الدين يقول : « ... أما مذهب الرجل فحنيفى ـ [أى مسلم موحد] حنفى . ـ [والمذهب الحنفى هو السائد فى أفغانستان] ـ وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا . لكنه لم يفارق السنة الصحيحة . مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية .. [٢٢] » .

● وحتى كتاب [جمال الدين الأسد آبادى] ـ الذى يزعم « إيرانية » جمال الدين .. تراه قد ضم « شهادة » لأحد الأحرار الايرانيين المشتغلين بالمعارف فى أذربيجان ـ وهو الميرزا السيد حسين خان عدالت ـ تثبت أن جمال الدين كان مجتهدا . لم يضع نفسه فى الإطار المذهبى الضيق ... يقول صاحب هذه « الشهادة » : « وكان كل من يسأل عن مذهب السيد . يجيبه : « بأنى مسلم » ! . وحدث أن سأل أحد علماء السنة السيد قائلا ماعقيدتك ؟ فأجاب : « إنى مسلم ! » . فسأله ثانية : من أى المذاهب

---

(٢١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ١ ص ٦١٤ .

(٢٢) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٣٥١ .

أنت ؟ فأجاب السيد - إنى لم أعرف فى أئمة المذاهب شخصا أعظم من حتى أسلك طريقته ! .. إنى أوافق بعضهم فى أمر ، وأخالفهم فى أمور ! .. »[٢٣].

فرغم اتسام الإجابة بحدة الجدل ، إلا أنها تنم عن الاجتهاد الذى يرفض التمذهب - بالمعنى الضيق - ويأبى التقليد ! ..

● وهناك الكتب التى شرحها الأفغانى لتلاميذه فى سنوات إقامته بمصر ، وهى التى تعكس تكوينه الفكرى واختياره المذهبى ، بالمعنى العام .. وهذه الكتب - التى ضمت مجموعة من عيون كتب المنطق والهيئة والتصوف والفقه وأصوله - هى من مصادر الفكر السنى - وهى ، لذلك ، شاهد على أن « السنة » كانت « خياره الفكرى والمذهبى » .. وليس الشيعة والتشيع ... فمن هذه الكتب :

١ - [الرسالة الزوراء] - فى التصوف - للإمام السنى جلال الدين الدوانى .

٢ - [شرح القطب الرازى على الشمسية] - فى المنطق - والشارح - وهو القطب الرازى - سنى .. وصاحب « المتن » - [الرسالة الشمسية] - هو المفكر السنى نجم الدين أبو الحسن على بن عمر القزوينى الكاتبى ، المعروف بدبيران ..

٣ - [مطالع الأنوار] - فى المنطق - للمفكر السنى سراج الدين أبو الثناء محمود بن أبى بكر الأرموى ..

٤ - [سلم العلوم] - فى المنطق - للعالم السنى محب الله بن عبد الشكور البهارى .

---

(٢٣) [جمال الدين الأسد آبادى] ص ١٦٢ .

٥ ـ [الهداية] ـ في المنطق ـ للعالم السني أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري ..

٦ ـ [الإشارات] لابن سينا ..

٧ ـ [حكمة العين] ـ في الالهي والطبيعي ـ للعالم السني الكاتبي القزويني ..

٨ ـ [حكمة الاشراق] ـ في التصوف ـ للسهروردي المقتول ..

٩ ـ [شرح الدواني للعقائد العضدية] ـ في علم الكلام ـ للإمام السني جلال الدين الدواني ..

١٠ [التوضيح ـ بحاشية التفتازاني] ـ في فقه الأحناف ـ لصدر الشريعة الأصغر عبيد الله بن مسعود بن تاج الشريعة ..

١١ ـ [التلويح في كشف حقائق التنقيح] ـ في أصول الفقه ـ للعالم السني سعد الدين التفتازاني .

١٢ ـ [متن الجغميني] ـ في الهيئة ـ للعالم السني أبو علي محمود بن محمد ابن عمر شرف الدين الجغميني ..

١٣ ـ [العقائد النسفية ـ بشرح التفتازاني] ـ وهو من أمهات كتب السنة (الأشعرية) في العقائد ..

١٤ ـ [تذكرة الطوسي] ـ في الهيئة ـ للعالم الشيعي نصير الدين الطوسي .. (٢٤)

---

(٢٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] جـ ١ ص ٣٢ و[معجم المطبوعات العربية والمعربة] لسركيس . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م . و[كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون] لحاجي خليفة . طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م . و[التفسير ورجاله] لمحمد الفاضل بن عاشور . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . و[القاموس الإسلامي] لأحمد عطية الله . طبعة القاهرة .

فهذه الكتب السنية ، فى أغلبيتها الساحقة ، وفيها أمهات لكتب العقائد السنية ـ والأشعرية بالذات ـ دليل على التكوين الفكرى والخيار المذهبى ـ السنى ـ لجمال الدين الأفغانى ..

● وفى شرح الأفغانى وتعليقاته على أحد هذه الكتب [شرح الدوانى للعقائد العضدية] تشيع العبارات التى تقطع « بالخيار السنى » لجمال الدين .. من مثل قوله . فى الحديث عن مشايخ « مذهبه » : « .. وهذا هو دأب مشايخنا ، كالشيخ الأشعرى ، والشيخ أبى منصور ـ [الماتريدى] ـ ومن ماثلهم ، لا يأخذون قولا حتى يسددوه ببراهينهم القوية ، على حسب طاقتهم ! ..[25] » .

● وكذلك تعبيره ، الذى يتكرر كثيرا فى تعليقاته على [شرح الدوانى للعقائد العضدية] ، عندما يشير إلى أئمة السنة ـ والأشعرية بالذات ـ فيقول عنهم : « أصحابنا ! » ...

تلك بعض من الأدلة التى تزكى الرأى القائل بأن الخيار المذهبى لجمال الدين الأفغانى كان « السنة » .. وأن اجتهاده كان فى ميدانها ... وأن الرجل لم يكن شيعيا بحال من الأحوال ...

ثم .. إن هناك أدلة أخرى ، يمكن أن تضاف إلى هذه الأدلة ، وهى التى وردت فى فكر الأفغانى عندما عرض لفكر الشيعة وآرائهم .. فنبرة النقد فيها ، وموقف الرفض لها دليل ، هو الآخر ، على خياره السنى .

● فالذين زعموا أن جمال الدين شيعى ـ قالوا عنه ـ كالدكتور لويس عوض ـ إنه باطنى .. يتخلق بخلق « التقية » ، الذى يجعل الانسان يظهر

---

(٢٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] جـ ١ ص ٢٢٢ .

غير ما يبطن ! .. لكننا واجدون للأفغانى فكرا واضحا وحاسما يرفض « التقية » وينتقد كتمان ما يجب أن يعلن من الآراء والأخلاق .. يقول « إنى لا أرى فى هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتمانه لازما ، إلا ما كان فى علانيته شينا ومعرة . **ولا يكون الكمال النسبى فى البشر إلا إذا كثر إعلانهم وقل كتمانهم** . فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها لا خير فيها . ولا هى بالدولة الأمينة من أمانتها وحسن تصرفها . ورجل يرى كل شىء يقال له . أو يجب أن يقوله سرا مكتوما . لا يرجى إلا نفاقه . وما هو بالرجل الرجال ! ، ولا بشبه رجل . [ومن أحب فليعلن] والمحبة هنا على مطلق المعنى ، لكل شىء حق ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات . فمن أحب الصدق من القول لا يكتم به ، ولا يخشى بأسا من إعلانه . بالعكس ، إذا أحب الكذب والكاذب فخليق به أن لا يعلن ذلك ! »[٢٦] .

هذا عن رفضه « للتقية » ـ التى يعتبرها الشيعة دينا يتدينون به . ويقولون إن الإمام جعفر الصادق [٨٠ ـ ١٤٨ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٥ م] قد قال عنها : « التقية دينى ودين آبائى » ! ـ لقد رفضها الأفغانى . بل ورفض فلسفتها ! ..

● وأى قلم يتحلى بالأمانة يتهم جمال الدين « بالباطنية » . ويزعم أنه « باطنى » .. **وفى فكر الرجل إدانة صريحة . بل وحادة « للباطنية » ـ وهى من فرق الشيعة ـ الاسماعيلية ـ ؟ !** .. لقد صنفهم فى عداد الماديين ـ الطبيعيين ـ وعد ظهورهم بالعالم الإسلامى من أسباب الانهيار الحضارى الذى أصاب حضارة المسلمين ، فكتب فى رسالة [الرد على الدهريين]

---

(٢٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٦ .

يقول : إنه «لما كان القرن الرابع بعد الهجرة ، **ظهر النيشريون (الطبيعيون) بمصر تحت اسم الباطنية** ـ [يشير إلى الشيعة الاسماعيلية ودولتهم الفاطمية بمصر] ـ وخزنة الأسرار الإلهية . وانبثت دعاتهم فى سائر البلاد الإسلامية ، خصوصا بلاد إيران .. وكان إذا سقط الساقط من المغرورين فى حبالة مرشدهم الكامل فأول ما يلقنه المرشد قوله : إن الأعمال الشرعية الظاهرة (كالصلاة والصيام ونحوها) إنما فرضت على المحجوبين دون الوصول إلى الحق . والحق هو المرشد الكامل ، فحيث أنك وصلت إلى الحق فإليك أن تلق عن عاتقك ثقل الأعمال البدنية ! .. **فإذا قرر المرشد أصول الإباحة فى نفوس أتباعه التمس لهم سبيلا لإنكار الألوهية وتقرير مذهب النيشرية (الدهريين) ! ..»**[27]

هذا هو رأى الأفغانى فى الباطنية .. فهم ، عنده ، إباحيون ، متحللون من تكاليف الإسلام ، بل ومنكرون للألوهية ، ماديون ، دهريون ! .. وهذا هو تسفيه «لنظرية المرشد الكامل» ، التى لا يتورع الدكتور لويس عوض عن القول بأن الأفغانى قد اعتنقها فى «صدر شبابه»[28] .. دون أية إشارة إلى أى دليل أو مرجع ، حتى ولو كان «ورقة» من الأوراق التى كتبها الجواسيس والمخبرون ، والتى تحولت إلى «مصادر» ينقض بها إجماع العلماء فى «دراسته» عن جمال الدين ؟ ! ..

● أما نقد الأفغانى للشيعة ، بوجه عام ، ورأيه فى غلوها بآل البيت .. وفى بعض من أصولها الاعتقادية .. فنحن نسوق لإثباته نصوصا ثلاثة من كتاباته :

---

(٢٧) المصدر السابق . ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢٨) [التضامن] العدد ١٤ ص ٧٨ .

أولها : ذلك الذى يلقى فيه نظرة تاريخية على نشأة التشيع ، ويتنقد فيه غلو الشيعة ، ويشير إلى خطر الانقسام الذى شطر المسلمين إلى سنة وشيعة على صمود الأمة أمام ما يواجهها من تحديات .. وفى هذا النص يقول : «لقد ظهر لآل البيت النبوى ، فى أوقات وأزمنة مختلفة ، أحزاب وشيع ، فنهم من ضل [كالمؤلهة] ، وهم قوم يقولون بألوهية على بن أبى طالب ، ومنهم (المفضلة) و(الغلاة) فى محبة أهل البيت ، وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال : «يهلك فينا أهل البيت : محب ، وغال ، وعدو قال» - [أى كاره] - .

أما المفضلة من الشيعة ، وهم يقلدون فى المذهب الامام جعفر الصادق .. فهذا الجمهور من المسلمين ، لمجرد تقليدهم للإمام جعفر ، ومغالاتهم فى حب الآل ، وتفضيلهم للإمام على ، لا يجب أن نخرجهم من عداد المسلمين .

ولقد تجسم أمر هذه الفروق فى الفروع ، وصارت واسطة للتفرقة والنزاع ، فللخصام فللاقتتال . تلك الأمور سهل وجودها جهل الأمة ، وسفه الملوك الطامعين فى توسيع ممالكهم .

أما مسألة تفضيل الإمام على ، والانتصار له يوم قتال معاوية ، وخروجه عليه ، فلو سلمنا أنه كان فى ذلك الزمن مفيدا .. فاليوم نرى أن بقاء هذه النعرة ليس فيها إلا محض الضرر ، وتفكيك عرى الوحدة الاسلامية ..

ياقوم ! وعزة الحق ، إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب لايرضى عن العجم ، ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة ، أو افترقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبى بكر ، وجميعهم لايحسنون أمر دنياهم ، «والناس أبناء ما يحسنون» ، وكذلك أبو بكر ، فلا يرضيه أن تدافع أهل

السنة عنه ، وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مر زمنها ، والتي تخالف روح القرآن الآمر أن يكونوا [كالبنيان المرصوص] . أما قضية التفضيل ، فلو استحقت البحث ، بعد تلك الأجيال ، لكني أقول لحل إشكالها : «إن أقصر الخلفاء عمرا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرا» ! فلو تولى الخلافة ، بعد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، علي بن أبي طالب ، لمات أبوبكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام والمسلمين بما استطاعوا أن يخدموه به ، رضوان الله عليهم أجمعين . حكمة الله في خلقه ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ..»[29]

ففي هذا النص الهام نرى جمال الدين :

١ ـ يضع الشيعة الاثنى عشرية ـ الجعفرية ـ بسبب تفضيلهم الامام علي ـ ضمن الهالكين بالغلو في محبة آل البيت .. وإن كان ينهى عن إخراجهم من عداد جمهور المسلمين بسبب هذا الغلو وهذا التفضيل .

٢ ـ ينتقد فكرة تفضيل الإمام علي في المقارنة بينه وبين الصحابة من الخلفاء الراشدين ، ويراها «مخالفة لروح القرآن الكريم» .. بل وينتقد بقاء تفضيله حتى على معاوية بن أبي سفيان ، لمرور زمن هذا التفضيل وانقضاء مبرراته .. فهو اليوم «نعرة ليس فيها إلا محض الضرر وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية ..» ..

ونقد «مسألة التفضيل» هو نقد لصلب المذهبية الشيعية .. والدعوة إلى تجاوزها تعني الدعوة إلى إلغاء المبرر الذي يميز الشيعة عن السنة ويقسم

---

(٢٩) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦ .

وحدة المسلمين فى العصر الذى نعيش فيه ؟ !

فأين هى «شيعية» جمال الدين التى يزعمها الذين لا يفقهون ؟ ! ..

وثانيها : أى ثانى النصوص التى نسوقها مثالا لنقد الأفغانى للشيعة وعقائدها ـ فهو ذلك النص الذى يرجع فيه «عقيدة الرجعة» ـ التى هى من عقائد الشيعة الاثنى عشرية ـ مع عقيدة التناسخ ـ إلى فكر «الباطنية» ـ الذين سبق ورأينا حكمه عليهم بإنكار الألوهية وإسقاط التكاليف ، وبأنهم طبيعيون دهريون ـ يقول الأفغانى عن «عقيدة الرجعة» الشيعية : «ولما كانت الرجعة ـ أى رجوع بعض الأئمة السابقين وتابعيهم ـ من الأصول الثابتة فى مذهب الإمامية ، والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا فى بلاد العجم مدة طويلة ، كان له بقايا فى النفوس ..»[30].

وهو يسوق هذا النقد فى معرض نقده لعقائد «البابية» ، التى جاءت فحملت عقائدها الكثير من المواريث الباطنية والأفكار الإمامية ! .

وثالثها : ذلك النص الذى يدعو فيه جمال الدين إلى إلغاء «العقيدة المحورية» للمذهب الشيعى ، وهى «عقيدة الإمام المعصوم» ! .. فمن المعروف أن الفرق الإسلامية غير الشيعية قد رأت أن مصدر الدين هو الشرع ، وأن الحجة فى إجماع الأمة ، على حين انفرد الشيعة بالقول إن المصدر هو الإمام المعصوم ، لأن الأمة من الممكن أن تجتمع على الضلال أو النسيان ، ولأن الشرع ـ بما فيه القرآن ـ لابد له من «قيم» معصوم ،

---

(30) [دائرة المعارف] لبطرس البستانى ، مادة «البابية» ـ وهى من تحرير جمال الدين الأفغانى .

وهو الإمام ؟ ! ...[٣١]

وفى نقد هذه العقيدة الشيعية المحورية ، بل ورفضها ، يقول الأفغانى : «كفى بالإيمان والشرع معلما . فيكفى ما نتيقنه من القرآن . فلا حاجة إلى المعلم المخصوص ، وهو الإمام المعصوم . ولسنا نحتاج إلى نائب عن الشرع إلا فى مجرد التبليغ . ثم من الشرع نفسه يكون العلم والأخذ ..»[٣٢]

تلك هى بعض نصوص جمال الدين الأفغانى ، التى تنتقد عقائد الشيعة الإمامية ، والجعفرية الاثنى عشرية ، بل وتنقض بعض الأصول الجوهرية فى تلك المعتقدات .. وهى نصوص لو وعاها وفقهها الذين زعموا أنه «شيعى» يتظاهر بأنه «سنى» ، لأراحونا من نقد ما كتبوا وتفنيد ما زعموا وأشاعوا عن جمال الدين ! ..

* * *

بل ، ليت أمر الدكتور لويس عوض قد وقف عند ترديد زعم الذين زعموا «شيعية» جمال الدين الأفغانى .. فلقد ذهب فزعم أنه كان «بابيا» فى فترة من فترات حياته[٣٣] .. وأنه قد «تعلم عند البهائيين .. كما تعلم عند الشيعة ..» وهو ينسب هذا الادعاء إلى «الوثائق» .. لكنه لا يشير ــ مجرد إشارة ــ إلى أى من هذه «الوثائق»[٣٤] .. ولذلك فليس أمامنا إلا أن نقدم للقارئ فكر جمال الدين الذى ينتقد البابية والبهائية .. والذى يسعه

---

(٣١) الطوسى (أبو جعفر) [تلخيص الشافى] جـ ١ ق ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، هامش. تحقيق السيد حسين بحر العلوم . طبعة النجف سنة ١٣٨٣ ــ ١٣٨٤ هـ.

(٣٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] جـ ١ ص ٣٠١

(٣٣) [التضامن] العدد ١٤ ص ٧٨

(٣٤) [التضامن] العدد ١ ص ٥٣ .

من آرائها وعقائدها .. والذى يرجع بعض هذه العقائد إلى فكر « الباطنية » المادى الدهرى .. والذى ينتهى إلى نقض مذهبهم من الأساس ..

ونحن نعجب من إغفال الدكتور لويس الإشارة إلى فكر الأفغانى هذا الذى جسد عداءه للبابية .. ففى « دراسته » يورد اسم المستشرق المجرى جولد سيهر ، فيرفض روايته عن الأفغانى ضمن ما رفض من روايات العلماء والمؤرخين وكبار المستشرقين .. وذلك يعنى أنه قد اطلع على ما كتبه جولد سيهر عن الأفغانى .. ومعروف أن هذا المستشرق قد كتب مادة « جمال الدين الأفغانى » فى [دائرة المعارف الإسلامية] . وفى هذه « المادة » قال جولد سيهر : إن جمال الدين « هو صاحب مادة البابية فى دائرة معارف البستانى » .. فلم لم يقرأ الدكتور لويس ما كتبه الأفغانى عن « البابية » فى [دائرة المعارف] التى أصدرها « المعلم بطرس البستانى » ؟ ! .. إن الأفغانى يقول فيها عن [البابية] إنها « دين ظهر فى بلاد العجم نحو سنة ١٨٤٣ م بدعوة رجل من أهل شيراز يعرف بالسيد على محمد .. **وهو خليط من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية** .. وكتابها (البيان) يحتوى على كثير من العربى المسجع وبعض الفارسى ، إلا أن العربى منه كان ملحونا . فلما سئل السيد على محمد عن سبب وقوع اللحن فى هذا الكتاب المنزل ـ [بزعمه] ـ مع أن اللحن نقص ؟ أجاب بأن الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة فى الزمن الأول . فعوقبت على خطيئتها بأن قيدت بسلاسل الإعراب . وحيث أن بعثتنا قد جاءت رحمة للعالمين ، فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين ، حتى الحروف والكلمات ، فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط ! .. **ولقد فشا بين البابيين التعدى والغدر .. فسفكوا دماء كثيرة** . وكانوا أشبه الناس بالفداوية الذين اشتهر أمرهم على عهد الفاطميين .. **ومن لوازم**

مذهبهم أن كل من خالفهم قدمه هدر .. والبابية تقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت فى الناسوت .. ووحدة اللاهوت مؤلفة ، على زعمهم ، من ١٩ أقنوما .. ورئيسهم الباب ، عندهم ، أعظم من محمد .. عليه الصلاة والسلام .. [٣٥]

فهل هو « بابى » ، ذلك الذى يراها « دينا » ــ أى أنها ليست مجرد فرقة فى إطار الإسلام ــ وأن هذا الدين « خليط من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية .. » .. وأن المتدينين به أهل « غدر وتعد وسفك للدماء » وأنهم أقرب إلى عقيدة النصارى ، فى الألوهية ، منهم إلى عقيدة الإسلام ؟ ! .. هل هو « بابى » ذلك الذى يقول هذا القول فى « دينهم » ، ويسخر كل السخرية من كتابهم (البيان) ؟ ! ..

وإذا جاز للدكتور لويس أن يعتذر بعدم إطلاعه على ما كتب الأفغانى عن « البابية » فى [دائرة معارف البستانى] ــ وهو عذر غير مقبول بالطبع ــ .. فهل يجوز له أن يحاول الاعتذار ــ مجرد المحاولة ــ عن تجاهله المتعمد الإشارة إلى ما كتبه الأفغانى ضد « البابية » و « البهائية » فى ذلك الكتاب الذى هو « عمدة » مراجعه فى القول بأن جمال الدين « إيرانى » وليس « بأفغانى » .. كتاب [جمال الدين الأسد آبادى] ؟ ! ..

لقد جاء ذكر هذا الكتاب مرات عديدة فى « دراسة » الدكتور لويس .. وهو فى هذه « الدراسة » قد اتهم الأفغانى بـ « البابية » .. وصمت عن أن يقول لقرائه شيئا عن رأى الأفغانى فى « البابية » وفى « البهائية » ، وهو الرأى الذى جاء بهذا الكتاب فى صورة « شهادة » « السيد الفاضل ميرزا حسين خان دانش ، الأصفهانى ، نزيل

---

(٣٥) [دائرة المعارف] ــ المعلم بطرس البستانى ــ مادة « البابية » .

الآستانة» . يقول هذا «الشاهد» ، الذى عاش مع الأفغانى فى الآستانة :
«... وعندما كان الحديث يدور حول الباب والبابية ، كان السيد - [جمال الدين] - يتبرى لتجريح عقيدتهم علنا . ومع أنه كان يطالب بتيسير فهم الدين الإسلامى ، فلم يكن يرى فائدة أو مزية للبابية ، فهو يقول : «ما مبلغ ما أبدى البابية من الهمة لتسهيل تكاليف الديانة المحمدية ، وأى خدمة أدوها للمسلمين ، إلا إبدالهم «القرآن» «بالبيان» ، وتغييرهم «مكة» «بعكة» ؟! ومثل هذا لا يمكن عده ، فى الحقيقة ، إصلاحا ، إذ لم يكن المسلمون بحاجة إلى دين جديد ، فالدين الإسلامى ، بمقتضى الزمان والمكان ، لم يكن بحاجة إلا إلى نوع من التبسيط والتيسير فحسب ، ولم تؤد معتقدات البابية إلى هذا الهدف أبدا ... يبقى أن تتمشى أحكام الإسلام وتتلاءم تعاليمه مع ظروف كل زمن وحاجته ، خوفا عليه من الزوال ، وهذا معنى ما قيل من أن الله يبعث على رأس كل قرن رجلا ليصلح أمر هذه الأمة...»[36] .

فكما لم يكن جمال الدين «إيرانيا» .. كذلك لم يكن «شيعيا» .. وهو ، أيضا ، لم يكن «بابيا» - كما زعم الزاعمون بغير دليل - .. وإنما كان الرجل : «مسلما .. مجتهدا .. مجددا» .. يسعى إلى تجديد «دنيا» المسلمين بواسطة تجديد «دينهم» ، وذلك بتأسيس تمدنهم على أساس متين وأصيل من الإسلام ..

فالاجتهاد والتجديد هو مفتاح شخصية هذا الرائد الذى ارتاد لأمته ميدان البعث والإحياء الإسلامى .. وليست المذهبية الضيقة الأفق ، كما زعم الزاعمون ..

---

(٣٦) [جمال الدين الأسد آبادى] ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

يقول الأفغانى عن الاجتهاد .. وضرورته .. وعن أهميته فى تجديد حياة الأمة : «ياسبحان الله ! إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضى عياض وغيره من الأئمة ؟ ! .. وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس - [هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم] - قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا ، وقالوا ، وأدلوا دلوهم فى الدلاء فى ذلك البحر المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم ، وتقارب مع عقول جيلهم ؟ . وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان .

ما معنى : «باب الاجتهاد مسدود» ؟ ! وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ ! وأى إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه بالدين ؟ ! أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث ؟ ! أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما ، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية ، وحاجيات الزمان وأحكامه ؟ ! ولا ينافى جوهر النص ؟ ! ..

لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجدين مجتهدين ، يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث ، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فيها وتدقيقاً .. لقد اجتهدوا وأحسنوا .. لكنهم لم يحيطوا بكل أسرار القرآن .. وما وصلنا من علمهم الباهر إن هو ، بالنسبة إلى ما حواه القرآن والحديث ، إلا كقطرة من بحر ، وثانية من دهر [والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده] وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

لابد من حركة دينية .. تهتم بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم

الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيق . وبعث القرآن وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور ، وشرحها على وجهها الثابت ، من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم ، دنيا وأخرى ولابد من تهذيب علومنا وتنقيح مكتبتنا ، ووضع مصنفات فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم ، لنستعين بها على الوصول إلى الرقى والنجاح . .»[٣٧].

ذلكم هو جمال الدين الأفغانى .. أكبر من أى إقليم من أقاليم عالم الإسلام .. وأعظم من أن يأسره إطار المذهبية الضيقة الأفق .

إنه حكيم الشرق ، وموقظه .. وفيلسوف الإسلام .. وداعية تجديد «دنيا» المسلمين بواسطة تجديد «الدين» ! .

---

(٣٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨ .

الجامعة الإسلامية

إذا كانت « الثورة الثقافية » ـ فى الفكر الاسلامى ـ التى دعا إليها جمال الدين الأفغانى . هى التى جلبت عليه عداء أهل الجمود من الاسلاميين .. فإن دعوته إلى « الجامعة الاسلامية » كانت « الجريمة الكبرى » فى نظر « المتغربين » من « الإقليميين » و« العلمانيين » ! ..

فدعوة « الجامعة الاسلامية » تعنى : أن للإنسان المسلم انتماء إسلاميا يحدد هويته وهوية الكيان السياسى والحضارى الذى يمنحه الولاء .. وهذا الانتماء الاسلامى له مردود يتجسد فى خيارات :

● فهو يعنى رفض الوقوف بفكرة « الوطن » عند حدود دائرة « الاقليم » .. بل ويتجاوز دائرة « الوطن القومى العربى » إلى « عالم الاسلام » ، الذى يضم الأقاليم » و« القوميات » ..

● وهو يعنى وجود « طابع حضارى » لهذا « الانتماء الاسلامى » . فعلاقات الأقاليم الاسلامية والقوميات التى يضمها عالم الاسلام لاتقف عند حدود حسن الجوار ، أو المصالح الأمنية والاقتصادية .. وإنما تعنى ، فوق ذلك ، وجود « وحدة فى الحضارة الاسلامية » ، تجعل من عالم الاسلام هذا ، بأقاليمه وقومياته منظومة حضارية متميزة بين الحضارات

العريقة القائمة على ظهر الكوكب الأرضى فى العصر الذى نعيش فيه .

● وهذا الانتماء الاسلامي . يعنى أن « العلمانية » . بمعنى فصل الدين عن الدولة . هى خيار أوربى لا يمكن قبوله فى عالم الاسلام . ذلك لأن الاسلام . وإن رفض « الكهنوت » و« السلطة الدينية » . على النحو الذى عرفته أوروبا فى عصرها الوسيط . إلا أنه دين ودنيا . بمعنى أنه لم يدر ظهره لشئون الحياة المدنية وتنظيم المجتمع وسياسة الدولة وعمران الأرض . وإنما وضع لذلك الأطر والفلسفات والمثل والمقاصد والغايات . ثم ترك للأمة . بالعقل والتجربة . حرية الابداع فى شئون دنياها . فى حدود هذه الأطر وفى ضوء روح الشريعة التى سنها الشارع سبحانه وتعالى . . .

● ومن ثم فإن هذا الانتماء الاسلامي يعنى أن مشروعنا الحضارى المستقبلى وتمدننا المستهدف والنهضة التى نسعى لنخرج بها من « التخلف الموروث » ومن « الغزوة الأوروبية » . لا يمكن أن يكون هو المشروع الحضارى الغربى . لا لأنه قد شاخ وشاعت فى أوصاله الأمراض الحضارية . فقط . وإنما لتمايز أمتنا . بالاسلام . فى القسمات الحضارية والسمات الثوابت التى طبعت ولابد أن تظل طابعة لشخصية هذه الأمة الحضارية والقومية . ليس لمجرد التمايز . ولا لمجرد بعث الأصالة . ولا حبا فى « الكبرياء القومى المشروع » . وإنما ـ فوق ذلك ومعه ـ لكى يبرأ مشروعنا الحضارى المتميز من هذه الأمراض الحضارية التى تقترب بالحضارة الغربية من هاوية الاحتضار ! . وأيضا . ليأتى هذا المشروع الحضارى المتميز . ملائما لطبيعة الأمة وقيمها واعتدالها الذى جعلها أمة وسطا ترفض الجنوح والتطرف والظلم والغلو . وتسعى كى تؤلف ـ فى حضارتها ـ بين ما هو عند الآخرين متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها .

فضلا عن التأليف والتوفيق !..

هذا بعض ما يعنيه « الانتماء الاسلامى » من رفض « للإقليمية » والتمزق والتشرذم.. والوقوف ـ باسم « الوطنية » ـ عند حدود الكيانات الصغيرة، فى عصر الدول الكبرى والتكتلات العملاقة... ومن رفض « للعلمانية » التى تفصل الدين عن الدولة، فتقطع حاضر الأمة عن تراثها وإبداع سلفها فى التشريع والتقنين... ومن رفض « للخيار الحضارى الغربى » الذى بشر به الاستعمار والاستشراق، ولازال يبشر به « المتغربون » !..

ولذلك، فليس غريبا أن يصب العلمانيون مخزون حقدهم، بل وكل أكاذيبهم ومفترياتهم على الرجل الذى ارتاد ميدان « الخيار الاسلامى »، بدعوته إلى « الجامعة الاسلامية »: جمال الدين الأفغانى!.. وهذا هو مافعله الدكتور لويس عوض ـ نموذج « الاقليمية » و« العلمانية » و« التغريب » فى الثقافة المصرية المعاصرة ـ عندما خرج علينا « بدراسته » عن جمال الدين..

* * *

لقد كانت « الأممية الاسلامية » التى بشر بها الأفغانى تحت شعار « الجامعة الاسلامية » ـ وهى « أممية » لاتلغى « الوطنية » ولا « القومية »، بل تجمعهما وتحييهما، وإن رفضت الوقوف عند تخومهما وحدودهما ـ كانت هذه « الأممية الاسلامية » ـ بما تعنيه من « انتماء اسلامى » ـ لها تجسد فى المشروع الحضارى المستهدف، إن فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الفكر ـ « الايديولوجية » ـ كانت هذه « الأممية الاسلامية » هى « الجريمة العظمى » للأفغانى، بنظر الدكتور لويس وكل « الإقليميين » « العلمانيين » « المتغربين »..

فالدكتور لويس يتمنى أن لو كان الأفغاني ـ مع ثوريته ـ إقليميا ، يقف بثوراته وغاياته عند الحدود الاقليمية لمصر ، مثلا ؟! .. فيقول : « آه لو كان الأفغاني مصريا ! اذن لحدد انتاؤه غاياته فلم يحلق هكذا بين النجوم والسحاب ، ولربما وثبنا خطوته نحو التقدم والقوة والثبات .. فقد كان طريقه طريق الثورة الثقافية ، وليس طريق التطور الثقافي ، كما هو الحال عند « محمد عبده الجبان »[1] !!! » [كذا] ؟!

وكما رفض الدكتور لويس الانتماء القومي العربي لمصر ، ووصف الدائرة القومية العربية والقومية العربية ـ في مقالاته التي هاجم فيها عروبة مصر ـ بأنها « أسطورة من الأساطير »[2] .. فإنه يصف « الدائرة الاسلامية » .. التي فتح آفاقها أمام الانسان المسلم شعار « الجامعة الاسلامية » ، بأنها « سفاسف » !.. وهو يتمنى « لو أن الأفغاني لم يشغل نفسه بسفاسف السياسة وبسفاسف الفكر السياسي التي طمست في آثاره مبادئ الهيومانزم ، أو المذهب الانساني ، ولم تبرز للأجيال التالية إلا دعوته السلفية ودعوته الثيوقراطية »[3] !.. فدعوة « الجامعة الاسلامية » ، بما تعنى من « انتماء اسلامي » ، ومن « أسلمة المشروع الحضاري » هي ، بنظر الدكتور لويس ، « سلفية وثيوقراطية » .. مع أن « السلفية » ـ عند الأفغاني كانت ثورة تجديدية ، لأنها تعني رفض « التخلف الموروث » ، والعودة للمنابع ، لا بهدف صب حاضرنا في قوالب السلف ، وإنما بهدف استلهام « الأصول » و« الثوابت » ، والنظر

---

(1) أصل « دراسة » الدكتور لويس ص ۱۹۲

(2) [الأهرام] أعداد ٧ ـ ٤ ، ٢٠ ـ ٤ ، ١١ ـ ٥ سنة ١٩٧٨ م . و[السياسة الدولية] عدد أكتوبر سنة ١٩٧٨ م .

(3) [القضى] العدد ١٦ ص ٥٨

فيها » بعقل معاصر » . والمزاوجة بين الصالح منها وبين الجديد والعصرى لمواجهة التحديدات والانطلاق إلى الأمام .. ومع أن « الثيوقراطية » هى مرض أوربى أفرزته الكهانة الكنسية الكاثوليكية فى العصور الوسطى . ولا شبه لها فى الاسلام . ولا علاقة بينها وبين فكر الأفغانى . اللهم إلا أن تكون علاقة الرفض والعداء ؟!

وبقدر ماعناه شعار « الجامعة الاسلامية » من إحياء « الانتماء الاسلامى » . وتأسيس التمدن الحديث على الأصول الاسلامية . بحيث تسعى الأمة إلى علوم العصر الطبيعية وتطبيقاتها . لأنها بنت الدليل — وفق تعبير الأفغانى — ولأنها مؤسسة على « قوانين » علمية تجعلها تتجاوز حدود الأوطان والقوميات والحضارات . فهى ثمار إنسانية وميراث إنسانى — وفى ذات الوقت تبعث الأمة من تراثها وتطور . بالتجديد . تلك العلوم والفنون والقيم والثقافات التى تتلون . عادة . فى كل بيئة حضارية بلون خاص أو متميز . مثل الفلسفات . والعلوم الانسانية . والقيم . والفنون والآداب . والشمائل والأخلاقيات .. بقدر ماعناه شعار « الجامعة الاسلامية » من هذا الموقف الاستقلالى فى الانتماء الحضارى . ومن هذا « الخيار الحضارى الاسلامى » .. كان غضب الدكتور لويس !.. فهو يرفض « تفتيت وحدة الحضارة » الغربية . ويدعو إلى احتذائها جميعها . فكرا وقيما وعلوما .. ويرى أن « نقطة الضعف » عند الأفغانى هى الدعوة إلى تفتيت وحدة هذه الحضارة . بحيث تأخذ منها « العلوم وتطبيقاتها » وتبعث من عروبتها الثقافى والحضارى الفكر والقيم والفلسفات [4] .

إن موقف الدكتور لويس — ومعه كل « العلمانيين المتغربين » — ضد

---

(٤) أصل « دراسة » الدكتور لويس . ص ١٨٢

دعوة « الجامعة الإسلامية » هو موقف « العلمانية والتغريب » ضد « أسلمة » المشروع الحضارى للعرب والمسلمين.. هذا هو « الجذر الفكرى » للخلاف !..

لقد سعى الغرب الاستعمارى ، ولايزال ، إلى تفتيت وحدة المسلمين ، حتى ولو كانت شكلية ورمزية . ولم تكن إزالة الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ م إلا مجرد إزالة رمز فقد كل المضامين ، وذلك مخافة النهضة التى يمكن أن تملأ هذا الوعاء وذلك الرباط بالمضامين من جديد .. كان الخوف من مجيء « التجديد » ــ الذى بدأه الأفغانى ــ هو الداعى لإزالة الرموز الإسلامية وتعمية آثارها وإزالة ذكراها ــ بالعلمانية والاقليمية والتغريب ــ من أذهان المسلمين !.. وفى هذا الضوء وحده يمكن فهم غضب الدكتور لويس على الأفغانى ، لأنه رأى أن لا منقذ للعالم الإسلامى إلا باتحاده فى جامعة اسلامية ، داخل إطار خلافة تجعل الدين والدولة شيئا واحدا ، وتسير على نهج الخلفاء الراشدين.. »[٥].

ولقد سعى الغرب الاستعمارى ، ولايزال .. وسعى « المتغربون » ، ولايزالون ، إلى أن يبدأ العرب والمسلمون من حيث انتهى الأوربيون .. إن مرادهم هو أن تنسخ الحضارة الغربية موروثنا الحضارى .. هذا الموروث الذى يمثل الإسلام السياسى والحضارى والفكرى فيه دور الحكم والمعيار والمشروعية .. ومن هنا يأتى عداؤهم لأسلمة نهضتنا الحديثة وصبغ مشروعنا الحضارى بصبغة الإسلام .. وفى هذا الضوء وحده يمكن فهم غضب الدكتور لويس على الأفغانى ، الذى دعا إلى استقلال حضارى مؤسس على أصول الإسلام .. وقوله : « إن الأفغانى كان مفكرا ذكيا

---

(٥) أصل « دراسة » الدكتور لويس ص ١٨٣.

يشتغل بالسياسة بقدر ما كان مفكرا سياسيا يشتغل بالدين .. لقد كان يريد كل شيء : الدين والدنيا جميعا .. » .. ولما كانت « العلمانية » ترفض الجمع بين السياسة والدين ، فلقد اعتبر الدكتور لويس أن « مأساة » الأفغاني قد تمثلت في هذا الجمع بين السياسة والدين ! .. ولذلك فهو - في نظره - « رجعي في السياسة ، لم يوفق إلى حل ذلك الصراع الرهيب داخل نفسه بين شخصية المصلح الديني ، الذي يسعى لتجديد الإسلام بالفكر الحديث ، وبين شخصية الزعيم السياسي الذي يسعى لإنقاذ المسلمين من براثن الاستعمار الأوربي .. لقد كان على الأفغاني أن يختار بين شخصية المصلح الديني والثائر الاجتماعي الذي يقود معسكر الثوار .. »[6].

فبالمنطق العلماني ، هنا « تناقض » يفضي إلى « مأساة » .. لكن « المنطق الإسلامي » يرى في هذا الجمع الأمر الطبيعي المتسق مع طبيعة الإسلام وعلاقته بشؤون الدنيا .. فابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] كان المصلح الديني ، والمقاتل لتحرير الأرض من التتار .. وكذلك كان « المهدي » في السودان .. « والسنوسي » في ليبيا .. و« ابن باديس » في الجزائر .. وكذلك جمال الدين !

إن هذه الثنائية ، وذلك الفصل بين « الدين » و« السياسة » .. بين « الإصلاح والتجديد الديني » وبين قيادة الأمة في معركة التحرر والنهضة الحضارية - وهما من لوازم « العقلية العلمانية » - هما اللذان جعلا الدكتور لويس يخطئ الخطأ المحوري في تقديره وتقويمه لعلاقة دعوة جمال الدين الأفغاني وحركته الثورية والإصلاحية بالدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد

---

(٦) أصل « دراسة » الدكتور لويس ، ص ١٠٦ . و[التضامن] العدد ٦ ص ٦٨ ، والعدد ١٧ ص ٦٧

الثانى [١٢٥٨ ـ ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨ م] فحكم تلك الأحكام الظالمة والعشوائية على دعوة « الجامعة الإسلامية » عندما قال : « لقد كانت رسالة الأفغانى فى (العروة الوثق) هى نسف الشعور القومى ، وتدعيم الشعور الدينى كأساس لمقاومة الاستعمار ولانحراف الحكام . ولم يكن هناك مستفيد ، مباشرة ، من هذا التيار يومئذ إلا الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد . أما المستفيد ، بطريق غير مباشر ، فقد كان الاستعمار فى الخارج وأصحاب الحكم المطلق فى الداخل . كذلك كانت سياسة الأفغانى لمصر والسودان قائمة على إعادة مصر والسودان إلى حظيرة الدولة العثمانية ، والقضاء على كل حركة استقلالية فيها عن الباب العالى ! ..»[٧].

فهذه « الثنائية العلمانية » ـ التى لاترى علاقة مابين الدين والسياسة ـ هى التى جعلته يتوهم أن « تدعيم الشعور الدينى » لابد وأن يستلزم « نسف الشعور القومى » .. وأن « الحفاظ على الانتماء الاسلامى » ـ الذى مثلته دعوة « الجامعة الاسلامية » ـ إنما يعنى « القضاء على الحركات الاستقلالية » .. فالمنطق العلمانى ، ومعاييره أعجزت الدكتور لويس عن أن يبصر ، فى فكر الأفغانى ، كيف كان الرجل داعية إلى « الوطنية » وإلى « القومية » وإلى « الجامعة الاسلامية » ، فى ذات الوقت ، وكيف وضح توالى وتآزر هذه « الدوائر » فى فكره ، دونما تناقض أو تعارض .. وكيف ، أيضا ، كان الرجل داعية « للاستقلال » الذى تتدعم إمكاناته ويشتد عوده بتنمية روابط الانتماء الأوسع ، لابقطع هذه الروابط ، الذى ـ كما قد ثبت ـ كان عامل ضعف لهذا « الاستقلال » ؟

هنا يكمن « جذر الخطأ الفكرى » فى تقويم دعوة « الجامعة الاسلامية »

---

(٧) أصل « دراسة » الدكتور لويس ص ١٧٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

عند جمال الدين . وهى قضية تستحق المعالجة الصبورة والموضوعية . لا لاقناع الدكتور لويس . وإنما بهدف الحوار الفكرى الخلاق مع تيار العلمانية فى وطن العروبة وعالم الاسلام .

* * *

أنا لست مع الدولة العثمانية . ورأيى أن استيلاءها على مصر والعالم العربى فى العقد الثانى من القرن السادس عشر الميلادى قد مثل عاملا سلبيا . أطال ليل التخلف المملوكى . وزاد فوضى الإدارة . وأخر تكوين « الدولة » بالمعنى الحديث . وأثقل الانسان العربى بالمظالم الاجتماعية . وأطال سباتنا الحضارى . بينما كان العدو الأوربى ينهض . حتى فوجئنا به ــ فى صورة بونابرت [١٧٦٩ ــ ١٨٢١ م] وحملته الفرنسية سنة ١٧٩٨ م يقتحم علينا عالم العصور الوسطى ! ..

وعواطفى الكاملة والحارة مع « الغورى » [٨٥٠ ــ ٩٢٢ هـ ١٤٤٦ ــ ١٥١٦ م] وطومان باى [٨٧٩ ــ ٩٢٣ هـ ١٤٧٤ ــ ١٥١٧ م] والفرسان الذين قاتلوا جيش السلطان سليم [٨٧٥ ــ ٩٢٦ هـ ١٤٨٠ ــ ١٥٢٠ م] وهى كذلك مع ابن إياس [٨٥٢ ــ ٩٣٠ هـ ١٤٤٨ ــ ١٥٢٤ م] الذى رثى مصر والوطن العربى ــ بسبب الفتح العثمانى ــ فى رائعته [بدائع الزهور] ! ..

وكذلك . فأنا لست مع أية رابطة تجعل من مصر « ولاية تابعة » ــ لا لأنى . فقط . مصرى عاشق لمصر ــ وإنما لأنى أومن أن نهضة وطن العروبة وعالم الاسلام رهن بأن تلعب مصر دورها « القائد ــ الطبيعى » فى محيطها العربى وعالمها الاسلامى .. وأوقن أن أعداء العروبة والاسلام .

تاريخيا وفى الحاضر . قد كان ولايزال سبيلهم لإضعاف العرب والمسلمين هو عزل مصر أو إضعافها . أو العزل والإضعاف كليهما . فهما مترابطان !..

وفى رأيى أن هذا الدور « القائد » لمصر هو « طبيعى » . بقدر ماهو « رسالة .. وعبء .. ومسئولية » .. وليس فخرا قبليا ولانعرة إقليمية ولاتعصبا وطنيا بأى حال من الأحوال .. وهو أيضا ليس طارئا ولاحديثا .. فحقبة الخلافة الراشدة .. والأموية .. وشطر من خلافة بنى العباس ـ عندما كانت مصر « ولاية . تابعة » للمدينة فدمشق فبغداد . فى هذه الحقبة كانت مصر تعيش « فترة النقاهة » بعد مأساة القهر البيزنطى . الذى لم ينقذها من سحقه القومى ومسخه الحضارى إلا جيش عمرو بن العاص !.. وبعد فترة النقاهة هذه التى قبعت فيها بمركز « الولاية ـ المتميزة » ـ عادت إلى دورها « الطبيعى ـ القائد » : « دار خلافة .. فسلطنة » .. حتى فاجأها غزو العثمانيين سنة ١٥١٧ م ..

ذلك هو رأيى فى دور مصر .. وطبيعة علاقتها بقوميتها العربية وعالمها الاسلامى . وفى أثر السلطنة العثمانية وتسلطها على تطور مصر والوطن العربى وعالم الاسلام .. وهو رأى أختلف فيه وبسببه مع إخوة وأصدقاء من الإسلاميين الذين أكن لهم كل التقدير والاحترام ..

لكن .. هل من الحق ومن المنطق أن نضع الفتح التركى والتسلط العثمانى . مع الاستعمارين الانجليزى والفرنسى على قدم المساواة ـ كما يصنع الدكتور لويس عوض ـ ؟! أم أن الموضوعية والانصاف ـ خصوصا إذا أخذنا ملابسات العصر الذى تم فيه هذا الفتح فى الاعتبار ـ تجعلنا نرى فى الدولة العثمانية .

● رابطة ظالمة . شدتنا إلى سلطة فقيرة فى الحضارة والابداع الحضارى إلى حد العدم ! فزادت تخلفنا فى الكم والكيف .. وأخرت يقظتنا وتقدمنا وبعثنا الحضارى عدة قرون ..

● وهى فى ذات الوقت . بما مثلته من قوة عسكرية كاسحة . قد أخافت الغرب الاستعمارى ـ عدونا الأول والرئيسى ـ فكانت جدارا من القوة أخر غزوه لبلادنا حينا طويلا من الدهر ..

● وأيضا فهى قد حفظت للأمة هويتها . وإن فى صورتها الجامدة والمحافظة ..

● ثم ظلت حاملة « لرمز الوحدة » ـ الخلافة ـ .. الأمر الذى حفظ الإطار والوعاء . فأعطى الأمل للمصلحين والثوار فى إنجاز مشاريعهم الاصلاحية مع الحفاظ على « الوحدة » . التى كان أعداؤنا . ولايزالون . أحرص الناس على تفكيك عراها . ليلتهموا عالمنا الاسلامى إقليما بعد إقليم ! ..

ذلكم هو تقويمى لدور الدولة العثمانية فى تاريخنا العربى والاسلامى الوسيط .. ومنه ـ كمدخل ـ ننتقل إلى مضمون شعار « الجامعة الاسلامية » عند جمال الدين الأفغانى . لنتساءل :

هل كان الأفغانى يريد ـ « بالجامعة الاسلامية » ـ إحكام قبضة السلطة العثمانية على رقاب العرب والمسلمين ـ بما يعنيه ذلك من كبت الحركات القومية والاستقلالية ـ والتخلى عن دعوة الثورة والتجديد . لتجاوز التخلف القائم ـ كى لاتغضب السلطة العثمانية أو تتفكك رابطتها ـ لأن الخطر الرئيسى . المتمثل فى الغزوة الاستعمارية الغربية كان يتطلب

تسخير كل الجهود وجميع الطاقات للحرب على هذه الجبهة وحدها ؟ !

هل كان هذا هو مفهوم ومضمون « الجامعة الاسلامية » عند جمال الدين الأفغانى ـ كما يقول الدكتور لويس ـ ؟؟

أم أن الأفغانى ـ مع تركيزه على خطر الاستعمار الغربى ـ لم يتخل عن ثورته الاصلاحية التجديدية ؟ .. ومع دعوته « للوحدة » وراء الخلافة الواحدة .. لم يغفل « الصراع » ضد عوامل التخلف والرجعية والضعف والجمود ، التى كانت تحرسها وتمثلها هذه الخلافة ؟ ! ..

هل كانت « الجامعة الاسلامية » ، عنده ، تعنى « الوحدة » التى تغض الطرف عن التناقضات ، وتدير الظهر للثورة والإصلاح والتجديد ، كى لاتتبدد الجهود فتضعف المقاومة للخطر الرئيسى : الاستعمار ؟؟ ..

أم أن هذه « الوحدة » كانت تتطلب ـ فى فكر الأفغانى ـ الدعم « بالصراع » ضد عوامل التخلف ، وبالثورة والتجديد لتنمية طاقات الأمة فى صراعها ضد الاستعمار ؟؟ ..

إننا مع التصور الثانى والتفسير الثانى لمفهوم « الجامعة الاسلامية » عند الأفغانى .. ولسنا مع المفهوم الأول الذى تصوره الدكتور لويس ..

إن أهمية هذه القضية تتعدى حدود إنصاف الأفغانى من خصومه ! .. فنطاقها يتجاوز تقويم دعوة « الجامعة الاسلامية » فى النصف الثانى من القرن الماضى ، إلى مضمون هذه الدعوة ومفهومها اليوم وغدا ؟ ! ..

.. « جامعة إسلامية » لماذا ؟ .. ولأية أهداف ؟ .. وبأى مضمون ؟ .. ولحساب من من القوى الاجتماعية والسياسية فى واقعنا الراهن ؟ .. وماعلاقتها بالتمايز القومى فى المحيط الاسلامى ؟ .. وماهى « طبيعة » السلطة السياسية فى « الدولة » عند دعاة « الجامعة الاسلامية » ؟ .. الخ .. الخ .

إنه مبحث هام وضرورى . تتجاوز أهميته وضرورته نطاق التأريخ !..
والآن .. لنبدأ بأولى الخطوات التى تجيب على هذا السؤال :

هل كان مضمون شعار « الجامعة الاسلامية » واحدا عند كل الدعاة الذين رفعوا هذا الشعار ؟.. بحيث يمكن تصور قيام الاتفاق ، حول هذا المضمون ، بين كل من الأفغانى والسلطان عبد الحميد . لمجرد أنهما قد رفعا معا شعار « الجامعة الاسلامية » ؟!..

* * *

إن « الجامعة الاسلامية » قد عنت وتعنى ـ فى الأساس ـ ذلك التيار الفكرى والسياسى العريض ، الذى أبصر قادته وأنصاره أن هناك عددا من التحديات التى تواجه الفكر الاسلامى والشعوب والأمم الاسلامية ، سواء أكانت تلك التحديات آتية من داخل الأوطان الاسلامية ، كالتخلف الفكرى والروحى والانحدار الحضارى والسياسى والصراعات الاقليمية والقبلية . أو آتية من الخارج فى شكل المد الاستعمارى والامبريالى الذى زحف من أوربا على الشرق ، وخاصة فى القرن التاسع عشر . تيار الجامعة الاسلامية هو الذى أبصر أصحابه هذه التحديات ، ثم آمنوا بأن تشخيصها ، فى مختلف هذه البلاد ، له كذلك طريق واحد يؤدى إلى تلك الغاية الواحدة المنشودة ، وهى التغلب على هذه التحديات ، والعودة بالمسلمين ، ثانية ، إلى دائرة التأثير الانسانى والعطاء الحضارى ، كما كانوا قبل أن تقهرهم هذه التحديات ..

ذلك هو الوصف العام لتيار « الجامعة الاسلامية » ، الفكرى والسياسى ، كما عرفه الشرق فى ذلك التاريخ ..

ولكن وحدة هذا الشعار لم تخف ، فى يوم من الأيام ، عن عين الباحث المتأمل تلك الفروق الجوهرية التى جعلت ، فى الحقيقة والواقع من

تيار « الجامعة الإسلامية » عددا من « المدارس » و« الفصائل » ، بينها من عوامل الاختلاف والتمايز ، أحيانا ، الشيء الكثير ، بل والخطير ! .. ومن هنا كانت ضرورة إلقاء نظرة على « خريطة » « الجامعة الإسلامية » ، لتمييز أهم ماضم هذا التيار من « المدارس » و« الفصائل » التي رفعت هذا الشعار ..

● فنحن نستطيع أن نذكر الحركة الوهابية ، التي أسسها إمامها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢ م] كأقدم تيار فكري وسياسي يمكن أن يندرج تحت شعار « الجامعة الاسلامية » في عصرنا الحديث .. فلقد كانت الوهابية ـ في الفكر ـ حركة ودعوة ترمي إلى تجديد شباب الاسلام والمسلمين عن طريق طرح ركام البدع والخرافات التي دخلت في عقائد المسلمين ، وهي البدع والخرافات التي كونت الجزء الأساسي من تصور السلطنة العثمانية ومؤسساتها الفكرية عن عقائد الاسلام ، ومن ثم كانت الوهابية ـ سياسيا ـ حركة مناهضة للعثمانيين [٨]

● ولقد كانت الحركة السنوسية ، التي أسسها بالمغرب العربي إمامها محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ ـ ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩ م] هي الامتداد الوهابي إلى بلاد الشمال الافريقي ، بعد أن أدخلت في بنيتها الفكرية ونشاطها العملي خصائص المكان وتحديات الاستعمار الغربي ، وخاصة الفرنسي ، التي كانت تزحف على تلك المنطقة في ذلك الحين .. ومن ثم فإن السنوسية ، كذلك ، بطابعها الصوفي تميزت به عن الوهابية .

---

(٨) [حاضر العالم الاسلامي] مجلد ١ جـ ١ ص ٢٩١

كانت هى الأخرى تيارا يعمل ويناضل تحت شعار « الجامعة الاسلامية »[9] ..

● وكذلك الدعوة والحركة المهدية ، التى أسسها ، بالسودان ، إمامها محمد أحمد « المهدى » [١٢٦٠ – ١٣٠٢ هـ ١٨٤٤ – ١٨٨٥ م] بما مثلت – فى الفكر – من تجديد .. وفى السياسة من تصد للغرب وللأتراك .. ومن دعوة لتحرير عالم الاسلام « من غانة إلى فرغانة » – كما قال المهدى – كانت هى الأخرى فصيلة من فصائل « الجامعة الاسلامية » ، تلاءمت مع ظروف السودان وواقعه فى ذلك التاريخ[10] ..

● ثم .. هناك التيار الذى قاده الأفغانى ، والذى كان ، بحق ، أبرز تيارات « الجامعة الاسلامية » فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .. والذى تميز بامتداده إلى مختلف بقاع عالم الاسلام ، على عكس الوهابية والسنوسية والمهدية .. كما تميز عنها بعدد من الخصائص فى مقدمتها :

١ – الإصلاح الدينى من منطلق العقلانية ، إيمانا بأن الشرق لن ينتصر فى صراعه مع الغرب إلا إذا تسلح بسلاح العقل ، ذلك السلاح الذى ضمن للغرب تفوقه فى هذا الصراع .

٢ – تجديد الصلات الحضارية مع الغرب ، واقتباس المناسب من حضارته – كما صنع العرب والمسلمون فى العصر العباسى – حتى يتمكن الشرق من العودة إلى التأثير والعطاء الحضارى مرة أخرى

٣ – المحافظة على بقاء السلطنة العثمانية ، وتنمية جوانبها الإيجابية .

---

(٩) المصدر السابق ، مجلدا جـ ١ ص ٢٩٠ .

(١٠) انظر دراستنا عنها فى كتابنا [العرب والتحدى] ص ١٧٥ – ١٩٤ . طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .

والعمل على تجديد شبابها . لا من منطلق الايمان بها كخلافة اسلامية وإمارة للمؤمنين . وإنما من منطلق الضرورات التي يحتمها التصدي للعدو الرئيسي وهو الاستعمار الغربي الزاحف على ديار الاسلام .. فهو يحافظ عليها سياسيا . ويحاول تنمية قواها السياسية . ويهاجم فكريتها الرجعية المتخلفة بهدف تطويرها وتجديد شبابها . ومن أجل ذلك لم يناصر هذا التيار حركات الانفصال القومي العربي عن الامبراطورية العثمانية . لأنه كان يبصر تربص الاستعمار الأوربي كي يكون هو الفائز الأول . وربما الوحيد . من وراء الصراع القومي وحركات الاستقلال القومية ضد العثمانيين ..

لقد كتب الأفغاني في ١١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م — في صحيفة « الانترانسيجان » الفرنسية — ليكشف المخطط الانجليزي — الذي استطاعت انجلترا تنفيذه ، مستخدمة الشريف حسين سنة ١٩١٦ م .. أي بعد كتابة الأفغاني لما كتب بأربعة وثلاثين عاما ؟! — كتب الأفغاني يقول « إن بريطانيا لديها مخطط لإقامة خلافة صغيرة في مكة لصالح أسرة بني عون . التي يتقلد أحد أفرادها حاليا منصب شريف مكة . وغرض بريطانيا من ذلك هو التخلص . من خلاله . من وجود قوة عظمى — [الخلافة الاسلامية الواحدة] — للسيطرة على جميع المسلمين [11] » ! ..

و « بلنت » يحكي أن الأفغاني ، حتى في لحظات يأسه من إصلاح القيادة التركية للسلطنة العثمانية ، كان يفكر في تغيير هذه القيادة .. « بتعريب الخلافة ، مع المحافظة على وحدتها . بل وعلى عاصمتها » .. فهو « الصراع » في إطار « الوحدة » . الذي جعله يفكر في إحلال « مهدي السودان » أو « الشريف حسين » أو « إمام صنعاء » محل السلطان

(١١) [التضامن] العدد ١٨ ص ٦٤

عبد الحميد . مع بقاء وحدة الخلافة ، وفتح الطريق ـ بإزالة عقبة التخلف التركي ـ لتجديد شبابها ! .. يقول « بلنت » ـ فيما دونه بيومياته في ٨ أكتوبر سنة ١٨٨٥ م ـ : « .. حديث طويل مع جمال الدين حول آمال المستقبل في استانبول . إنه يؤيد فكرة أن المهدى ، أو خلف المهدى يحتل مكان السلطان ، أو أن يحل ذلك الشريف عون ، أو إمام صنعاء . فأي من هؤلاء ـ كان في رأيه ـ يمكن الآن أن يتولى القيادة ، ولكن استانبول يجب أن تبقى مقر الخلافة .. (١٢) »

وعندما عرض « بلنت » الفكرة الانجليزية حول استقلال شبه الجزيرة العربية عن الدولة العثمانية ، عارضها محمد عبده ، قائلا : « إن العرب أهل لذلك الاستقلال ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ماليس عند العرب . فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربة الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما . وهذان الشعبان ـ (العرب والترك) ـ هما أقوى شعوب الاسلام . فتكون العاقبة إضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته !.. (١٣) »

إن بصيرة الأفغاني ومحمد عبده ـ وتيار « الجامعة الاسلامية » ـ كانت تبصر حتى تفاصيل المخطط الذي نفذه الاستعمار بعد سنوات طويلة من وفاة هذين الامامين ـ [اللذين يصف الدكتور لويس عوض فكرهم السياسي هذا بأنه « سفاسف » و« هنكرة »!!] ـ .. ومن هنا كان حرص هذا التيار على « وحدة » الخلافة ، ومحاولة « الاصلاح » داخل إطارها ، حتى

---

(١٢) أصل « دراسة » الدكتور لويس ، ص ٢٢٩ ، وهو ينقل عن كتاب « بلنت » [جوردون في الخرطوم] ص ٤٩٢

(١٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ١ ص ٧٣٥

لو تطلب الاصلاح تعريبها . واستبدال خليفة عربي بالخليفة العثماني ! .

إن الخيار أمام تيار «الجامعة الاسلامية» لم يكن بين طريقين منفصلين ـ كما يرى الدكتور لويس عوض ـ طريق : «نسف الدولة العثمانية» أو طريق «مواجهة العدو الخارجي . الأكثر خطرا من العدو الداخلي» .. والأفغاني لم يختر الطريق الثاني وحده [14] .. ذلك أن الأفغاني وتياره قد ركز على مواجهة الخطر الخارجي . وسعى .. «بالثورة التجديدية» إلى إصلاح الدولة العثمانية . لتعويض التخلف . وتحقيق التقدم . ولضمان النصر في مواجهة العدو الخارجي أيضا ! ..

لقد كانت المحافظة على وحدة الدولة موقفا سياسيا يمليه الانتماء الاسلامي ويدعو إليه الصراع مع الاستعمار .. وكان «تعاون» تيار «الجامعة الاسلامية» ـ كما تمثل في الأفغاني وحركته ـ مع الدولة العثمانية في إطار سعي هذا التيار «لإصلاح» هذه الدولة .. لقد كان ـ إذا جاز التعبير ـ «تعاونا مخططا وهادفا ومشروطا» ! ..

● كان الأفغاني واضحا تماما في إدراكه وإعلانه عن أن «التخلف الحضاري» الذي يعاني منه العثمانيون . قد أضر بالميزة التي مثلوها تاريخيا . وهي كونهم قوة عسكرية أقضت مضاجع الغرب الاستعماري وأخرت غزوه لوطن العروبة وعالم الإسلام .. فهذا «الجدار العسكري» . الذي مثله العثمانيون أمام الغرب قد افتقر إلى «الإبداع الحضاري» الذي يدعمه ويطوره ويرمم مايظهر في ثناياه من ثغرات . الأمر الذي فتح في هذا «الجدار العسكري» للغرب أبوابا أخذ يتقدم منها لالتهام ثروات المسلمين ـ بالامتيازات أولا ـ ثم لالتهام الأوطان بما فيها من ثروات ! .

---

(14) [التضامن] العدد ١٧ ص ٦٧ .

كانت عين الأفغانى على هذا « التخلف الحضارى » . يسعى لتجاوزه بالنهضة ـ لا على النمط الغربى ـ وإنما بالمشروع الحضارى الاسلامى الخاص ، الذى يستفيد من عناصر القوة فى حضارة الغرب بإضافتها إلى المميزات الحضارية للإسلام والمسلمين .. لقد أعلن الرجل أن « الدولة العثمانية .. قد بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية فى مدنيتها وعلومها وصنائعها .. »[15] .. ومن هنا كان « مشروعه » لإصلاح الدولة : بتجديد فكريتها وإدارتها وتنظيماتها وفلسفة الحكم فيها . كى تتاح الفرصة للشعوب التى تحكمها فتأخذ بأسباب المدنية والعلوم والصنائع لتفلت من شراك الاستعمار ..

● والتعاون الذى قام بين الأفغانى وبين السلطان العثمانى عبد الحميد ، والذى وجه الأفغانى ـ فى إطاره ـ رسائله إلى قادة الأمة للتضامن والتعاضد ـ تحت رايات « الجامعة الاسلامية » ـ خلف السلطان .. هذا التعاون لم يكن بلا شروط ولاتحفظات .. ومن ثم فلم يكن مؤسسا على مفهوم السلطان الخاص لمضمون « الجامعة الاسلامية » ، ولاقائما على « أرض السلطان » وحدها ! .. وإنما كان تعاونا هادفا إلى تحقيق :

١ ـ فعالية أكبر فى مواجهة الخطر الرئيسى : الاستعمار ..
٢ ـ الاصلاح الدستورى لنظام الحكم وفلسفته فى الدولة ..
٣ ـ تطهير أجهزة الدولة القيادية من الخونة والعجزة والمتخلفين ..
٤ ـ استبدال « اللامركزية » ـ التى تتيح فرص النمو والازدهار للخصائص القومية والامكانات الوطنية والمادية ـ فى أقاليم الدولة وولاياتها ،

---

(١٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

« بالمركزية » القاتلة للخصائص الذاتية للأقاليم والولايات ..

٥ ـ تعريب « الدولة » ـ بل وتعريب « الشعب التركى » ـ لتصبح الدولة تجسيدا « لأمة عربية » ، حتى تستفيد من فعاليات العرب والعروبة فى مواجهة مايفرضه عليها خصومها من تحديات .. وليعود للأمة العربية دورها القائد فى المحيط الاسلامى ـ الأمر الذى يحقق للرابطة الاسلامية قيادة يرضاها المسلمون غير العرب ـ أولئك الذين لم تكن قيادة « الترك » مؤهلة ولا جديرة بأن تجذبهم فى هذا الطريق ..

٦ ـ الإلحاح على ما لمصر ـ تاريخيا وحضاريا وواقعيا ـ من دور متميز فى المحيط العربى والاسلامى .. هو ـ دونما لبس ـ دور القائد فى هذا المحيط ..

تلك هى أبرز ملامح « مشروع الأفغانى » لـ « تأييد الدولة العثمانية ـ وإصلاحها » .. لـ « جمع المسلمين حولها .. ولتجاوز السلبيات التى كانت تمثلها فى واقع المسلمين » !..

● إن الأفغانى يحدثنا عن « مواهب » السلطان عبد الحميد .. وكيف سعى إلى تسخير هذه المواهب جميعها فى الصراع ضد الاستعمار .. وكيف دعا السلطان إلى الاصلاح الدستورى وتطهير دولته من العناصر المعوقة عن النجاح فى هذا السبيل المقترح لتحقيق هذا « المشروع » .. يقول الأفغانى : « **إن الممالك الاسلامية فى الشرق لاتسلم من شراك أوربا ولامن السعى وراء إضعافها وتجزئتها ، وفى الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عمومى ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم** .. » .

فهو هنا يحدد ، بوضوح ، أن مواجهة الاستعمار ـ الخطر الأعظم ـ لاتتحقق بتأييد الدولة العثمانية فقط ، بل لابد مع ذلك ، وقبله ، من

« اليقظة العامة » .. أى النهضة التى تحققها خطوات الاصلاح فى « مشروع جمال الدين » !..

ثم يواصل الأفغانى حديثه فيقول : « إن السلطان عبد الحميد ، لو وزن مع أربعة من توابغ العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة .. ولاعجب إذا رأيناه يذلل مايقام لملكه من الصعاب من دول الغرب . رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ، ومرامى الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما . وأعظم ما أدهشنى ، ما أعد من خفى الوسائل ، وأمضى العوامل ، كى لاتتفق أوربا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ، ويريها ، عيانا محسوسا ، أن تجزئة السلطنة العثمانية لايمكن إلا بخراب الممالك الأوربية بأسرها..

ولقد رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ماذكرته له من محاسن الحكم الدستورى ، وأن الاسلام أول من عمل به فى سلطانه..

إن مارأيته من يقظة السلطان وشدة حذرى وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوربا . وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة (الذى فيه نهضة المسلمين عموما) هو الذى دفعنى إلى مد يدى له . فبايعته بالخلافة والملك !..[16] » .

ذلك هو « إطار التعاون » بين الأفغانى وبين السلطان عبد الحميد !...

ولم يكن الأفغانى « حالما » ولاهو « بالغافل » عن عيوب السلطان عبد الحميد ذاته ، ولا عن العقبات التى يمثلها أركان الدولة أمام نجاح مشروعه « لايقاظ الدولة والأمة » لمواجهة خطر الاستعمار .. لقد كان يلح على السلطان كى يطهر جهاز حكم الدولة .. ويشكو من تردد السلطان فى

---

(١٦) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

الحاز هذا الأمر .. حتى لقد تحدث إلى السلطان يوما فقال : « يا جلالة السلطان .. مللت من تعاطينا الشكاية ؟! .. ومن غيرك صاحب الأمر ؟! .. خذ بحزم جدك محمود ، واقصص الخائنين من خاصتك (الذين يعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات ، وعن صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة ؟!) .. خفف الحجاب عنك ، واظهر للملأ ظهورا يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نعم الحارس الأجل ! (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) [17] .. » [18]

● أما فيما يتعلق بتلك « المركزية المستبدة » التي كانت تحكم الدولة بها قبضة الآستانة على الأقاليم والولايات ، فلقد تحدث الأفغاني إلى السلطان عنها ، وقدم إليه « مشروع اللامركزية » ، الذي يجعل الولايات الاسلامية المرتبطة بالدولة أشبه ماتكون « بالكومنولث الاسلامي » ، الذي يحفظ رباط الوحدة ــ وحدة الانتماء الاسلامي ، ومواجهة التحديات الواحدة ــ داخلية كانت أو خارجية ــ والذي يتيح ــ في ذات الوقت ــ كل الفرص ويفتح كل الأبواب لتنمية السمات القومية والامكانيات المادية لهذه الولايات ، التي يتاح لها ــ في ظل هذه « اللامركزية » ــ استقلال حقيقي يعتقها من سلبيات « المركزية » التي كانت سائدة في أغلب تلك الولايات ..

إن هذه « اللامركزية » ، التي أسس العرب العثمانيون ــ عرب الولايات العثمانية ــ حزبا يدعو إليها أواخر سنة ١٩١٢ م قد دعا إليها الأفغاني قبل ذلك بنحو عشرين عاما ، كطريق يجمع بين « الوحدة ــ والاستقلال » لشعوب هذه البلاد وطاقاتها . فتحدث إلى السلطان

---

(١٧) النحل : ٦١ .

(١٨) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٤٧

عبد الحميد عن تصوره لها فى حوار طويل دار بينه وبين السلطان . سجله الأفغانى .. يقول فيه :

« .. **قلت** للسلطان عبد الحميد : أتأذن فى تقديم **لائحة فى تصوراتى لتحسين حالة المملكة ؟ والتحوط بصونها من مطامع الأعداء ؟**

قال : بل قل لى ماتشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة . فأنا لك من السامعين ..

قلت : أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ، ترسل إليها الولاة من الآستانة ـ مثل باكير باشا ، ومحمد باشا اليدكشى ، وأمثالها ـ لجمع الأموال من غير وجه ، وتوزيعها على رجال الدولة هنا ـ « الآستانة » ـ فقط . على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتكم . هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة ؟ أم جعلها خديوية ، كما هى قبل الانجليز ؟ ! ..

ـ فتفكر السلطان مليا ، وحول وجهه نحو النافذة عنى ، حتى ظننت أن الحديث قد ساءه ، وأنه لا يحب الخوض فيه ، ولا العودة إليه ، وإذا هو بغتة قد التفت ، وتوجه بكليته إلى ، وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد على باشا وابنه ابراهيم باشا ، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحا بالقوة ! ـ

وقال : لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية ، ثم ماذا ؟ ! ..

قلت : يا مولاى ، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية ، فتبدأ فتجعلها عشر خديويات ....

ورأيت السلطان ـ وهو على تمام الإصغاء لما أقول ـ قد تقطب وجهه وعلته كآبة امتعاض وحزن ـ

فقلت : يا مولاى ، وعزة الحق ، وبولائى لأمير المؤمنين ، ونصحى للمسلمين ، إن ما ساقنى إلى ما قلته إلا الإخلاص والحرص على ملكك ، والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية ، التى ليس لجمع شتاتها وتوحيد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة ، وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة أخذت تتفكك الجزء بعد الآخر ، فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها بسلك من النظام أوثق وأشد وأحكم . وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذى قدمته .

ـ ولما انتهيت .. هز السلطان رأسه ، وتناول لفافة من التبغ ، وأسرع فى تدخينها ـ

وقال : ماذا تركت ، ياحضرة السيد ، للسلطان ؟ ! وما أبقيت لتخت ـ [عرش وعاصمة] ـ آل عثمان ؟ ! .

قلت : يبقى مولاى جلالة السلطان : ملك أولئك الملوك ، وينضم إلى العرش العثمانى عشرة عروش ، غير عرش مصر ، ثم متى نهضت هذه المقاطعات والخديويات ، وأخذت نصيبها من الرقى والعمران .. لا شك أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى ، للاتحاد معها ، إذ هى فى أمس الحاجة لشد الأزر ، ولصون كيانها من مطامع الغرب ، الموجهة نحو عموم دول الشرق ، ثم ما أسرع الأفغان للانتظام فى ذلك السلك ، سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى ، ثم ، ومتى تم ذلك ، هل تقعد أهل الهند عن نصرة الخليفة الأعظم واللحاق لشد ساعد إخوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول

الإسلامية فى الشرق . وعن هندهم أيضا ؟ ! أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين . ويرجع الشرق للشرقيين ؟ ! . . »[١٩] .

ذلك هو «مشروع اللامركزية» الذى سعى إليه الأفغانى . والذى عرضه على السلطان عبدالحميد.. وهو الذى يزكى ما كتبه فى [العروة الوثقى] عن أن «الدولة» الإسلامية هى «اتحاد» يشبه «الكومنولث» .. وليست رابطة مركزية تقهر ما فى إطارها من تمايزات .. لقد كتب فى [العروة] عن هذا التصور «اللامركزى ــ التضامنى» يقول : «لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا . فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه .. »[٢٠]

ذلك هو تصور الأفغانى «للمشروع اللامركزية» ، كسبيل للإصلاح الإدارى فى الدولة العثمانية . وكسبيل «لكومنولث إسلامى» وشرقى تواجه به الأمم والشعوب الخطر الأعظم ، وهو الاستعمار .. وتسلكه سبيلا يعينها على تنمية خصائصها وإمكاناتها الأدبية والمادية ..

ولقد أبصر الأفغانى للأمة العربية ــ بالمعنى القومى ــ دورا متميزا ، بل ورائدا ، فى محيط «الكومنولث الإسلامى» ، الذى دعا شعوب الشرق إلى الارتباط «بجامعته الإسلامية» . فهو القائل : «إنه لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .. وإن الأمة العربية هى «عرب» قبل كل دين

---

(١٩) المصدر السابق . ص ٢٣٧ ــ ٢٤٠ .

(٢٠) المصدر السابق . ص ٣٤٥ .

ومذهب . وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان ! ... فالمسلم أو المسيحي أو اليهودى . فى مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم ، قبل كل شيء على نسبته العربية . فيقول : «عربى» ، ثم يذكر جامعته الدينية ؟ ! ..»[21]

وكما دعا الأتراك ــ فى «مشروعه الإصلاحى» ــ إلى «اللامركزية» ، التى تبرز وتحمى السمات الخاصة للأمم الداخلة فى إطار الدولة العثمانية ، فلقد دعاهم إلى أن «يتعربوا» ، كسبيل لتحضرهم التحضر الحقيق بحضارة الإسلام ! .. وكسبيل لنفى النعرة القومية التى كانت قد شرعت تطل برأسها لتفتت وحدة الدولة فى مواجهة الاستعمار .. وللأفغانى فى هذا الموضوع كتابات ، منها ذلك النص الذى يقول فيه : «لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما ، وهو اتخاذ اللسان العربى لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربى لسانا رسميا ، وسعت لتعريب الأتراك ، لكانت فى أمنع قوة ، ولانتفت من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام ، وصاروا أمة عربية .. ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب ، وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى .. لقد كاشفت السلطان عبدالحميد بهذا الموضوع .. ولكنه كان قليل الاحتفاء عما قلته له ! ..»[22]

ولم يكن إبصار الأفغانى للدور المتميز للأمة العربية فى المحيط الإسلامى يحمل أى انتقاص لحق أى من شعوب الشرق وقومياته فى التمسك والاعتزاز والتنمية لسماته وقسماته القومية ومميزاته الوطنية فى الإطار الإسلامى العام .. فهو الذى شن الحملة تلو الحملة على «المتفرنجين»

---

(21) المصدر السابق . ص ٢٣٧ ، ٢٢٣ .

(22) المصدر السابق . ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

المتغربين» ، الذين خدعوا فوقعوا بشراك الاستعمار الفكرى ، فأعانوا الغزاة على أن يدسوا فى تربتنا الفكرية «عوامل غريبة مهلكة ، تبدو فى أول مظهرها ، خفيفة الوطأة ، سهلة المأخذ ، لا ضرر من التسامح بها ، وهى أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم ، والتدرج بقتل التعلم القومى ، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس فى لسانهم العرنى أو الفارسى أو الأوردى والهندى .. الخ .. آدابا تؤثر ولا فى تاريخهم مجدا يذكر ، وأن المجد كل المجد لذلك الشرقى الخامل أن ينفر من سماع لغته ، وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها ، وأن ما تعلمه من الرطانة الأعجمية هى منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية ؟ ! ..» .

أدان الأفغانى هذا «السقوط» الذى ابتلى به «المتفرنجة ـ المتغربون» .. ودعا إلى حفاظ أمم الشرق على خصائصها القومية ، عربية ، وفارسية ، وأوردية وهندية .. الخ .. وأعلن أنه «لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها ، فتعمل عملهم ، وتنسج على منوالهم ، وهذا كله يتوقف على تعليم وطنى ، تكون بدايته «الوطن» ، ووسطه «الوطن» ، وغايته «الوطن» ! .. فيجب أن يكون الوطن فى مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية : اثنان فاثنان يعملان : أربعة ، فلا تستطيع المذاهب أو الطوائف أن تدعيها خاصة ، ولا أن تحاول نقضها ؟ ! ...»[٢٣]

ففى تصور الأفغانى ، تآخت وتآزرت وتوالت الدوائر والروابط : «الوطنية» و«القومية» و«الإسلامية» ، دونما تعارض أو تضاد ! ..

---

(٢٣) المصدر السابق ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

● وكما أبصر الأفغانى «للأمة العربية» دورا متميزا فى المحيط الإسلامى .. كذلك أبصر «لمصر» دورا متميزا وطليعيا وقائدا فى مشروع النهضة الذى ناضل فى سبيله .

لقد كانت مصر ـ قبل احتلال الانجليز لها ـ هى «النموذج» الذى سعى الأفغانى إلى تنمية نهضته ، ليكون مركز الجذب والاحتذاء لشعوب الشرق جميعاً .. إنها هى التى عناها الإمام محمد عبده ، عندما تحدث عن أن «مقصده ـ [الأفغانى] ـ السياسى كان هو : إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية .. »[٢٤] .

وفى مصر كان الانجاز الحقيقى والأعظم لدعوة الأفغانى وحركته .. فتربتها كانت الأكثر قبولا لما بذر من بذور .. وتلك هى دلالة عبارة رشيد رضا ، التى تقول : «سمعت الاستاذ الإمام يقول : «إن السيد (جمال الدين) لم يعمل عملا حقيقيا إلا فى مصر! ... »[٢٥]

وتقويم الأفغانى لدور مصر القائد فى محيطها العربى والإسلامى يؤكد هذا الذى نقول .. فهو القائل عن دورها هذا : «إن المتأمل فى سير مصر ، يحكم حكما ربما لا يكون بعيدا عن الواقع ، أن عاصمتها لابد أن تصير ، فى وقت قريب أو بعيد ، كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية ، بل ربما كان ذلك أمرا مقررا فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها ، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر؟! .. »[٢٦]

---

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٢ ص ٣٥٢

(٢٥) [تاريخ الاستاذ الإمام] جـ ١ ص ٧٩

(٢٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٦٧

بل إن [جمعية العروة الوثقى السرية] ومجلتها - التى حملت ذات الاسم - والتى يقول الدكتور لويس عوض : إن مهمتها كانت « نسف الشعور القومي ، وتدعيم الشعور الديني .. لحساب الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد .. بل والاستعمار وأنصار الحكم المطلق ؟ ! »[27] .. إن هذه الجمعية ما قامت ، ولا صدرت مجلتها إلا لتعمل على تحرير مصر من قبضة الاستعمار الانجليزي ، ولتعود مصر إلى مكانها الرائد والقائد في إطار « الجامعة الإسلامية » .. وعن تلك الحقيقة الهامة يقول الأفغاني ، في الحديث عن سبب تكوين تنظيم [العروة الوثقى] : « إن الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ، ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها سواها ، نظرا لموقعها من البلاد الإسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين ، فإن كان هذا الباب أمينا ، كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية .. إن الرزايا التى حلت بأهم مواقع الشرق (مصر) جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء .. فتألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار .. وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع ، لا ينون فى السعي ولا يقصرون فى الجهد ، ولو أفضى ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته ؟ ! »[28] .

فإذا كان الأفغانى قد خاض ، فى حياته ، تجربة « التنظيم » مرتين :

---

(27) أصل « دراسة » الدكتور لويس ، ص ١٨٦

(28) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] جـ ٢ ص ٣٤١ ، ٣٤٢

أولاهما فى [الحزب الوطنى الحر] والثانية فى [العروة الوثقى] . فلقد كان الغرض والهدف منهما معا هو استخلاص مصر من أعدائها ، وتهيئتها لتكون «النموذج» لمشروعه الحضارى الذى يجذب محيطها العربى والإسلامى إلى هذا الطريق !

وفى [العروة الوثقى] ــ المجلة ــ يهيب الأفغانى بالدولة العثمانية أن تنهض ، وتضغط بكل ما بيدها من «أوراق إسلامية» ومصادر قوة إسلامية ــ بما فى ذلك الثورة الكامنة لدى مسلمى الهند وما يتاخمها ــ فى محاولة استخلاص مصر من الإنجليز .. ويحذر العثمانيين من إضاعة الفرصة كى لا تثبت انجلترا أقدام استعمارها على ضفاف النيل ! ..[29]

فأين هى إذن دعوى الدكتور لويس التى تقول : «إن سياسة الأفغانى لمصر والسودان كانت تقوم على إعادة مصر والسودان إلى حظيرة الدولة العثمانية ، والقضاء على كل حركة استقلالية فيها .. ! ..»[30]

لقد رأينا أن حقيقة سياسة الرجل هى تحريك عالم الإسلام ، بما فيه الدولة العثمانية ، لتحرير مصر من الاستعمار .. وكذلك كانت سياسته تجاه السودان .. فهو الذى ــ بنص ما ينقله الدكتور لويس نفسه عن «بلنت» ــ قد اشترط فى مفاوضاته مع الانجليز حول السودان ، اشترط : «أن أية تسوية لابد أن تعيد مصر للمصريين ! » و«إخلاء السودان» من الجيش الذى كان يقوده غوردون الانجليزى ! .. بل و«إعادة عرابى من المنفى» إلى مصر من جديد ؟ ! ..[31]

---

(٢٩) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٥٧

(٣٠) أصل «دراسات» الدكتور لويس ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٣١) أصل الدراسة الدكتور لويس ص ١٩٤ [الخافقين] العدد ٢١ ص ٦٢

ثم إن «إخلاء السودان» ، الذى اشترطه الأفغانى ، لم يكن هو ذلك «الإخلاء» الذى نفذه الإنجليز بعد ذلك ليعيدوا فتحه واستعماره .. وإنما كان الأفغانى يستنكر قتال الجند المصريين للثورة المهدية تحت قيادة غوردون ، ويبصرهم بأن عدوهم الحقيقى هو الإنجليز ، فكتب ـ متعجبا ـ فى [العروة الوثقى] ـ يقول : «لعمر الله إنا لفى عجب من الذين يخفظون قلاع السودان ، ومن المصريين الذين يزحفون لمقاتلة السودانيين ؟ ! هل يعلمون أى أمة يخدمون ؟ ! ! ..»[32] .. لقد كان الأفغانى واضحا وصريحا فى نضاله من أجل تحرير مصر والسودان .. وهو القائل للإنجليز ، فى مفاوضاته معهم حول السودان ، كلماته الجامعة : «مصر للمصريين ـ والسودان جزء متمم لها ..»[33] ولقد كانت «العلاقة القانونية» التى تربط هذه البلاد بالدولة العثمانية «ورقة قانونية» بيد الحركة الوطنية ، للضغط على الاستعمار الإنجليزى من أجل استخلاص هذه البلاد من براثن احتلاله . ولم تكن قيدا على استقلال هذه البلاد ! ..

إننا نسأل الدكتور لويس : أى «استقلال» ذلك الذى وقف الأفغانى ضده ؟ ! .. و«استقلالا» عن من . كان ذلك «الاستقلال» ؟ ! ..

إن «مأساة» الدولة العثمانية ـ كما هو معروف وشهير ـ فى ذلك التاريخ ، لم تكن نابعة من «قوتها المستبدة» التى تحرم ولاياتها حقيقة الاستقلال .. وإنما كانت مأساتها فى «ضعفها» الذى أعجزها عن حفظ استقلال هذه الولايات ، والذى أخذت تغتاله أوربا الاستعمارية .. فمعركة الاستقلال الحقيقية كانت ضد الغرب ، والاستقلال كان استقلالا عن استعماره .. وهو ما كان المعركة الكبرى والأولى والدائمة لجمال الدين ! ..

---

(٣٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] جـ ٢ ص ١٧١ .

(٣٣) المصدر السابق . ص ٥٠٥ . (طبعة القاهرة)

لقد كان نضال مصر فى سبعينات القرن الماضى ، زمن الخديوى اسماعيل ـ وهو الذى أسهم فيه الأفغانى إسهاما رائدا وبارزا ـ موجها فى الأساس ضد الزحف الاستعمارى الغربى .. وهذا النضال هو الذى عبر عنه شعار «مصر للمصريين» ! .. فلم تكن القضية يومئذ متخذة شكل «السيطرة العثمانية» بحال من الأحوال .. وكذلك كان الحال فى الثورة العرابية ، التى قامت لاستخلاص مصر من النفوذ الاستعمارى الغربى ، إلى حد الحرب المسلحة ضد جيش الاحتلال الانجليزى .. ولم يكن تناقض الحركة الوطنية ـ فى مصر أو السودان ـ مع العثمانيين إلا بمقدار عجز العثمانيين عن الوقوف فى وجه الغرب الاستعمارى ، ونجاح الغرب فى اتخاذ الضعف العثمانى سبيلا يتسلل منه إلى السيطرة والاحتلال ! .. تلك كانت حقيقة المعركة .. وذلك هو جوهر الصراع الوطنى فى ذلك التاريخ ! ..

لقد كان الأفغانى مناضلا صلبا من أجل استقلال كل شعوب الشرق عن الاستعمار .. وكانت «الجامعة الإسلامية» ، المرتكزة إلى «وحدة الانتماء الإسلامى» ، واحدة من الأسلحة «الطبيعية ـ والضرورية» التى رأى الأفغانى لزومها فى مواجهة العاصفة الاستعمارية التى هبت من الغرب على بلادنا فى ذلك التاريخ ! .. فالتناقض الرئيسى كان بين كل شعوب الشرق وبين الاستعمار الغربى .. وحتى التناقض غير الرئيسى ، وغير العدائى الذى كان قائما بين هذه الشعوب وبين «التخلف والضعف العثمانيين» ، فإن الأفغانى لم يهمله ولم يغفل عنه ، فلقد كان مضمون «الجامعة الإسلامية» عنده متميزا .. كان دعوة للنهضة والتقدم .. بالتجديد والثورة الثقافية والتمدن الإسلامى .. و«صراعا» ضد الرجعية .. وفى ذات الوقت «وحدة» لكل الذين تتناقض مصالحهم وهويتهم الحضارية مع الغرب الاستعمارى .. وفى هذا المضمون ، تآخت وتراملت وتضافرت المشاعر

والقسمات والدوائر « الوطنية » و« القومية » و« الإسلامية » ، دونما تناقض أو تعارض أو تضاد !.

* * *

لكن.. هل كان الأفغاني « حالما » عندما علق بعضا من آماله على الدولة العثمانية ، وعلى السلطان عبدالحميد ؟ !..

وهل حقا ما يقوله الدكتور لويس عنه : إنه كان حالما يحلق فى السحاب ؟ !..

نحن لا نعتقد بذلك..

لقد كان الأفغانى مدركا أن هناك ظروفا موضوعية معاكسة لمشروعه الساعى لتجديد حياة الأمة وإنقاذها من عاصفة الاستعمار الغربى ، منها ما هو داخلى ، يأتى التخلف العثمانى والرجعية والجمود والضعف الموروث فى مقدمتها.. ومنها ما هو خارجى ، على رأسها تسلح الهجمة الاستعمارية بأسلحة القوة والجبروت التى هيأتها لها النهضة الأوربية الحديثة والثورة الصناعية العملاقة.. لكن الأفغانى حاول :

(أ) تقليل خسائر هذا « السقوط » ، الذى بدا قدرا مقدورا.. !

(ب) وتقصير المدى الذى ترزح فيه الأمة تحت عوامل هذا « السقوط » !..

(جـ) وأن يحدد بمشروعه فى النهضة معالم الطريق للقوى الإسلامية التى ستحمل على عاتقها ، فى المستقبل ، الخروج بالشرق من حقبة هذا « السقوط » !..

إن الأفغانى عندما تأكد أن سلبيات الواقع العثمانى قد شدت السلطان عبدالحميد بعيدا عن الطريق الذى حاول جمال الدين أن يجذبه إليه ، لم

يتردد فى مهاجمة «جبن» هذا السلطان، الذى كان يسىء الظن بالناصحين المخلصين.. فقال الأفغانى عن «جبن» عبد الحميد: «يا للأسف!.. إن عيب الكبير كبير! والجبن من أكبر عيوب الملوك؟!..»[34]

وكما سبق وبايع الأفغانى السلطان بالخلافة، عندما علق على دهائه وحنكته بعض الآمال، فإنه لم يتردد، عندما تبددت هذه الآمال، فى مصارحة السلطان برغبته أن «يقيله» من هذه البيعة؟!.. فقال للسلطان، مواجهة: «أتيت لأستسمح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك، لأنى رجعت عنها. نعم.. بايعتك بالخلافة، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد.. بيد جلالتك الحل والعقد.. وإذا وعدت وجب عليك الوفاء؟!..»[35]

كذلك، كان الرجل واضحا ومحددا ـ أمام الظروف الموضوعية المعاكسة لمشروعه «النهضوى» ـ فى أن السعى لابد وأن يستمر لتقليل خسائر هذا «السقوط» القادم، ولتقصير أمده التاريخى، ولانقاذ ما يمكن إنقاذه من عموم بلواه!.. وهو فى ذلك يقول: «إننى ما قرعت آذان المسلمين، والشرقيين عموما، بالحجج القاطعة، وهتكت أستار الطامعين بالبراهين الساطعة، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسا، إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد، وأقصر طيات المسافة فى الذل والمهانة لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية، وله من الزمن ما يؤجل معه

(٣٤) المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٤٨.

سقوطه ، ويلم شعثه ، ويمد بعضهم لبعض يدا ، عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم ! ... »[36]

وعندما لاح « السقوط » قدرا مقدورا ، لعوامل التخلف والضعف الداخلية ، ولطغيان الهجمة الاستعمارية .. لم ييأس الأفغانى ، وإنما ـ مع اعترافه باستحالة تفادى هذا المصير ـ ناضل ـ كما قلنا ـ لتقصير أمده ، وتقليل خسائره ، ورسم الطريق للخلاص من بلواه .. وعبرت عن هذه القضية كلماته التى يقول فيها : « إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين فى الشرق كان من شاهق عظيم ، لا يمكن للحكيم الوقوف فى سبيل سقوطه وهو فى وسط الانحدار ، أو بقربه من نقطة المركز . ذلك الشاهق العظيم ، شاهق حكمة الدين ؟! ... وإذا كان انحطاط الأمم مرضا ، وله سير معلوم ، فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير ، بل غاية ما يمكنه الإتيان بالملطفات والمسكنات ، حتى ينتهى السير ، ويبل العليل ، ويدخل فى دور النقاهة .. نعم .. لو استقلت قدرة البشر بالتأثير ، ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوى ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان ! ... »[37]

إن غلبة « التخلف الموروث » و« الوافد التغريبى » ، اللذين حرستهما حراب الاستعمار .. إن تغلبهما على دعوة الأفغانى وحركته ، لم تكن بالغلبة التامة ولا النهائية .. لقد ظلت دعوته الجلوة التى تومض بالتجديد الرافض « للتخلف الموروث » ، والمشير إلى « البديل » ، البديل الحضارى الخاص بالأمة ، والكفيل بإنقاذها من مسخ « التغريب » والتشويه الذى تحمله للشخصية القومية سيادة حضارة الغزاة ! .

---

(36) المصدر السابق . ص ٢٤١ .

(37) المصدر السابق . ص ٢٤١ ، ٢٤٢

كذلك ظلت دعوة الأفغانى وحركته المثل والنموذج الذى استلهمته فصائل تيار [الصحوة الإسلامية] . منذ عصر الأفغانى وحتى الآن . هذه « الصحوة » التى علق الأفغانى عليها آمال إنقاذ الأمة من آثار « السقوط » الذى رآه قدرا مقدورا إبان سيادة الجمود وعنفوان هجمة الاستعمار . فلقد تحدث عنها . وعن دورها المرتقب هذا . وهو يتطلع إلى المستقبل . فقال : « .. إننا نحتاج إلى عمل جديد . نرى به جيلا جديدا . بعلم صحيح . وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الأول على الأجساد والأرواح . وهو « الدين » . وجمع ما تشتت من الكلمة من أهل الأديان . وتوطيد العزم على قبول الموت فى سبيل حياة الوطن . يقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأبية عهدا « ألا يقرعوا بابا لسلطان . ولا يضعضعهم الحدثان . ولا يثنى عزمهم الوعيد . ولا يغزهم الوعد بالمنصب . ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب . بل قوم يرون فى المتاعب والمكاره . بنجاة الوطن من الاستعباد . غاية المغنم . وفى عكسه المغرم ! ... » .

ثم استطرد الأفغانى . وهو يستشرف آفاق المستقبل . ويرسم ملامح تيار [الصحوة الإسلامية] . الشعبى .. المسلح بسلطان الدين . بعد فهم حقيقته . وبسلطان العلم .. والسالك إلى غايته طريق الشهداء ! .. يستطرد ليبشر بحتمية انتصار هذا التيار على « السقوط » الذى ساد عالم الإسلام .. فلقد قال القدماء : « الحاجة أم الاختراع .. وقال المصطفى . صلى الله عليه وسلم : « اشتدى أزمة تنفرجى » ! . فالأزمة تلد الهمة . ولا رجاء من المستضعف إلا إذا يئس ؟ ! ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق . ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك . وعلى ما أرى . قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق . فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب . وليس بعد هذا

الضيق إلا الفرج .. سنة الله فى خلقه :

ومهما ادلهم الخطب لابد ينجلى
وأظلمت الدنيا فلابد من فجر ! .. »[38]

هكذا تنبأ جمال الدين ..

والآن نسأل : ألم تصدق نبوءته هذه ؟ ! .. وألا تتعلق الآمال الصادقة ، اليوم ، بتيار [الصحوة الإسلامية] ، الذى يواصل المسيرة على الدرب الذى ارتاده الأفغانى ، ليبقذ الأمة ، « بالنهضة الإسلامية » ، من آثار « السقوط » الذى حال بين مشروع الأفغانى وبين الانتصار فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؟ ! .. إن ضراوة الحملة على جمال الدين ، من أعداء [الصحوة الإسلامية] ، تؤكد هذا الذى نقول ؟ ! ..

* * *

لقد سار على درب الأفغانى ـ درب « الجامعة الإسلامية » ـ كل الذين أبصروا أن نجاة الأمة من « السقوط » فى شراك الاستعمار ، إنما تكمن فى نهضتها المؤسسة على التمدن الإسلامى ، تلك النهضة التى تجلو الوجه الإسلامى والقومى للأمة ، ولا تقطع روابط انتمائها القومى والإسلامى « بالإقليمية » و « العلمانية » و « التغريب » ..

● فأحمد عرابى [١٢٥٧ ـ ١٣٢٩هـ ١٨٤١ ـ ١٩١١ م] قائد الثورة التى ذهب شعار « مصر للمصريين » علما عليها ..

هو الذى استنكر ـ فى رسالته إلى جورجى زيدان ـ أن يكون هدف الثورة العرابية اسقاط الدائرة الإسلامية من « محيط الانتماء » .. وقال :

---

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

«إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين.. لأني أرى في ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه!..»[39]

● ومصطفى كامل [١٢٩١- ١٣٢٦هـ ١٨٧٤- ١٩٠٨م] الذي اتهمه أعداء «الجامعة الاسلامية» - زورا وبهتانا - بأنه «لم يرفع شعار استقلال مصر التام. بل ناضل لإعادة البلاد إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية.. بتبشيره بفكرة الجامعة الإسلامية!»[40].. - وهو الاتهام الذي يوجهه الدكتور لويس عوض إلى الأفغاني! - .. مصطفى كامل هذا هو الذي جمع في فكره وحركته بين كونه «شاعر الوطنية المصرية.. وشهيد الاستقلال المصري» وبين دعوته إلى «الجامعة الاسلامية». باعتبارها إطار الانتماء الفكري والسياسي والحضاري - الاوسع - لمصر!.. فهو يقول: «إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا.. ولا يمنعنا هذا من النظر إلى الوجهة الدولية للمسألة المصرية.. فمصر للمصريين.. ومحال أن نطلب مالكا أجنبيا عنا.. لكننا نود أن نكون قوة محالفة للدولة العلية (العثمانية).. فمن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون.. ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها.. بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع.. فميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، يزكيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسبابا واحدة.. وهذا هو معنى حركة الجامعة الإسلامية!..»[41]

---

(٣٩) انظر كتابنا [العروبة في العصر الحديث] ص ٢٤٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.
[والرسالة منشورة بترجمة جورجي زيدان لعرابي في كتابه [تراجم مشاهير الشرق].

(٤٠) لوتسكي [تاريخ الأقطار العربية الحديث] ص ٢٩٠. طبعة موسكو سنة ١٩٧١م.

(٤١) عبد الرحمن الرافعي [مصطفى كامل] ص ٣٦٧، ٢٢٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٤٨٢، و [اللواء] عدد ٢ مايو سنة ١٩٠٦م.

● وحسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] الذى مثل أحد رموز [الصحوة الإسلامية] التى ارتاد الأفغانى طريقها .. هو الذى يؤكد «العروة الوثقى» بين دوائر «الوطنية» و«القومية» و«الإسلامية» .. بل و«العالمية» .. بالنسبة لمصر وشعبها . فينفى التناقض بين هذه الدوائر . ويبدد شبهات «الاقليميين» و«العلمانيين» و«المتغربين» حول دعوة «الجامعة الإسلامية» وحركتها .. وذلك عندما يقول : «إن مصر هى قطعة من أرض الإسلام . وزعيمة أممه . وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه .. والمصرية لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال .. إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب . عاملون له . مجاهدون فى سبيل خيره . وسنظل كذلك ما حيينا . معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة . وإنها - [أى مصر] - جزء من الوطن العربى العام . وإننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام .. والعروبة - [وهى الحلقة والدائرة الثانية والتالية] - لها فى دعوتنا - كذلك - مكانها البارز وحظها الوافر . فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتخير . ويحق ما قاله صلى الله عليه وسلم : «إذا ذل العرب ذل الإسلام» ! ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها .. إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط كلها عربية . تجمعها العقيدة . ويوحد بينها اللسان . وتؤلفها الوضعية المتناسقة فى رقعة من الأرض متصلة متشابهة . لا يحول بين أجزائها حائل . ولا يفرق بين حدودها فارق .. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام . ولخير العالم كله .. ودعوتنا ذات مراحل . ونرجوا أن تتحقق تباعا . نرجو أن تقوم فى مصر دولة مسلمة . تحتضن الإسلام . وتجمع كلمة العرب . وتعمل لخيرهم . وتحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان .. فواجب أن يعمل الإنسان لوطنه . وأن يقدمه فى العمل على

سواه .. وواجب أن نعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها .. باعتبارها الحلقة الثانية فى النهوض .. وواجب أن نعمل للجامعة الإسلامية . باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامى العام .. ولا تعارض بين هذه الوحدات . بهذا الاعتبار . فكل منها يشد أزر الأخرى ، ويحقق الغاية منها ! .. »[٤٢] .

* * *

تلك هى حقيقة دعوة [الجامعة الإسلامية] وحركتها .. عند رائدها جمال الدين الأفغانى .. وعند الذين ساروا على الدرب ، من الوطنيين .. القوميين .. الإسلاميين ! ..

إن « وطنية » الإسلاميين . دعاة « الجامعة الإسلامية » . هى الأنق والأرق والأعمق من مثيلتها عند « الاقليميين .. العلمانيين .. المتغربين » بما لا يقاس ! .. ناهيك أن ولاء الإسلاميين ـ بعد دائرة « الوطن » ـ إنما هو لقوميتهم وحضارتهم .. أما « الاقليميون .. العلمانيون .. المتغربون » . فإن ولاءهم ـ بعد دائرة « الوطن » ـ منصرف ومتوجه إلى حضارة الأعداء الغزاة ! .

---

(٤٢) حسن البنا [مجموعة الرسائل] ص ٨٨ ، ٩٩ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٧٦ ـ ١٧٨ طبعة دار الشهاب ـ القاهرة .

خرافة المستبد العادل !

إن أبوة جمال الدين الأفغاني لنزعة «الحرية» ، وريادته في الدعوة إلى أن تكون الأمة هي مصدر السلطات ، وأن يكون الحكم للإرادة الشعبية ، في السياسة وتنظيم المجتمع وقيادة الدولة .. إن أبوة جمال الدين وريادته للدعوات والحركات التي نزعت هذا المنزع في عصرنا الحديث هي مما شهدت عليها وقائع هذا العصر ، وصادق عليها الذين أرخوا له في فكرنا الحديث ..

ومع ذلك ، يشذ الدكتور لويس ، فيصادم حقائق الواقع التاريخي ، ويضرب عرض الحائط — دونما دليل أو قرينة — بل ولا شبهة ؟ ! — بما كتبه المفكرون والعلماء والمؤرخون عن عشق الأفغاني للحرية ، ونضاله في سبيل تحرير الأمة من الاستبداد ! ..

إن الشيخ مصطفى عبدالرازق [١٣٠٢ — ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ — ١٩٤٦م] — وهو من هو إمامة وعلما واستنارة وأمانة — يحدثنا عن أن «أساس النهوض للممالك الشرقية» عند جمال الدين الأفغاني قد تبلور في أسس ثلاثة :

١ — خلاص هذه الأمم من سلطان الأجنبي .

٢ ـ وخلاصها من الحكم الاستبدادى ..

٣ ـ ثم تلاؤمها بنوع من الوحدة يقوى التناصر بينها ويكفل لها الغلب .. !

ويستطرد الشيخ مصطفى عبدالرازق ليقول : «وحسب جمال الدين من عظمة ومجد ، أنه ، فى تاريخ الشرق الحديث : أول داع إلى الحرية ، وأول شهيد فى سبيل الحرية»[1] ؟ !

هذا ما قاله الإمام مصطفى عبدالرازق .. وسبقه إليه ، وتبعه فيه العلماء والأعلام الذين كتبوا عن موقف الأفغانى من «الحرية» ومن «الاستبداد» ..

فاذا يقول الدكتور لويس فى هذا المقام ؟ ! ..

إنه يذهب ـ فى بساطة لا تعرف المسئولية الفكرية ـ ليفترى على الأفغانى عندما يتهمه بمناصرة الاستبداد ؟ ! .. وبأنه قد عاش يبشر بحكم «المستبد العادل» ! ؟ .. وبأنه لم يكن أبدا داعية للحكم الدستورى والديمقراطى ؟ ! .. «فما كان يدعو إليه الأفغانى ـ [بنظر الدكتور لويس] ـ هو حكم «المستبد العادل» . فليس فى كلامه أثناء مرحلته المصرية أى برنامج للحكم الدستورى بالمعنى المتعارف عليه ! ..» .

وعندما يواجه الدكتور لويس بتراث الأفغانى ـ مقالات ومحاضرات ـ الذى هاجم فيه الاستبداد والمستبدين .. يسعى لتفريغ هذا التراث من مضمونه الواضح الحاسم الناصع ، حتى ولو كلفه ذلك تجريح مبدأ «الشورى» ومضمونها كفلسفة للحكم فى الإسلام .. فيقول الدكتور لويس ، عن تراث الأفغانى فى هذه القضية : «أما حله لمشكلة الاستبداد ، التى كان يكثر من الكلام فيها ، فيقف عند نظام

---

(١) مقدمة مجموعة [العروة الوثقى] ص ١٤

«الشورى» ، أى «حكومة الحكماء» ، أهل الرأى والعلم والخبرة ـ كغرفة مشورة للحاكم أيا كان هذا الحاكم ! .. »[٢]

ونحن لن نقف ـ فى هذا المقام ـ لنناقش افتراء الدكتور لويس على «الشورى» الإسلامية . فى هذا الفن أبحاث ودراسات كنا نتمنى أن يقرأ بعضا منها قبل أن يكتب هذا الكلام .. فقط نريد أن ننبه إلى أن :

● «الشورى» الإسلامية ، كما جاءت فى القرآن والسنة ، هى «فلسفة حكم» .. وليست «نظاما» مفصلا وجاهزا لكل زمان ومكان .. فأى سبيل يسلكه المسلمون لتحقيق الحد الأقصى من سيادة إرادة الأمة .. هو أقرب السبل إلى روح فلسفة «الشورى» التى دعا إليها الإسلام ..

● وهذا التصور الذى رأى به الدكتور لويس «الشورى» الإسلامية مجرد «غرفة مشورة للحاكم ، أيا كان هذا الحاكم» .. هو ذات التصور الذى يقدمه لها غلاة أهل الجمود والرجعية والتخلف من الإسلاميين ! .. فهنيئا له هذا الاختيار ، وذلك المعسكر الذى وضع نفسه فيه ؟ ! ..

أما ما هى حقيقة موقف الأفغانى من «الحرية» ومن «الاستبداد» ؟ .. فإننا لو وقفنا عند حدود «الوقائع» و«النصوص» التى أوردها الدكتور لويس فى «دراسته» .. لكان ذلك كافيا فى نقض دعوى الدكتور لويس ؟ ! ..

● فهو فى حديثه عن خطبة الأفغانى بقاعة «زيزينيا» ـ الاسكندرية ـ يذكر ، ضمن نقاط البرنامج الذى طرحه ودعا إليه :

(أ) «إدانته استبداد الحكام» ..

---

(٢) [المصور] العدد ٨ ص ٦١ ، والعدد ٩ ص ٦٠

(ب) «ودعوته لإنشاء تنظيم سياسى . هو الحزب الوطنى . ليحمى النظام النيابى» ..

(جـ) «ودعوته لحرية الاجتماع وحرية الصحافة» ..

وهنا نسأل : أليست هذه الأهداف داخلة . بشكل مباشر . فى نصرة الحرية ومعاداة الاستبداد ؟ ! .. وأين هى الدعوة إلى حكم «المستبد العادل» عند من يدعو إلى «إنشاء تنظيم حزبى سياسى» هو الحزب الوطنى . ليحمى النظام النيابى» ؟ ! .. هل النضال لحماية «النظام النيابى» هو - فى رأى الدكتور لويس - من مقومات حكم «المستبد العادل» ؟ ! ..

فإذا أضفنا إلى أهداف الأفغانى هذه . دعوته - كما جاء فى «دراسة» الدكتور لويس عن ذات الخطبة - خطبة مسرح «زيزينيا» - دعوته إلى «إبراز دور القوميات» .. و«إدانته للتعصب الدينى» و«دعوته لتعليم المرأة»[٣] .. الخ .. زاد التساؤل : أليست جميع هذه الأهداف لبنات فى صرح الحرية ، ومعاول فى صرح الاستبداد ؟ ! ..

● وغير محاضرة «زيزينيا» .. فإن الدكتور لويس يقتبس لنا من مقال الأفغانى [البيان فى الانكليز والأفغان] - الذى نشرته جريدة [مصر] فى خريف سنة ١٨٧٨ م - فقرات منها كلمات الأفغانى التى تقول : «فالشرق الآن قد قسمه الأجنبى بسبب تخلفه . ولهذا التخلف سببان :

الأول : التعصب ..

والثانى : الاستبداد ..

أما التعصب فهو : إساءة استعمال الدين ، والخروج عن سنة الأنبياء

---

(٣) [التضامن] العدد ٩ ص ٥٩ .

مؤسسى الأديان .. أما الاستبداد فهو تقييد الأمة بإرادة رجل واحد . وقد انتهت هذه المحنة منذ أن حقق المصريون الحكم البرلمانى الذى لا مناص من تأييده إذا أردنا الاستمرار... ».

لكن الدكتور لويس ، بعد أن أورد هذه الكلمات ، التى يدين فيها الأفغانى الاستبداد ، ويؤيد «الحكم البرلمانى» ويدعو إلى تأييده لضمان الاستمرار على طريق الحرية .. بعد أن يورد هذه الكلمات ، يسعى ليحرم الأفغانى من هذا الشرف ! .. فيقول : إن الأفغانى كان مضطرا إلى هذا القول ، حتى لا يظهر «فى صورة الخائن ، فيفقد كل قواعده بين المصريين» إن هو لم يؤيد وزارة «شريف باشا» الدستورية التى تشكلت فى ٧ إبريل سنة ١٨٧٩ م ؟ !(٤) .. ولم يسأل الدكتور لويس نفسه هذا السؤال البسيط : كيف «يضطر» الأفغانى إلى كتابة كلام فى خريف سنة ١٨٧٨ م نفاقا لحكومة تألفت فى ٧ إبريل سنة ١٩٧٩ م ؟ ! ! .. هل هو «نفاق متنبئ» ياعزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

● ومقالة أخرى من مقالات الأفغانى فى «الحرية» و«الاستبداد» ، يورد لنا الدكتور لويس بعضا من نصوصها .. فنجد فى مقاله عن [الحكومة الاستبدادية] ـ الذى نشرته جريدة [مصر] فى ١٤ فبراير سنة ١٨٧٩ م ـ أى قبل تأليف وزارة شريف ؟ ! ـ نجد قول الأفغانى : «إن من يساسون بالحكومة الدستورية تستيقظ فيهم الفطرة الإنسانية السليمة التى تحفزهم للخروج من حياتهم البهيمية الوضيعة لبلوغ أقصى درجات الكمال والتخلص من نير الحكومة الاستبدادية التى تثقل

---

(٤) [الهلال] العدد ٩ ص ٥٩

كواهلهم..»[٥] .. فالحديث هنا، صراحة، عن التخلص من «نير الحكومة الاستبدادية».

وعن «الحكومة الدستورية».. وليس عن «حكومة الحكماء». و«غرفة مشورة الحاكم أيا كان هذا الحاكم».. فمن أين جاء الدكتور لويس بهذه الأحكام؟! وما حيثيات قوله إن الأفغانى لم يكن له «أى برنامج للحكم الدستورى» فى سنوات إقامته بمصر؟!!.

● أما النص الثالث الذى أورد الدكتور لويس فقرات منه، فهو مقال لأفغانى المعنون: [العلة الحقيقية لسعادة الإنسان] ـ وهو الذى نشرته جريدة [مصر] فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٨ م ـ وهو الآخر مكتوب ومنشور قبل تأليف وزارة شريف باشا سنة ١٨٧٩ م ـ وفى هذا المقال يقول جمال الدين: «**إنه لا طاعة للحكام إلا إذا قاموا بحماية شعوبهم وحكموا بالقوانين العادلة. أما الحكام الجشعون أو الظالمون فلا تجب لهم طاعة.. ولا نجاة للناس من شقائهم إلا بالاحتكام إلى العقل فى كل شىء، وبتحرير أعناقهم من استعباد السلاطين الأنانيين والخروج عن طاعتهم..**»؟!.

هذا ما كتبه الأفغانى، منذ أكثر من قرن من الزمان.. والدكتور لويس يعترف بما فى هذه الأفكار من «حض على الثورة ودعوة إليها»..! لكنه، لا ينسى أن يقول عنها: «**إنها لا تأتى بجديد.. فالأفغانى لا يقدم للناس الحلول الديمقراطية المألوفة، بل يجد الحل فى نظرية «المستبد العادل»!!**»[٦]

أى، والله، هذا هو تقويم الدكتور لويس لآراء الأفغانى المعادية

---

(٥) [التضامن] العدد ١٤ ص ٧٨

(٦) [التضامن] العدد ٩ ص ٦٠

للاستبداد ، والداعية إلى الثورة عليه ! .. وبنقض كلمات الدكتور لويس ؟ ! ..

* * *

ونحن إذا تجاوزنا ما اقتبسه الدكتور لويس من كتابات الأفغانى عن «الحرية» وعن «الاستبداد» ــ وهو كاف ليضع الأفغانى فى مكانه «كأول داع للحرية ، وأول شهيد للحرية ، فى تاريخ الشرق الحديث» ــ كما قال الشيخ مصطفى عبد الرازق ــ .. إذا تجاوزنا ذلك إلى أعمال الأفغانى الفكرية ، فسنجد بها الكثير من الشواهد على صدق ما كتبه العلماء المنصفون عن هذا الجانب من فكره ونضاله .. وعلى سبيل المثال :

● فإن الأفغانى لا يدع مجالا للشك ــ عند المنصف الأمين ــ فى انحيازه إلى مبدأ : «**أن الأمة هى مصدر السلطات**» فى سياسة المجتمع ، بما يعنيه ذلك من ضرورة «استمداد السلطة الزمنية قوتها من الأمة» ، والتزامها بتحقيق مصالح الأمة وحقوقها ، وبخاصة «فى الأمن .. والعدل» .. وذلك بالمبدأ القائل ــ وفق ألفاظ الأفغانى ــ : «**إن الإرادة الحرة للشعب الحر هى القانون**» ! .. وفى هذه المعانى المحددة والواضحة يقول جمال الدين : «إن السلطة الزمنية ، بمليكها أو سلطانها ، إنما استمدت قوتها من الأمة لأجل قمع أهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر على الأمن ، وتوزيع العدالة المطلقة ، إلى آخر ما فى الوازع والسلطان من المنافع العامة .

أما إذا أودعت هذه السلطة رجل غر جاهل عات ، اكتنفه قوم من فاسدى الأخلاق ، مجهولى الأعراق ، يلعبون بالمسلط كيف يشاءون ، ثم يحتجون على الشعب بقولهم : «مشيئة الملك قانون المملكة ! ! » .. هذا القول ، على تلك الحالة ، مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه ، وأن تقاومه

بكل ما لديها من قوة . لأن الحق فى هذا : إن إرادة الشعب ، غير المكره وغير المسلوب حريته ، قولا وعملا ، هى قانون ذلك الشعب المتبع ، والقانون الذى يجب على كل حاكم أن يكون خادما له ، أمينا على تنفيذه» [٧].

● وانحياز الأفغانى إلى مبدأ : «الأمة هى مصدر السلطات» ، و«إرادة الشعب الحر هى القانون» ، لم يخل من التصورات المحددة التى تضع هذا المبدأ فى التطبيق .. فلقد انحاز الرجل إلى صنف «الحكم النيابى» ، ودعا إلى أن يكون «النواب» ممثلين حقيقيين للشعب الذى يتحدثون باسمه ، وأدان «الأشكال النيابية» التى يصنعها المستعمرون والمستبدون .. وفى ذلك كتب يقول : «إن القوة النيابية لأى أمة كانت ، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى ، إلا إذا كانت من نفس الأمة ، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محركة لها ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها ! ...» [٨].

● ولقد سعى الأفغانى ـ أثناء مقامه بمصر ـ وعندما تولى الحكم الخديوى توفيق سنة ١٨٧٩ م ـ سعى إلى هذا الخديوى ليثنى تردده إزاء الحكم الدستورى والنيابى ـ وكانت «حجة» الخديوى أن الشعب لم ينضج إلى الحد الذى يحسن فيه اختيار النواب الأكفاء ! .. فتحدث الأفغانى إليه قائلا : «ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصرى ، كسائر الشعوب ، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به إلى سموكم . وإن قبلتم نصح هذا

---

(٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٣٢٣

(٨) المصدر السابق . ص ٤٧٣

المخلص وأسرعتم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى. فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم وبإرادتكم. فيكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم..»[9].

فالشورى هنا ـ برأى الأفغانى ـ هى الحكم النيابى، النابع من الشعب، والذى يتولى فيه ممثلو الأمة سلطات التشريع والتقنين والتنفيذ.. وليست «حكومة الحكماء» و«غرفة المشورة للحاكم. أيا كان هذا الحاكم».. كما ادعى الدكتور لويس؟!.

● بل إن الأفغانى ليذهب فى إيمانه «بالحكم الدستورى ـ النيابى»، وانحيازه إليه، إلى الحد الذى يرى فيه «حياة مصر والشرق».. وفى فقده «الموات»؟!.. فيقول: «لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق. بدوله وإماراته، إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا. يحكمه بأهله. على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان. لأن بالقوة المطلقة: الاستبداد. ولا عدل إلا مع القوة المقيدة. وحكم مصر بأهلها إنما أعنى به: الاشتراك الأهلى بالحكم الدستورى الصحيح. وإذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب. فأهم هذه الأشياء: (الحرية) و(الاستقلال). لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر. والاستقلال كذلك. بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذا بقوة واقتدار. يجبل ـ [أى يخلط ويطبع] ـ التراب منها بدماء أبناء الأمة الأمناء، أولى النفوس الأبية والهمم العالية. أما تغيير شكل الحكم المطلق بالشكل النيابى الشورى فهو أيسر مطلبا وأقرب منالا؟!»[10].

---

(9) المصدر السابق ص ٤٧٣

(10) المصدر السابق ص ٤٧٧، ٤٧٨

فالمطلوب هو تجاوز «الشكل» الخادع، إلى «المضمون» الحقيقى، الذى يحقق «الاشتراك الأهلى» - [أى اشتراك الشعب فى حكم نفسه] - «بالحكم الدستورى الصحيح»! .. وتلك غاية لابد من أن يدفع الشعب لها «الثمن الغالى»، حتى من دماء أبنائه الأمناء! ..

● وكما أن الحصول على (الحرية) والحكم النيابى الدستورى، قد يتطلب القوة والثورة وإراقة الدماء الزكية .. فإن الحفاظ عليه وصيانته، قد يتطلب هذا الثمن «الغالى - والطبيعى» أيضا! .. إذ «لا يسلم، على الغالب، الشكل الدستورى الصحيح مع ملك ذاق لذة التفرد بالسلطان، ويعظم الأمر عليه كلما صادمه مجلس الأمة بإرادته وغلبه على هواه. ولذلك قلت - [والقائل هو جمال الدين!] - : «إذا أتاح الله رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق يحكمه بأهله». ذلك الرجل، إما أن يكون موجودا، أو تأتى به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى - [أى الدستور] - وتتوجه على هذا القسم، وتعلنه له: يبقى التاج على رأسه ما بقى محافظا أمينا على صون الدستور، وأنه إذا حنث بقسمه، وخان دستور الأمة، إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس؟؟!! ..

هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هى خشيت من أمرائها وملوكها عدم الاخلاص لقانونها الأساسى، أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستورى قلبا وقالبا! ...»[11].

تلك هى أفكار الأفغانى، التى صاغها فى هذه النماذج التى اخترناها من فكره السياسى والدستورى .. والتى ناضل كى يضعها فى التطبيق أيما

(١١) المصدر السابق، ص ٤٧٨، ٤٧٩.

حل أو ارتحل . ومنذ أن انخرط فى موكب نضال الشرق فى سبيل (الحرية) و(التجديد) و(الاستقلال) إلى أن عادت نفسه الزكية إلى بارئها .

فأين هى ، إذن : «الأفكار» أو «الممارسات» .. بل أين «الشبهات» التى تبيح لقلم يستشعر حامله الأمانة أن يكتب إلى قرائه فيقول : إن الأفغانى كان داعية لحكم «المستبد العادل» ؟ !

أين مبررات هذا الادعاء الظالم والشاذ والغريب ؟ ! .

وأين الأمانة فى تناول إمام أضحى ـ بفكره ونضاله ـ جزءا من ضمير الأمة ، على هذا النحو الظالم والشاذ والغريب ؟ ! ..

* * *

وبعد ...

فلقد أشرت فى بعض صفحات هذه الدراسة إلى أنى قد ترددت ، لبعض الوقت ، فى أن أتناول «بالنقد» و«التفنيد» ما كتبه الدكتور لويس عوض عن جمال الدين الأفغانى .. لما تميز به هذا الذى كتبه من مستوى فى الغرابة والشذوذ لم يسبق له ـ فيما قرأت ـ مثيل .. اللهم إلا تلك الكتابات التى خطها جهلاء المبشرين وغلاتهم عن الإسلام ونبيه ، صلى الله عليه وسلم ، قبل أن تشيع المدنية والحضارة فى مجتمعات هؤلاء المبشرين ؟ ! .

لكنى قد عدلت عن التردد ، واخترت أن أكتب هذه الصفحات ، نقدا وتفنيدا ، لما كتبه الدكتور لويس ، لا سعيا وراء إقناعه بخطأ هذا الذى افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ! .. وإنما لأقيم حوارا مع القارئ العربى والمسلم حول القضايا التى عرض لها فيما كتب عن جمال الدين .. ذلك أنى أعلم أن القراء ، حيال الدكتور لويس ، فريقان :

أولهما : أولئك الذين لا يحسنون الظن به ـ أو يسيئون به الظن ـ

وهؤلاء لا يقيمون وزنا لما يكتب .. وإن استفزهم هذا المستوى الذى بلغه فيما كتب عن الأفغانى ! ..

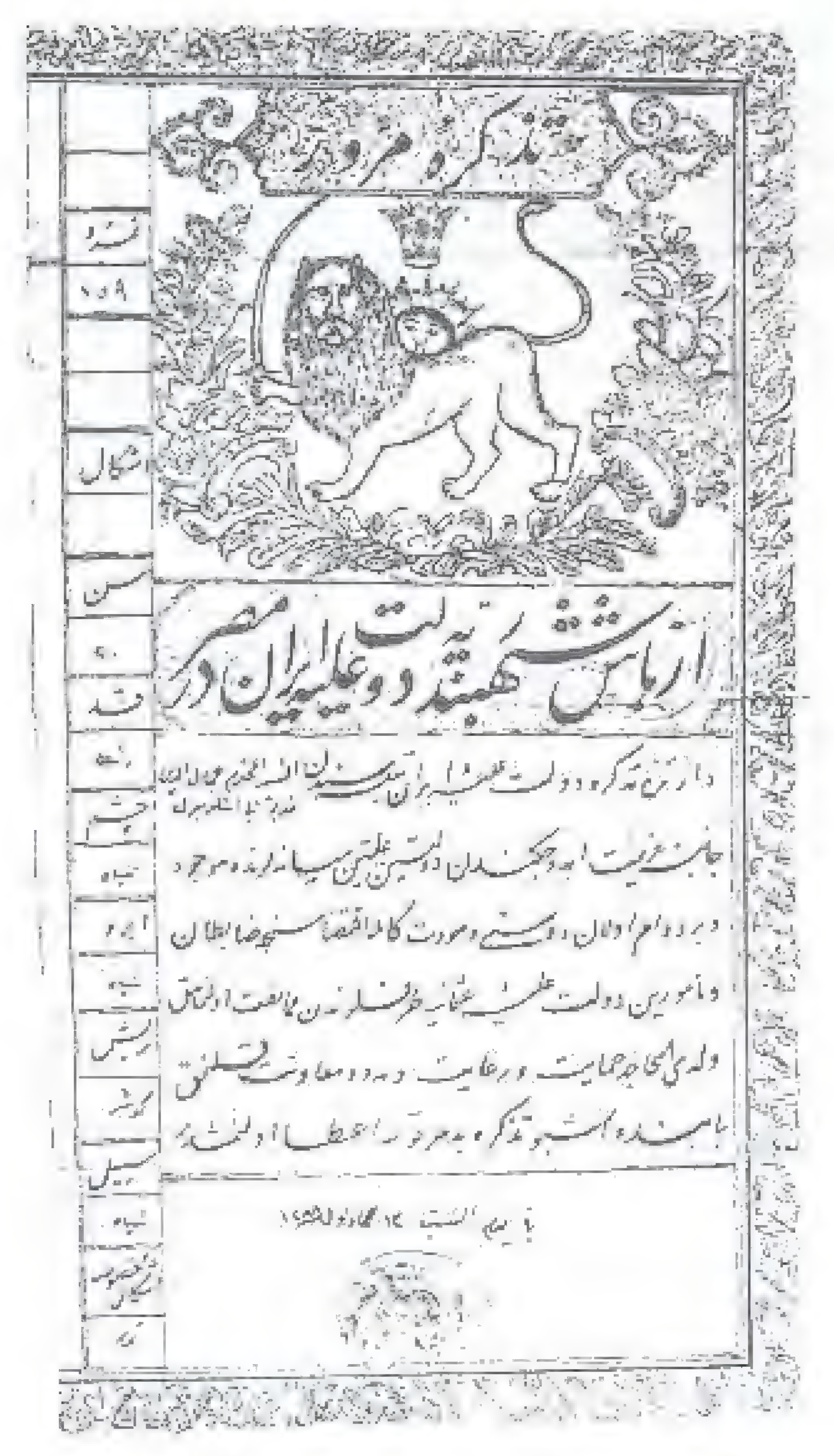
وثانيهما : أولئك الذين كانوا يحسنون الظن بالدكتور لويس ـ ولقد كنت ممن يحسنون الظن بما يكتب الرجل فى نطاق تخصصه عن الآداب والفنون الغربية ـ . ولقد «صدم» هذا الذى كتبه عن الأفغانى ثقة هذا الفريق فيه ، وزلزل حسن ظنهم به زلزالا شديدا ، كما بلبلهم بلبلة كبرى ! .. وإلى هذا الفريق ـ بالدرجة الأولى ـ قصدت عندما كتبت هذه الصفحات ! ..

ولست أشك فى أن «طلاب الحقيقة» ، من قراء الدكتور لويس ، الذين كانوا يحسنون به الظن ، سيرددون معنا ـ وهم آسفون ـ : [عظم الله أجرنا ، فى الدكتور لويس عوض] ؟؟ !! .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى وللقراء .. ولقد هممت أن أستغفر الله للدكتور لويس على ما افتراه على جمال الدين الأفغانى . ولكنى تذكرت قول ربى ، سبحانه وتعالى : [الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله . والله لا يهدى القوم الفاسقين] [12] ! .. صدق الله العظيم .

---

(12) التوبة : 79 ، 80 .



تذکره مرور

از جانب شهبندری دولت علیه ایران در مصر

صورة تذكرة المرور الصادرة من قنصلية إيران بالقاهرة .. والمزعوم أنها لجمال الدين الأفغاني .. والتي حققنا انعدام صلتها بالأفغاني

المراجع

أحمد بن بلا : [المتقى] مجلة فصلية ـ العدد الأول . باريس سنة ١٩٨٣ م .

أحمد عطية الله : [القاموس الإسلامي] . طبعة القاهرة .

الأفغانى (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

: [البابية] فى [دائرة المعارف] تحرير : بطرس البستانى . طبعة بيروت

الجبرتى (عبد الرحمن) : [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

: [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس] طبعة القاهرة .

جرجى زيدان : [تراجم مشاهير الشرق] طبعة القاهرة

جولد سيهر : [جمال الدين الأفغانى] فى [دائرة المعارف الاسلامية] الطبعة العربية ـ الثانية . دار الشعب القاهرة

حاجى خليفة : [كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون] طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م .

حسن الأمين : [دائرة المعارف الاسلامية الشيعية] طبعة بيروت

حسن البنا : [مجموعة الرسائل] طبعة دار الشهاب . القاهرة

الرافعى (عبد الرحمن) : [مصطفى كامل] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢

رشيد رضا : [تاريخ الأستاذ الإمام] طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م

سركيس (يوسف إليان) : [معجم المطبوعات العربية والمعربة] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

سليم نقاش : [مصر للمصريين] طبعة الاسكندرية سنة ١٨٨٤ م .

صابر طعيمة : [الماسونية ذلك العالم المجهول] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .

الطهطاوى (رفاعة رافع) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

الطوسى (أبو جعفر) : [تلخيص الشافعى] طبعة النجف سنة ١٣٨٣ ـ سنة ١٣٨٤ هـ .

فيليب حتى : [تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين] طبعة بيروت سنة ١٩٥٨ م .

الكواكبى (عبد الرحمن) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م

لوتسكى : [تاريخ الأقطار العربية الحديثة] طبعة موسكو سنة ١٩٧١ م .

لوثروب ستودارد : [حاضر العالم الاسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .

لويس عوض (دكتور) : [الايرانى الغامض فى مصر] مجلة [التضامن] لندن ـ الأعداد ١ ـ ٢٢ سنة ١٩٨٣ م [وأصل هذه الدراسة قبل نشرها]

: [تاريخ الفكر المصرى الحديث] جـ ١ ، ٢ . طبعة

كتاب الهلال ـ القاهرة سنة ١٩٦٩ م
: [مقدمة فى فقه اللغة العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .
محسن الأمين : [جمال الدين الأفغانى] طبعة بدون تاريخ ولا مكان الطبع .
محمد عبده : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
محمد عمارة (دكتور) : [العروبة فى العصر الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
: [العرب والتحدى] طبعة الكويت . سنة ١٩٨١ م .
: [المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م
محمد الفاضل بن عاشور : [التفسير ورجاله] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
محمد فؤاد عبد الباقى : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .
محمد مختار باشا المصرى : [كتاب التوفيقات الالهامية] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .
مصطفى عبد الرازق : [جمال الدين الأفغانى] مقدمة مجموعة [العروة الوثقى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .
ميرزا لطف الله : [جمال الدين الأسد آبادى ـ المعروف بالأفغانى] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م
ونسنك (أ . ى) : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩ م .

دوريـــات

[الأهرام]

[السياسة الدولية]

[اللواء]

[ملف المستقبلات العربية البديلة]

الفهـــرس

الصفحة

رقم الإيداع ٢٠٩٤ / ١٩٨٤ الترقيم الدولى ٦ ـ ٠١٤ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧



مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ ـ ٩٥٦٢٩٩ ـ برقيا : شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٣١٥١٠١ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

